# نثريات على هامش الموت

تَنْوِين
للنشر والتوزيع

المدير العام
م . أحمد عادل

مديرة النشر
وسام طارق

مديرة التعاقدات
شهدان عصام

اسم الكتـــاب : نثريات على هامش الموت
اسم المؤلـــف : محمود عادل طه
تصميـم الغلاف : وحيد محمد
تدقيق لغــوي : محمد مصطفى
تنسيق داخـلي : أحمد عادل
رقم الإيــداع : 29463 / 2023
الترقيـم الدولي : 978-977-8951-68-4

جميع الحقوق محفوظة للدار وحدها ©

أي اقتباس أو تقليد أو إعادة طبع أو نشر دون موافقة كتابية يعرض صاحبه للمساءلة القانونية
والدار غير مسؤلة عن آراء المؤلف وأفكاره، وحقوق الملكية الفكرية بالكتاب خاصة بالكاتب فقط

tanwenforpublishing@gmail.
+2 0100 9209 635

جريمة نفسيّة

# نثريات على هامش الموت

## «مأساة مختار عبد الحي»

محمود عادل طه

تَنْوِين
للنشر والتوزيع

لأبي الحبيب من بعد الرّحيل..

"مَازَالَ يَقْتُلُنِي شَـوْقٌ لَكُمْ أَبَتِ..
وَالْحُزْنُ يَـــأْكُلُ مِـــنْ قَلْبِي وَمِنْسَأَتِي
أُفْنِي لِذِكْرَاكَ دَمْعًا أَنْـــتَ مُهْرِقُهُ..
يَا لَيْتَ دَمْعَ الْحَبِيـــبِ بِخِلِّه يَـــأْتِي
كَمْ يَنْكَأُ التَّوْقُ فِي كَلِمَاتِكُمْ جُرْحًا..
لَمْ يَنْدَمِلْ قَـطُّ مِنْ كَتْمٍ وَمِـــنْ صَمْتِ
أُخفِيه طَيّ فُؤَادِي إِذْ يَثُورُ بِـــــهِ..
وَتَفِيضُ رُوحِي إِذَا نَبَسَتْ بِهِ شَفَتِي"

-1

كان صديقًا لي، أعني.. صديقًا افتراضيًّا.

شابّ في الثلاثينيّات من عمره، يبدو من منشوراته أنه يعمل كمسئول للموارد البشرية في إحدى الشركات الخاصّة.. ليس لديه الكثير من الصور الدّالّة على شخصه؛ لكنّ تلك الزوايا الغامضة التي اختارها لالتقاط صوره النّادرة وتلاعبه في إضاءاتها الخافتة؛ بحيث لا تُظهر الكثير من ملامح وجهه بشكلٍ جليّ، قد أبرزا شيئًا من الأناقة الّتي يتحلّى بها الرّجل؛ حيث المعطف الأسود المهندم وساعة اليد لعلامة أوميجا، ومجموعة من الخواتم الفضية المرصعة بأحجار ملونة، وتلك بعضٌ من أمارات الرفاهة ودلائل تيسر الحال. لم يُبد «مختار عبد الحي» لأصدقائه البالغين ألفين ويزيد سوى الكثير من الظرف وخفة الظل، يكاد المتابع لحسابه يجزم أنه في الواقع شخص ذو حضور ذهني متّقد وعقل لامع؛ فلكم تبدو ردوده سريعة طوال الوقت وإجاباته منظمة ومترابطة، له أسلوبه الخاص في دمج المزاح بالجد وفي تهدئة المختصمين على منشوراته، كما أنه رجل عائلي بامتياز، لديه إخوة وأم وخالتان وأبناء عمومة يتبادلون سويا المجاملات والتهنئة بأعياد الميلاد، يظهرون الكثير من الود والتّحابّ ويشاركون في سهرات الخميس فيلما أجنبيا عادة ما يشاهدونه في تجمّعهم الأسبوعيّ، وفي كثير من الأحيان يقوم الرّجل

بمشاركة موقعه؛ ليظهر تواجده في أحد الأماكن العامة بصحبة بعض من أقربائه أو معارفه على صفحته بموقع التواصل.

أتذكّر ذلك اليوم البعيد حين أعلن خطبته من «روان إسماعيل» تلك الفتاة المجهولة التي تضع صورة باقة من الورد على حسابها الشخصي. سارع الجميع بتهنئته وكان أول المهنئين إخوته الذين بادروا بإظهار الكثير من الود لانضمام عضو جديد إلى الأسرة، وبالطبع كانت روان ترد بتفاعلات الحب والامتنان على التعليقات المهنئة، وكتبت في أحد تعليقاتها: «اللهم اجعلني رفيقة محبّة وزوجة صالحة وقرّة عين لك، وأصلح لنا أمرنا ويسّر معاشنا وبارك لنا في ذريتنا يا رب العالمين». وأجابها مختار بتفاعلٍ محبّ، وصار يقابل ردّها بصالح الدّعاء ويمنيها بوعودٍ طيبة، ويظهر لها الكثير من التودّد ويزيدها من المديح.

مختار يصطحب حبيبته إلى السينما ويظهر منشورها على صفحته كم أعجبها الفيلم الرومانسي المعروض في دي بوكس كايرو فيستيفال رغم أن نهايته كانت مؤلمة، قالت أنها تماسكت وحبست دموعها لوجود مختار إلى جوارها في ذلك اليوم. كان حسابها الشّخصيّ خاصًّا كشأن حسابات عائلته وعلى عكس حسابه المزدحم بالمنشورات، غير أنّنا استطعنا من خلال منشوراتها على صفحته متابعة قصتهما بل علمنا ببداية شكواهما من ارتفاع أسعار

الآثـاث؛ رغـم أنهـما قـرّرا ألا يشـتريا سـوى أساسـيات حياتهـما وغرفـة نـوم لطفـل واحـد فقـط، إلى أن يقـررا هـل ينجبـان ثانيـة أم لا.

ظهـرت بعـض المشـادّات بـين الحبيبـين وصـار الإخـوة يتدخلـون ليهـدءوا مـن ثورتهـما ويطمئنوهمـا، إلى أن تصـافى مختـار وروان في نهايـة الأمـر، حتـى بـدا أن كل مـا عكّـر مزاجهـما لم يتعـدّ كونـه زوبعـة في فنجـان، إنهـما متحابّـان حقًّـا؛ فقـد تجـاوزا جميـع الإشـكالات السّـابقة في سـلام، وثانيـة يعـود المتابعـون والأصدقـاء لتهنئـة صديقـي مختـار عبـد الحـي؛ لأنـه وبعـد صـلاة اسـتخارة قـرر بصحبـة روان أن يحـددا موعـدًا لعقـد قرانهـما بصـورة رسـمية.

"يـا مختـار.. إحنـا قلنـا انـت عمـرك مـا هتتجـوز يـا راجـل!"..

يتبـادل مختـار وأحـد أبنـاء عمومتـه المـزاح وتظهـر روان بعـض الغضـب بالتفاعـل عـلى التعليـق والـردود السـاخرة لكنهـا لا تلبـث أن تنخـرط معهـما في المـزاح كذلـك، بـل وتؤكـد لابـن العـم إبراهيـم أنهـا أيضـا اسـتطاعت بمعجـزة أن تظفـر بهـذا المتوحّـد الهـادئ وغـيرت وجهـة نظـره في الحيـاة وعزوفـه عـن الارتبـاط.

-2

"أستاذ محمد ممكن أكلمك شوية؟".

تساءلت داخلي عن الغرض من وراء تلك المحادثة الخاصة التي تجريها معي روان خطيبة مختار عبدالحيّ في ساعة ليلٍ متأخّرة عبر ماسنجر، وأجبتها: «أبدا مفيش مشاكل يافندم، اتفضلي".

صارت روان تكتب ثم تمسح لبرهةٍ من الوقت لكنها عادت لترسل: «أنا أعرف إن حضرتك صديق مختار، هو كلمني عنك كذا مرة قبل كده".

ترددت قليلا ثم كتبت: «يعني.. مش صداقة شخصية، مجرد تعارف على الفيسبوك، هو فيه مشكلة يا أستاذة روان؟".

ردت: «بس أنا حاسة إنه بيعزك شوية زيادة.. يمكن أكتر من باقي أصدقاؤه؛ هو قال لي إنه بيحترمك وعشان كده أنا كلمتك.. هو الصراحة فيه مشكلة وأنا مش عايزة أتقل عليك.. بس والله أنا اضطريت أبعت لك لإن مفيش حد من أسرة مختار بيرد عليا وعلى اتصالاتي".

بالفعل كان آخر منشور يضعه مختار على حسابه منذ أسبوع كامل. أجبت في تروٍّ: «مفيش مشكلة.. اتفضلي يا أستاذة روان.. لو فيه حاجة أقدر أساعد بيها أوعدك إني هحاول أعملها إن شاء الله".

_"مختار مش بيرد على تليفوناتي يا محمد.. وآخر مرة قال لي إنه مش عايز يكمل.. والله ماحصلش مني أي

حاجة.. هو اتغير فجأة وبقى عصبي.. حتى أخته المرة الوحيدة اللي ردت عليا فيها قالت لي إنسي كل حاجة يا روان.. وماتتصليش عشان مختار مانعنا من الرد عليكي خالص.. وأنا والله مش فاهمة إيه اللي حصل.. مختار حالته النفسية وحشة ومفيش حد في البيت بيساعده وأنا خايفة عليه والله أكتر من زعلي على اللي بيعمله معايا.. لو سمحت يا أستاذ محمد كلمه.. حاول تفهم هو ماله وتهديه وقل له مايبعدش حبايبه من حواليه لإنه كده هيخسّر نفسه كل حاجة.. وبإيده".

ترددت لكنني شعرت برغبة في المساعدة خاصة أن روان تركت رقم هاتف مختار الذي لم أكن أعرفه؛ كي أتصل به مباشرة بعد رسالتها، لم تنتظر الفتاة ردا لكنني أجبتها: «إن شاء الله خير.. خلاص أنا هاتصل بيه.. ويا رب الموضوع يبقى بسيط".

لم تجب روان فأمسكت بهاتفي وفي ظرف دقائق كنت قد جلست وحيدا واتصلت بهذا الصديق الغريب لأول مرة، فكرت أنني سأنهي المكالمة بعد رنتين فقط حتى أرضي ضميري بأن أخبرها أنني حاولت الوصول إليه لكنه لم يرد، وسأبرر لها ذلك بأنه ربما لا يجيب على الأرقام الغريبة عنه؛ فقد كان الوضع حرجًا وحسّاسًا وشعرت بأنّ اتصالي ما هو إلّا تدخل مني في شأن غيري لم أعهد القيام به، لكن مختار لم يمهلني وفاجأني بإجابته بعد رنة واحدة؛ فلربما كان يستخدم الهاتف بالفعل وباغتته

مكالمتي.
"ألو".
ترددت قليلا حتى سمعته يكرر: «ألو".
أظهر صوته ترقّبا حذرًا.. لم يكن غاضبا على أية حال لعدم استجابتي لندائه لقليلٍ من الوقت، ثمّ تجاسرت من بعدها بالسّؤال: «أستاذ مختار عبدالحي معايا؟".
رد مختار بشيء من الألفة: «أيوه أنا مختار» ثم صمت وكأنه يريد التعقيب، غير أنّه عاد يهمهم قائلا: «مين معايا؟".
وبدأ الحوار بيننا.. تعجبت لانفتاح الصديق الغريب على الحديث ومناقشة مثل هذا الأمر الشخصي مع طرفٍ غريب، لكنني استشعرت أنه بالفعل يمر بحالٍ سيئة، وأنه انتظر اتصالًا ممن قد يعتبره صديقًا؛ كيما يفضي إليه بأفكاره ومشاعره «أيوه روان بنت جميلة.. ومحترمة وبنت ناس طيبين.. أنا حاسس إني باظلمها معايا لإني مش مستعد للارتباط.. فيه حاجز نفسي بيني وبينه.. ويمكن حاسس إني ماستحقهاش.. ماعرفش.. بس هي أحسن مني بكتير وتستاهل إنسان ظروفه أحسن مني وتركيبته مختلفة عني.. يعني من دون عقد.. من دون كلاكيع ومشاكل.. أنا والله بحبها يا محمد.. بس.. احنا لسه على البرّ وحاسس إنه مش هينفع".
فاجأني مختار من أول اتصال بدعوتي للقائه في الواقع؛ لأنه يرغب في مصادقتي، نعم يبدو مختار صديقًا

جيـدًا محتمـلًا، لكننـي تنصلـت مـن اللقـاء أول مـرة لعـدم استشـعاري الراحـة.
تابعـت حسـابَيْ مختـار وحبيبتـه السّـابقة لبعـض مـن الوقـت.. فتحـت روان حسـابها للعامّـة؛ ربّـما لأنّ مختـار سـبق لـه وأن ألغـى صداقتهـا عـبر فيسـبوك، وهـي مـن أرادت منـه أن يتابـع إشـاراتها وتلميحاتهـا بالفضـول المعتـاد في هـؤلاء المتأرجحين بـين الانفصـال البائـن وآمـال العـودة.
أرسـلت لي طلـب صداقـة لكنّنـي تركتـه معلّقـا لحساسـية الموقـف، تجاهلتـه وظللـت أرى منشـوراتها عـن الصداقـة والحـب وبعضًـا عـن الحـزن والرحيـل، لكـن دونـما تفاعـل وكأنهـا تعيـش بمفردهـا تمامًـا، وبالتأكيـد فمتابعهـا الأكـبرً وعائلتـه قـد انفضـوا مـن حولهـا لبعـض مـن الوقـت، ممـا أثـار شـفقتي وأشـعرني حقـا ببعـض مـن الحـزن حيالهـا؛ فـلا يبـدو أن هنـاك مـن يواسـيها.
بعـد أن أخبرتهـا بعمـلي عـلى إنهـاء الخـلاف شـكرتني في الرسـائل الخاصـة وتمنـت أن تسـاعد مجهـوداتي عـلى حـل الإشـكال القائـم، ثـم وجـدت فيـما بعـد رسـائل مكـررة تخـبرني خلالهـا أن مختـار لم يتجـاوب معهـا، وأنهـا مازالـت تحـاول آسـفة التواصـل معـه غـير أنـه لا يجيبهـا، ورغـم إصراري أنـه لم يعـد بوسـعي القيـام بـشيء فيـما يتعلـق بهـذا الـصراع إلا أنهـا ألحـت عـليّ للاسـتمرار في الضغـط حتّـى عقّبـت: «اعذرينـي يـا أسـتاذة روان.. بـس أنـا هتكلـم مـن منطلـق إنـك بالفعـل سـمحتِ لي أتدخّـل في المسـألة دي..

وهـي للعلـم محرجـة بالنسـبة لي.. بـس لـو هقـول كلمـة تختـصر حـوارات كتـيرة فنصيحـة منـي ـ وليكـي مطلـق الحريـة تسـمعي لهـا أو ترفضيهـا ـ مفيـش حاجـة في الدنيـا تسـتحق مـن البنـي آدم كل التوسّـل ده.. هـو لـو مـش متمسّـك بيكـي يبقـى ماينفعـش تطارديـه بالشـكل ده حتـى لـو كنتـي متخيلـة إنـك بتعمـلي كـده كمسـاعدة لإنسـان بيمـر بحالـة وحشـة.. لإنـك في الحقيقـة بتتنـازلي عـن كرامتـك وصورتـك الـلي المفـروض تفضـل محفوظـة في عـين حـد ممكـن يرتبـط بيكـي فعـلا.. ماتوقفيـش حياتـك عليـه وربنـا يكتـب لـك الخـير مـع حـد غـيره".

لم تتوقـف رسـائل روان، صرت عـلى يقـين أننـي أحـدّث فتـاة تعـاني مـن إحـدى درجـات الهـوس، اسـتمرّت رسـائلها في الانهـمار بـلا توقـف «ازيـك». «أنـا فكـرت عـلى فكـرة في كلامـك يـا محمـد». «تعـرف إني بحـب السـفر والقرايـة؟».. «أنـا اتعرفـت عـلى زميـل قديـم ليـا في المدرسـة». «إنـت ليـه مـش بـترد عـلى رسـايلي؟».. «عـلى فكـرة أنـا كنـت بتعامـل معـاك كأخ بـس انـت مـش بتديني فرصـة». ثـم: «محمـد.. أرجـوك أنـا محتاجـة لك".

بالفعـل تبـدو هـذه الفتـاة محطمـة، لكننـي لـن أخاطـر بإقحـام نفـسي في هـذه المنطقـة الشـائكة، وتأتيني اتصـالات بصفـة مسـتمرة مـن مختـار تبـدو حالـه خلالهـا أفضـل بكثـير ممـا ظننـت، ربـما تعـافى بالفعـل مـن اضطرابـه السـابق ومـن رهـاب الارتبـاط، وربـما أنـه انسـجم مـع مخاوفـه وأصبـح

تأنيب الضمير لفراق خطيبته ماضيًا لم يعد يذكره، ومن يعلم إن كانت هذه مجرّد حجّة للتهرّب من الفتاة المهووسة الّتي تركت فوق المائة رسالة غير مقروءة في صندوق رسائلي المهملة.

"محمد.. روان اتصلت بيك؟".

بدا صوت مختار متحفّزًا لكنّني أجبته بصدق: «لأ.. مابديش رقمي لحد غريب.. إيه الموضوع؟".

أرسل لي مختار أربع صور عبر الماسينجر لمحادثاتٍ بيني وبين خطيبته وأتبعها بعلامات استفهام «أمّال إيه الرخص اللي هي بتعمله ده؟ ليه بتبعت لك كل شوية؟ وكمان انت ليه بترد أصلًا على رسايلها؟".

"أفندم!». قاطعت كلامه بحدة «أرد إيه وماردش إيه؟ إنت بتهرج يابني؟ الكلام اللي مبعوت ده وهي بتحاول توصل لك من كام أسبوع.. وأنا قايل لك إنها كلمتني عشان أبلغك إنها بتحاول تكلمك وانت مابتردش".

"يعني عايز تفهمني إنها ماتواصلتش بيك بعدها؟".

"باشا.. أنا مش عايز أفهمك حاجة.. انتو أحرار مع بعض أنا بره حكايتكم دي خالص".

"يا محمد». يبادرني مختار بالاعتذار: «معلش والله أنا ماقصدش.. كل الحكاية إنها ماوقّفتش اتصالات بيا وأنا مش برد عليها .. لقيتها بعتت لي رسالة على الفون مكتوب فيها: على فكرة محمد صاحبك ضافني في الأصدقاء.. وفيه بيننا رسايل لو عايز تشوفها.. أنا بعت

ليـك عـلى الخـاص.. تعـالى اقـرا صاحبـك كاتـب إيـه".
همهمـت دون أن أتحـدث وشـعرت بـأن مختـار يحـاول فهـم ما أريـد البـوح بـه فأضـاف: «أنـا بـس كلمتـك عشـان أوريـك قـد إيـه هـي رخيصـة وإنهـا بعـد مـا أنـا سـبتها بتلزق نفسـها في أي راجـل وخـلاص.. خـلي بالـك يـا محمـد أنـا ماكنتـش متخيـل إنهـا كـده.. لـو ضفتهـا في الأصدقـاء شـيلها ولـو اديتهـا رقمـك اعمـل لرقمهـا بلـوك مـن الفـون".
"مـاشي يـا مختـار.. عامـة أنـا فعـلا اتبعـت لي منهـا طلـب صداقـة وأنـا ماقبلتـوش ومسـحته مـرة؛ فرجعـت بعتـت تـاني فتجاهلتـه والموضـوع انتهـي، وانـا مابـردش عـلى رسـايلها مـن أكـتر مـن أسـبوع.. هـي عامـة شـكلها مـش طبيعيـة.. وفـك دماغـك انـت كـمان منهـا.. كفايـة خبلانة".
شـعرت ببعـض البهجـة في صـوت مختـار الّـذي قـال: «عـلى رأيـك يـا أبـو حميـد واحنـا خدنـا إيـه يعنـي م الحريـم!"..
وقهقهـه، لكننـي لم أشـاركه الضحـك وبعـد أقـل مـن دقيقـة تحججـت بحاجتـي للقيـام ببعـض الأشـغال وأنهيـت المكالمـة.
تصفحـت الرسـائل لشـعوري ببعـض الفضـول في ذلـك اليـوم.. مـاذا تركـت تلـك الفتـاة في الرسـائل الخاصـة.. مـاذا هنالـك؟ هـذه رسـالة جديـدة: «أول مـرة تبقـى سـين مـن أسـبوع.. إيـه يـا محمـد؟ غـرت لمـا عرفـت إني قـدرت أوصـل لصاحبـك؟".
أغلقت الرسائل ثانية ولم أعقّب.

عـاد النشـاط لحسـاب مختـار لهـذه الفـترة، كان سـعيدا لكنـه ليـس بسـعادة مـن تجـاوز أزمـة، إنـه يشـعر بانتشـاءٍ غريـب، كلّ هـذه التفاعـلات والتعليقـات والمشـاركات، كمسـتخدمٍ في أوج قوّتـه الافتراضيـة، ظهـرت حسـاباتٌ إضافيّـة فيً قائمـة أصدقائـه لكنهـا جميعـا كانـت لشـخصياتٍ نسـائية، لم يضفهـنّ في صمـت بـل في صخـب متفاخـرٍ وفي خيـلاء طـاووسٍ مغـرور: «سـعيد بصداقـة ياسـمين عـلاء» وبعدهـا بأسـبوعٍ «روز طلعـت أتمنـى لـك كل السـعادة.. نـورتي الأكاونـت». «صبـاح مبـارك يـا أسـتاذة صـافي".

– 3

"أنا في كايرو يا برو.. إيه مش ناوي تشوف أخوك؟".

ضحكت في ضيق لكنني أجبت: «إزاي بقى؟ ده عز الطلب يا حبيب أخوك.. إنت فين النهارده؟".

شعرت ببعض التوتر في صوته لكنه أجاب: «أنا في المعادي يا صاحبي.. بس أنا مش مطول.. يعني يادوب ساعة بالكتير وهتلاقيني دبت".

قهقهت وأظهرت بعض التحدي: «أمال فاتح صدرك وعامل لي فيها الديب السحلاوي.. و»أنا في كايرو يا برو». رجعت في رأيك ومش عايز تشوفني ولا إيه؟".

عدّل مختار من لهجته وقال: «بالعكس يا ميدو والله.. أنا زي ما قلت لك كده: في كايرو.. يعني.. قلت أعرّفك على احتمال ولو ضعيف إنك تبقى في المعادي.. انت عارف.. القاهرة كبيرة مش صغيرة".

ابتسمت في هدوء واستشعرت بأنّه ورّط نفسه في لقاءٍ لا يرغب فيه: «على رأيك.. داحنا زي إبرتين في كومة قش".

كدت أسمع مختار يزفر في ارتياح فباغتّه قائلًا: «بس أنا دلوقتي في المعادي.. ومستنيك!".

لم تخف عليّ تلك الصدمة الّتي بدت جلية في تلعثم مختار، لا أعلم ماذا يخبئ خلف هذا التودّد المصطنع، ولا أستوعب كيف يخشى المواجهة بهذا القدر لكنه يظهر عكس ذلك، بل أكثر من هذا؛ فهو يتمعّن رغم

تخوّفه في التماس اللقاء.
"أنا في المترو يا مختار.. يعني انت لو في عرب.. لو في حلوان.. المعصرة.. لو في قلب مقابر كوتسيكا.. هتوصل لي في تلت ساعة مش أكتر.. أنا مستنيك عند محل قهوة تركي اللي بيبيع عند سلم مترو محطة المعادي.. سلام ياسطا".
جلست وأشعلت سيجارة مارلبورو وانتظرت، ربما هو إحدى تلك الشخصيات الانطوائية الّتي تشعر بمزاياها الغائبة على مواقع التواصل، أطفئت سيجارتي وبعد أن أشعلت الثانية فكّرت أنّ الأمر حقًّا لا يحتمل المزيد من الهراء، لكن مهلًا.. كان صوت الزحام أثناء المهاتفة صاخبًا، مارّةٌ واحتكاكاتٌ وأحذيةٌ تلعق الرّصيف وصوتٌ هادرٌ كأنّه موجاتٌ متلاحقةٌ تندفع في سباقٍ محموم نحو.. المترو!
وقفتُ ونظرت من حولي، ربما هي المعادي أو حدائق المعادي، إذن محتملٌ أن يكون هذا الغريب حولي في مكانٍ ما، يحدّق إليّ.
مسحت الموقع بعينيّ سريعًا، ربّما عاملا الوقت والمباغتة وحدهما ما جعلاني أعتقد بأنّ شباك الصيّاد قد انسلّت من بين يديّ، وانتهت إلى يد مختار، لكنه ليس بتلك الشجاعة المتوهّمة، هو يعلم شكلي.. نعم؛ فصورتي واضحةٌ في حسابي الشخصيّ عكس صورته، لكنّه لن يجرؤ على النّظر في عينيّ مباشرة، سيكون على الرصيف

الآخر، حتّى ولو كلّفه ذلك التّحرّك من جانبٍ لجانبٍ عابرًا السلّم الهوائيّ الّذي يقطع مسار القطار، ربما هذه المجموعة وربما غيرها، يعبر الآلاف هذه المنطقة يوميًّا، ليست هذه مبالغة.. الأمر أشبه بالبحث عن إبرةٍ حقًّا في كومةٍ من القشّ!

لكنّه لن يقف فوق الرصيف؛ ليرفع رأسه في إقدام كي يجدني بجوار المحلّ الصّغير، إنّه يبالغ في الحيطة والسّرّيّة، سأسبقه بخطوة وأغير من موضعي لأراقب من ينظر إلى جمهور القهوة التركيّة من الوافدين على المترو، سيكون بجوار أحد الأكشاك المقابلة مباشرةً لي هناك.. سيستند بجسده بالجانب الآخر إلى الحائط.. إلى مرتكزٍ يراني خلاله، أيقنت أنّ هذا الجبان لن يقوى على القفز نحو رصيف الانتظار هنا، إن كان قد وصل بالفعل فهو أحد أولئك العشرة الواقفين هناك.. بعضهم يتحدّث.. هي صحبةٌ ليس منها مختار بطبيعة الحال، وهذا الرّجل الثّلاثينيّ الّذي يبدو في انتظار قطار المترو، لا لقد رحل سريعًا، لن يقوى مثل هذا الشخص على مواجهة إغراء الانتظار.. حتّى أملّ أنا وأرحل، تلك دقيقةٌ غالية.. غادر قطار المترو لتوّه، وأخرجت هاتفي، ذلك الهدوء الأثير هو جلّ ما أحتاج إليه، أخرج هاتفي وتعبر عيني هذا الرّجل الخمسينيّ النّحيل ذا الوجه الهادئ؛ لتقع على مجموعةٍ من المشتبه بهم، إنّني الآن أتصل به! تلتقط أذناي نغمة أحد الهواتف الّتي تصدح الآن من

الرصيف الآخر، وقفت فجأة، أردت إضافة بعض الفوضى للمشهد لتشعر طريدتي أنني خلفها بخطوة واحدة، ستفزع وستفصح عن حقيقتها دون أن تدري.. راقبت الوجوه في تمعّن لكنّها ظلّت هادئة، ومازال الهاتف يصدر رنينه المزعج، إنّ مختار يعلن عن وجوده مضطرًّا لكنّني لا أستطيع إيجاده.

أبتسم وأنهي الاتصال، ثمّ أجلس وأنتظر أن تتحسس الفريسة هاتفها لتغلق الباب الوحيد لإيجادها، لكنّ أحدًا لا يمد يده إلى جيب معطفه، ربّما إنْ لم يكن السّلّم بعيدًا لهرولت إليه واقتربت من مصدر الصوت، وقفت على الحافّة واتصلت ثانية ليبدو الصوت أكثر قربًا ممّا أظنّ.. أيعقل!

يهرول أحد الشباب بخطواتٍ متعجّلةٍ بين الركض والمشي السّريع. أغلقت الهاتف وأسرعت في محاذاته من جانبي؛ لألاقيه عبر سلّم الجسر الرّابط بين الرّصيفين.. أضع عينًا عليه طيلة مسيره؛ لأتأكّد من عدم تلاعبه بالهاتف، وفي اللحظة الصّفريّة لالتقائنا فوق السّلّم أضغط على زرّ الاتّصال، لكنّ شيئًا لا يحدث!

أنتظر فوق السّلم وأنظر إلى هذا الشخص الّذي لم يلق لي بالًا، كان أحد المستخدمين المتعجّلين ليس إلّا، أو هو مختار لكنّه أفلت بمهارة!

تعود عيناي لتلمحا الجالسين عن بعيد وأنا أحاول رصد أيّ حدثٍ غريب، أيّ اضطرابٍ تميد به ساحة

الانتظار، قطعت هذه المرّة الطّريق إلى الرّصيف الآخر، وبصري مثبّتٌ تجاه الحاضرين، الآن يبدو الأمل في إيجاد ضالّتي أمرًا غير محتملٍ فهذه الدقيقة أو تقلّ كفيلةٌ أن تجعل الطّريد يخفي هويّته ويغلق هاتفه.

هو كذلك بالفعل، هاتفٌ مغلق.. أجلس بجوار الرّجل الخمسينيّ وألتقط أنفاسي المتقطّعة، أشعر بيده تربّت على كتفي وهو يقول بصوتٍ حان: «مالك يا أخّ؟ خد نفسك".

أومأت في صمتٍ وأخرجت سيجارة، شعرت بغضبٍ شديد؛ فهذا المختار قد أفلت من بين يديّ وكنت على وشك الإمساك به.

"شكرًا يا أستاذ.. معلش.. هي السّاعة كام لو سمحت ؟ ".

كشف الرجل عن ساعده، بدا أنه نسي ساعته في البيت ثم فتش في جيوب معطفه بحثًا عن هاتفه، وبعد أن رفع سبّابته في الهواء مهمهمًا كمن تذكر لتوه شيئًا، أخرج من حقيبته الهاتف بدلًا من ساعة اليد الّتي لمحتها لجواره، ثمّ ناولني إيّاه مباشرة مظهرًا التّوقيت. كانت قد مضت نصف ساعة منذ حدّثني مختار، شكرت الرّجل وأعدت له هاتفه، ثم نظرت إلى إشعارات حسابي، عندها.. أدركت أنّ طريدي كان قد نشر أنّ والدته نُقِلت إلى المستشفى إثر تدهور حالتها الصّحّيّة منذ عشرين دقيقة كاملة!

حين عدت للمنزل تصفّحت حساب مختار، وبحثت عن أيٍّ من صوره القديمة أملًا في إيجاد تشابهٍ بينه وبين أيٍّ من المشتبه بهم، لكنّني لم أستطع تحديد ملامح وجهه بجلاء.

اجتمع الأهل لمشاركة الأمنيات الطّيّبة بشفاء الأم المصابة، حتى روان ـ تلك الفتاة ذات الدّم البارد ـ علّقت قائلة: «ألف سلامة عليكي يا ماما".

مضت بعض الأيام وأعلن مختار تحسّن حال والدته وخروجها من الرعاية، ثم أعقب منشوره اتصالٌ اعتذر لي خلاله عن عدم حضوره قائلًا: «حقّك عليا والله يا أبو حميد.. أوّل ماجالي الاتصال اتلخبطت وارتبكت؛ معرفتش اروح فين ولا آجي منين.. لقيت نفسي باطلب من النّاس الدّعا وأخدت تاكسي بعدها فورًا، وطلعت لأمّي على المستشفى التخصّصي في هيليوبوليس.. مالحقتش يا محمّد حتّى إنّي أفتكر نفسي ـ إنت فاهم ـ ولا أطلّع الموبايل حتّى وأقول لك".

لأجيبه: «ولا أيّ حاجة يا أستاذ مختار.. سلامي للسّتّ الوالدة ودعواتي".

قلتها في شيءٍ من الرّسميّة؛ لأضع حدودًا لمصادقة هذا الرّجل المثير للرّيبة، ومضت من بعدها أيّامٌ هادئة.. لم يظهر خلالها مختار أو فتاته روان، ولم يعقّبا.

-4

كثيرًا ما ترِد هذه الرّسالة لمستخدمي مواقع التّواصل: حاول شخصٌ غريبٌ استخدام حسابك.. هل هذا هو أنت؟

لربّما بحكم عملي وتنقّلي الدّائم اضطررت للولوج لحسابي الخاص باستخدام أحد أجهزة «العهدة»، لكنّني أبدًا لا أتذكّر أنّني فعلت مثل هذا في ذلك الموقع من القاهرة..

"نيابة دار السّلام والبساتين"!

هذا ما التقطته عيناي أثناء تصفّحي خرائط جوجل الواصفة لموقع هذه المحاولة للاختراق.. عليّ أن أتيقّن قبل أن أحظر استخدام أيٍّ من أجهزتي الخاصّة لحسابي بالفيسبوك.. «هل هذا هو أنت؟".

توقّفت متأمّلًا؛ فلربّما بالفعل كان أنا.. قاربت وباعدت ما بين سبّابتي وإبهامي؛ لأدقق في أسماء تلك المواقع المألوفة.. كانت جغرافيًّا قريبةً من عرب.. مؤمن.. ومحطة مترو المعادي!

وجمت لدقائق.. لا أعرف لماذا قفز هذا الشخص لذاكرتي حينها في فجاءةٍ، رغم اختفائه لما يقرب من الأسبوع.. مختار عبدالحي!

فتحت حسابه، ومرّرت سبّابتي مقلّبًا في هيستريا عبر منشوراتٍ بالعشرات.. بل المئات.. وتنقّلت عيناي هبوطًا على سيلٍ من الكلمات غير ذات الصّلة، إلى أن

أيقنت بأنّ البحث لن يقودني لإبرةٍ واحدةٍ في هذه الأكوام من القشّ.. زفرت في استسلام وأنا على أعتاب أولى كلماتٍ رافقت مختار في رحلته الطّويلة بفيسبوك:
ذهب إلى منشيّة جبريل الابتدائيّة
ولد في القاهرة ١٩٨٦
وأدركت وأنا أضغط القفل في هاتفي أنّني أمسكت بأوّل خيط قد يقودني للحقيقة بمحض مصادفةٍ حين يئست من الإمساك به، وقد استرعى انتباهي ذلك العنوان الغريب: ذهب إلى.. منشيّة جبريل!
أطفأت سيجارتي وفتحت هاتفي من جديد، وبحثت في تلك البقعة حول نيابة دار السّلام والبساتين؛ فوجدت الدّبّوس الأحمر يتوّج العنوان الوحيد الّذي يشير لمكانٍ حسيٍّ معلوم تردّد عليه هذا الشّخص الافتراضي المدعو مختار عبدالحَيّ لفترةٍ طويلةٍ من الزّمن: تلك المدرسة الابتدائيّة المشتركة القابعة على بعد عدّة شوارع من موقع اختراق هاتفي!
أيكون الأمر وليد الصّدفة؟ أم أنّ هذا الرّجل الّذي تجمعني به رسائل هاتفية، وتبادل للملفّات عبر ماسينجر، هو من حاول إيجاد ثغرةٍ بحسابي ينفذ بها لقرصنة كافّة معلوماتي!
ترجّلت عن السّيّارة تاركًا لاب العمل وهواتفه وأشرت للسائق بالانتظار. صار الأمر شخصيًّا، ومازلت لا أعرف دوافع هذا الغريب في تقصّي خصوصيّتي لهذا

الحـدّ.. أشـعلت سـيجارة أخـرى، وفكّـرت لدقائـق، ثـمّ أخرجـت رقـم مختـار، وأجريـت الاتصـال..
"ألو".
بـدا البـشر في صوتـه وهـو يجيـب: «ألـو يـا محمـد.. إزيـك يـا صاحبي؟".
ضحكـت مخفيًـا شـيئًا مـن التّوتـر: «الحمـد لله يـا مختـار، قلـت أسـمع صوتـك.. طالمـا مابتسـألش".
ازدرد مختـار ريقـه ودفـع عـن نفسـه شـيئًا مـن الحـرج قائـلًا: «اعـذرني يـا صاحبـي.. إنـت عـارف.. الدنيـا مشـاغل".
همهمـت مبديًـا التّفهّـم وأمّنـت عـلى كلماتـه: «كان الله في العـون.. عامـةً مـش هعطّلـك كتـير.. عنـدي عـرض حلـو ليـك قلـت أعرّفـك بيـه وأشـوف رأيـك".
شـعرت بعـدم الارتيـاح في أنّـة مختـار، وهـو مترقّـبٌ لا يعـبّر؛ حتـى انقطـع الاتّصـال بعـد تسـعٍ وخمسـين ثانيـةً مـن بـدء المكالمـة.
نفـد الرصيـد.. وأسرعـت بالتقـاط هاتـفٍ مـن أجهـزة العمـل الـدّوّارة بـين عـددٍ مـن مهنـدسي الشّركـة، هاتـفٍ كان بصحبـة أحـد زملائـي المهووسـين بتحميـل التطبيقـات في غـير حاجـة.. حيـث رأيـت الخلفيّـة مزدحمـةً بأيقونـات فيسـبوك، تويـتر، إنسـتجرام، ماسـنجر، إيمـو.. وتروكولـر.. نقلـت رقـم مختـار مـن هاتفـي الشّـخصيّ لجهـة الاتّصـال، وضغطـت.. انتظـرت طويـلًا إلى أن تهيّـأ الاتصـال بينـي وبـين الطـرف الآخـر، وسـمعت مـن جانبـه صوتًـا يجيـب

في تشكّك: «مين؟».
_"أنا محمّد يا مختار.. معلش رصيدي خلص واتّصلت من موبايل الشغل".
"أها!». بدا كشخصٍ نادرٍ لا تأتيه اتصالاتٌ عادةً من أرقام غريبة، غير أنّه تفهّمني وتابع: «عشان كده!".
ثمّ سكت دون تلميح كأنّه لا يريد معرفة عرضي الّذي بدأت في إيضاحه: «جايّة لي عدّة من الصّين.. سمارت فون هديّة.. والحقيقة أنا معايا عدّة أجدد منها.. ومحدّش في البيت محتاجها.. لو تعرف حدّ غلبان أو لو حتّى تحبّ تهادي بيها حدّ.. فممكن نتّفق نتقابل في مكان وتديها لصاحب النّصيب".
تلجلج الغريب وظهر في نبرته شيءٌ من الحيرة والقلق وهو يقول في تلعثم: «يعني لو.. مش عارف والله.. بس أنا مش في القاهرة حاليًا.. ومش عارف هنزل إمتى".
باغتّه بعرضٍ أكثر إغراءًا كما حسبت: «أبعتها لك بريد.. أو مثلاً بشركة شحن، قل لي بس العنوان وأنا هبعتها".
_"لا لا.. بلاش.. بلاش يا صديقي.. يمكن حدّ تاني يحتاجها.. ويستحقّها أكتر من اللي أعرفهم".
شعرت بتهرّبه من لقائي ومن كشف معلوماته الشّخصيّة لسبب مجهول: «طب أنا هبعتها في أيّ عربيّة من خط الميكروباصات من عندي للقاهرة، وهوصي السّوّاق يحطّها في الأمانات ويسيب عليها رقمك.. وانت في

أي وقت تنزل موقف الأقاليم تستلمها.. إيه رأيك في الفكرة؟".

أحسست بالارتياح في صوت مختار وهو يؤمّن: «لو على كده يبقى تمام.. إن شاء الله لما أرجع القاهرة تاني أستلمها.. هي ماك أو إس؟ ولا سمارت فون؟".

_"حد بيستخدم ماك دلوقتي يا راجل يا طيّب! سمارت".

بدا الاهتمام على الغريب وأردف قائلًا: «آي فون!".

ضحكت مستنكرًا: «إذا كنت أنا نفسي مامعييش آي فون.. ده أندرويد يا مختار.. موبايل الشّعب المُعَلّق بين عهد اشتراكية الماك ورأسمالية الآي فون أو إس".

وقهقهنا سويًا.. رغم علمي أنّ مثل هذه المقارنة تظهر قدرًا من اهتمام عاقدها بسياسات الخصوصيّة والحماية من التّلصّص.. لا شكّ أنّه بذاته من حاول للتّو اختراق كافّة بياناتي من حسابي الشّخصي!

وما إن تمّ الاتّفاق وأنهيت الاتصال، حتّى وجدت اسمًا آخر لهذا الغريب في سجل المكالمات لم يكن ليوضحه سوى تروكولر: إبراهيم راجح!

أوّل خاطرة لاحت لي أنّ هذا الشّخص ينتحل اسمًا وصفة مزيّفتين، وربّما يكون في الأمر لبسٌ ما؛ فإبراهيم راجح هو اسمٌ مألوفٌ لي.. لا أتذكّر متى وأين رأيته بالتحديد.. مهلًا! إبراهيم راجح؟ أليس هذا الشّخص أحد أبناء عمومة مختار النشطين عبر فيسبوك؟ فتحت

حسابي، ومنه توجّهت لصفحة مختار الشّخصيّة؛ لأجد تعليقات إبراهيم المتفاعل على منشوراته وخلفيّات حسابه.. نعم.. هذا يضع احتمالًا لتبرئة ساحة مختار من تهمة التّزييف؛ فلعلّه يستخدم شريحةً قديمةً لابن عمّه المذكور.. هكذا سيحفظ السواد الأعظم من مستخدمي تروكولر رقمه عبر جهات اتّصالهم باسم المالك القديم: إبراهيم راجح.

-5

أعترف أنّني أيقنت من لا أخلاقيّة خطّتي، واستطعت رغم ذلك إسكات صوت ضميري الّذي ظلّ يؤنّبني لاستباحة حياة هذا الشّخص الغريب، بدعوى أنّ خطيئتي هي جزاء عادل لخطئه الأوّل، كنت قد وصلت لنقطة اللاعودة؛ فأنا لن أرجع عن وعدٍ قطعته بإرسال الهاتف الذّكي تنزيهًا لصورتي كرجلٍ يحفظ كلمته، كما أنّني لن أنفق ألفين من الجنيهات لقاءه إلّا كي أغوص في دقائق هذا الغريب؛ لتصبح حياته بتفصيلاتها هي شغلي الشّاغل فيما هو قادمٌ من أيّام.

ربطت بيانات هاتفه بالبريد الإلكترونيّ الخاصّ بي. سأضع معلوماتي بين يديه بعد تنقيتها كما أراد هو بمحاولاته للقرصنة، هذا ما سيضمن لي استمراره في تتبّع حسابي وبحثي عبر جوجل بدافع الفضول دون أن يعيد هاتفه لضبط المصنع.. وبعد يومين من التّجهيزات وضعت الأمانة بحوزة رجلٍ من أعلام موقف الأقاليم، واسمه محمد رشيد، يعلم بأمره جميع السّائقين؛ فهو من يقطع بطاقات «الكارتة» لهم قبل الخروج من القاهرة.. "آه يا مختار.. السّوّاق ساب العدّة في أمانة الموقف. اسأل عن عم رشيد أول ما توصل هناك بالسلامة، وألف من هيدلّك".

انتظرت وصول الإشعار باتصال الهاتف بشبكة الإنترنت، ولم يمر سوى يومين إلا وقد وجدت رسالةً

عبر بريد جوجل ببدء النّشاط على الهاتف الذّكي ذي الهويّة المسجّلة، فتحت تطبيق إيجاد الهاتف، وتم تعيين الموقع عبر رابطٍ نقلني إلى خرائط جوجل ليأتيني اليقين من نقطة تبعد عشر دقائق عن مدرسة منشيّة جبريل، ومثلهم عن موقع الاختراق: التونسي المتفرّع من فايدة كامل إلى جوار الدّائري! تلك المنطقة الشّعبية غير المخطّطة والوجه الآخر غير الأنيق للمعادي، والّذي لا يعلم به غير مرتاديه من الفقراء وبسطاء الحال.. هنا بيت مختار عبدالحي! ذكرت أنّني نزلت غير مرّة لتغطية الشّبكة بتلك البقعة، لم تكن السّيّارة لتتحرك سوى بضعة أمتار في الدّقيقة الواحدة حين يشتدّ زحام تلك الشّوارع، وهي كما وصفها السّائق الصّعيديّ المقيم بالمعصرة في إحدى المرّات: «كلّ حتّة متذوّقة في مصر يا هندسة، بيبقى جنبيها خنّ محندق متكربس فيه المخدّماتية والشّغالين بتوع المنطقة دي.. وخنّ المعادي هو العبّ ده.. حاجة كده زيّ الأوضة اللي في جنينة قصر الباشا. السّتّ الشيك من دول تبعت لمكتب تخديم لا مؤاخذة يستلقطوا لها حتّة حبشي ولّا فلبّيني.. وتبقى حرمة مابتعرفش تنطق كلمتين عربي على بعض.. أهمّ حاجة تمشي ورا السّتّ هانم بالمشاوير وتشيل لها البيه الصّغير واخواته البنات.. بجملة المنظرة والتفييس، وتيجي آخر كل أسبوع ولّا كلّ شهر مرة ترجع ـ لو ليها عيال ـ لعيالها في المساكن المخروبة دي، بالقرشين

اللي عليهم القصد. هنا الأفارقة ماليين الدّنيا ومن كل بلد بالألوفات.. ماتعرفش نازلين من إمتى وجايين في إيه.. فتّحنا عنينا لقيناهم اتسرسبوا واحدة بواحدة.. اللي شقيان بدراعه، واللي شبك نفسه في ورشة واللي اشتغلت في البيوت.. واللي بقى بالصّلاة على النبي هجّام ومثبّتاتي.. تقولش المصريين كانت واسعة ومبحبحة عليهم بزيادة وناقصين شوية ونس! لحد ما بقى قصاد كل واحد ابن بلد زي حالاتي وحالاتك واحد من اخواتنا الجراد.. واهي في الآخر بتُرزَق يا سعادة الباشا.. مش قال لك بيرزق النّملة في قلب الحجر؟ ماحدّش فاهم حاجة".

**"لم أملك إلّا أن أسى لحالينا.. تلك العاملة هناك، والتى حسبتها قد فقدت «التّكليف»، وصارت أقرب للكائنات الّتى لا تحرّكها سوى الغريزة.. ما تبقّى من أمومة، وانجذابٍ جسدىٍّ للزّوج، وبعض الأصوات الّتى تطلقها غير عامدة؛ فتخرج كمواء القطط حين تجوع، أو تثاؤبات الكسلان، أو كلماتٍ غير متّسقةٍ تدعو فيها بالخير، وهى لا تدرك من معانى الخير إلّا سلامة أبنائها واستمرار نسلهم إلى نهاية البشريّة".**

***

جلّ ما ظللت أسمعه منذ سمحت لنفسي بالتنصّت عبر مايكروفون الهاتف هو أزيزٌ خفيفٌ إثر حركة الفراش، بعض الأوراد.. أذكارٌ تتبع صلواتٍ هامسة، وامرأةٌ تحدّث نفسها بغمغمات متقطّعةٍ وبكاءٍ مرير! سادت أجواءٌ هادئةٌ منذ استقرّ الهاتف في هذا الموقع، ربّما تهادت لمسامعي أصواتٌ قادمةٌ من بعيدٍ لرجلٍ يحاور تلك المرأة، أيكون هذا الغريب صادقًا في كلّ ما قال؟ هل حمل الهاتف لامرأةٍ فقيرةٍ حقًّا تحتاج إليه؟ وهل كان محض مصادفةٍ أن يُخترق حسابي من نفس موضعه!

"مختار.. إنت جيت يا بني؟".

صدق الغريب إذن؛ فهذا هو اسمه، وإبراهيم راجح هو بالتّأكيد ابن عمّه الّذي أعطاه شّريحته القديمة المسجّلة

باسمه كما ظهر لي عبر تروكولر. أمّا المرأة فيبدو على صوتها الوهن، وهي إمّا أن تكون أمّه الّتي أخبر بشأن مرضها صادقًا، أو امرأة مسكينة يحسن إليها كأمٍّ له ليس إلّا.

"مش كنت تجيب يابني معاش أبوك؟ الدّنيا مابقتش متحمّلة.. والدّاخل يادوب بيكفي الإيجار واللقمة وشربة الميّة ودوا أمك يا مختار.. حتّى لو شوية ع القدّ بس معلش.. أهُم نواية يابني يسندوا الزّير.. انزل يا حبيبي.. يلا يا حبيب أمك".

سمعتها تهدهده كصبيٍّ صغير، ترفق به في كثيرٍ من الأحيان وتقدّم إليه النّصح دونما تجريح. هي امرأةٌ طيّبةٌ لا شكّ. أكاد أرى ملامح وجهها الوديعة في نبرتها الحانية وزفراتها المستسلمة لعناده، حين يصرّ في صلفٍ على ردّ توجيهها إيّاه: «مش نازل يا ماما.. ومش عايز ولا مستني حاجة من حدّ".

***

-7

**"ما هي إلّا سنواتٌ قلائل، وأصبح شيخًا يتذكّر أيّام الصّبا، ويندم أنّه أراد لنفسه الاختلاف؛ حتّى دفعته الفلسفة العقيمة إلى العيش وحيدًا دون أن يشاغل امرأة أو تشاغله، دون أن يحمل إلى العالم مأساة جديدة.. وابنًا جديدًا.. سينقطع نسل والده إلى الأبد، ولن يظهر له حفيدٌ سابعٌ يرث عنه شحمة أذنه أو أرنبة أنفه أو نبرة صوته.. هناك معربدون وجرابيع أنسابهم متّصلةٌ بآخرين أمثالهم وأنسالهم باقيةٌ لأجيالٍ قادمةٍ من بعدهم، بينما والدك الصّالح؛ فسينتهي «سلساله» بك.. وبك أنت، أمّا أولئك الإخوة فلن يحملوا للحياة إلّا إناثًا أو ذكران لا يحملون إلّا إناثًا.. حتّى ينقطع ذكر الرّفاعيّة عن العالم! اللعنة!".**

***

تدعو الأمّ لابنها في كلّ ليلة دعاءًا تخفيه سرًّا بعد ختمها لبعض آياتٍ من القرآن؛ فلا يصل إليّ إلّا كتمتماتٍ تلتقطها مستشعرات الهاتف بالكاد: «ربّنا يرزقك بالزوجة الصّالحة والذّريّة الصّالحة اللي تعوّضك عن الدنيا وهمّها يا مختار".

وتظهر لي المرأة في أوّل انكشافٍ عبر كاميرا الهاتف الأمامية تمامًا كما توقّعتها: بيضاء البشرة ممتلئة الوجه، غائرة العينين سوداءهما، دقيقة الأنف. تعلو جبهتها مسحةٌ من الحزن لا تكاد تفارقها، مثلما أدركت فيما تقادم بعدُ من أيّام. تساقطت ثوابتي الأخلاقية أمام

عينيّ كقطع الدومينو واحدةً تلو الأخرى، وأنا أغوص برأسي حتّى أخمص قدميّ في عالمٍ أثيرٍ لا أنتمي إليه.. أتفاعل مع أكثر تفصيلاته ودقائقه حرجًا؛ حتّى لم يعد لديّ غضاضةٌ في استمراء ما تقصّيته من خصوصيّات الغريب وأمّه وعوراتهما، ذلك الّذي حسبته سيسارع بالتّفتيش عن معلوماتي الّتي أودعتها عمدًا في جهازه الدّخيل؛ فإذا به يضعه في غير اكتراثٍ بين يدي الأمّ العاجزة، ويتركني أبوء بكامل ذنبي أمام مرآتي.

لا تدرك المرأة أنّ بالهاتف كاميرا خلفيّة، تضع بصمتها دون تنبّهٍ فوقها، حتّى تتّسخ عدستها بضبابٍ مقيم، أبصر جسد ابنها في ذلك المعطف الأسود ووجهه مختبئٌ خلف سبّابتها الجاثمة على عين المراقبة المندسّة بينهما.. لا تهتم المرأة سوى بتطبيقي المصحف والآذان في ذلك الجهاز. يخبرها ابنها بأنّه سيغادر، وأنّ المفتاح قابعٌ تحت مشّاءة المدخل كما اعتادا من قبل تحسّبًا لحدوث ظرفٍ طارئ في غياب مختار، قد يضطرُّ خلاله أن يتّصل بجيرته كيما يفتحون الباب لإسعاف أمّه أو تقديم يد العون.

تصل للمرأة مكالمةٌ من جهةٍ غير مسجّلةٍ بالهاتف في عِشاء ذلك اليوم، ويدور الحديث حول ذكريات الماضي وشوق الأم لابنتها وحفيدَيْها الصّغيرين، وعتاب مرير للمرأة الأربعينيّة الّتي تظنّ الأمّ أنّها نسيتها لبالغ الجفاء الّذي تظهره: «إزاي ماتسأليش عن أمك يا بثينة كلّ ده! هانت عليكِ أمّك يا بتّ؟ سوا انتي ولّا إخواتك اللي

سافروا وقالوا عدّوا لنا.. زعلانة منك يا بثينة.. طب اخواتك برّه مصر.. انتِ أقل ما فيها هنا.. العيّاط مش بعيدة يا بثينة.. خدي القطر وتعالي مع عيالك أشوفكم.. ومش عايزة حد يخدمني لو خايفة من خدمتي.. أخوكِ ربّنا يكرمه ويرزقه ببنت الحلال اللي تبرّه وتراعي ربّنا في أمّه الغلبانة.. شايلني في ننّ عينه ومابيتكلّمش".

وتبدو على وشك البكاء، وابنتها تدعو لها بوافر الصّحّة ومديد العمر وتعدّد لها أسباب انشغالها عنها، ما بين «العيّل اللي مرضان بقى له أسبوع» وأخته الصّغيرة المنشغلة في امتحاناتها، وما بين متطلّبات زوجها وربّ أسرتها: «اللي داير يا حبّة عيني في ساقية طول النّهار». وأيضًا: «حماتي العقربة اللي مشغّلاني في البيت تحت رجلها.. وكلّه عشان المركب تمشي.. لو مش عشاني فعشان العيال يا ماما. والله يعزّ عليّ زعلك".

وتنقطع المكالمة مرّة؛ لتعاود الأمّ الاتصال بابنتها من بعدها كي تنخرطا في حديثٍ مطوّل، حديثٍ أرهق قلب الأمّ المحمّلة بميراثٍ من الحزن والمأساة.. ينقطع الاتصال لانتهاء رصيد المرأة النّاحبة، وتطلق زفرة ثقيلة بينما تضع راحتها فوق صدرها.. عانت المرأة من آلام نوبةٍ قلبيّةٍ استمرّت طوال عشرين دقيقة، علمت ذلك بمراقبتي إيّاها، والجهاز يهتزّ في راحتها ويهتزّ معه مشهد وجهها الشّاحب.. يتصبّب عرق بارد عن جبينها وتبدو

عيناهـا الجاحظتـان كأنّهـما تنازعـان شـبح المـوت.. لم أفـزع في حيـاتي قـدر مـا فزعـت في تلـك اللحظـات.. يسـقط الهاتـف مــن يدهــا وتثبــت الكامــيرا الأماميــة في مشــهد الســقف الأبيـض الفـارغ؛ إلى أن تنطفـئ الشّاشـة.

***

-8-

"إنّني لا أشعر بالأمان إلّا هنا، داخل هذه الكرّاسة اللعينة.. أواجه ضعفي بقوّةٍ مدّعاة، وأعلم أنّ الكلمات لن تردّ على الضّربة بالضّربة، أو الإهانة بالإهانة.. كم يشعرك الورق الهشّ بقوّة عظامك! وكيف تطلّ فتاةٌ مثل كوثر باسمةً عبر السّطور؛ لتعلن حبّها الباقي لك، وولائها غير المقيّد؟

كم أصبحت عظيمًا من الحبر والأوراق؟ وكم اتّبعك من الأشخاص المؤمنين بك؟ فأرواحهم ليست سوى حبرٍ بمدواة. لقد أصبحت «مختار» العظيم، بل الأعظم؛ فاهنأ بما حقّقت، واشكر رسغك الذي حرّك يمناك وأناملك الممسكة بالقلم، وصاحب المكتبة الذي باعك المجد بجنيهٍ واحد!

بل اشكر عقلك الذي عبر عما عجزت عن فعله بحياتك البائسة".

***

هل شهدت لحظاتها الأخيرة؟ لا أعلم.. لم أكن لأتمكّن من مساعدة تلك المرأة كيما تبقى على قيد الحياة بعد نوبتها القلبية؛ ففي العادة تستمر الآلام الّتي عالجتها الأمّ لخمسٍ وعشرين دقيقة على أقصى تقدير؛ كي يفضي الانتظار بنفسها المعذّبة إلى الموت أو النّجاة كما أتمنّى. أعلم أنّه لن تصل سيّارة الإسعاف في خمس دقائق لتفتكّ جسدها الواهن من بين براثن الموت، بل إنّه من المرجّح للإسعاف أن يتجاوز تلك المدّة كي يصل؛ ليصبح اتّصالي بالمشفى أمرًا غير ذي جدوى.

ظللت أسترق السّمع عبر هاتفي لالتقاط صوتٍ خافتٍ

لأنفاسها، كأملٍ أخيرٍ لوجود مؤشّرٍ حيويٍّ يدلّل على أنّ المرأة باقيةٌ بروحها لم تغادر. طيلة الطّريق من الملك الصّالح حيث أقيم بشكلٍ مؤقّتٍ ونحو العنوان المذكور، وأنا لا أدري فيما كنت أفكّر؛ أردت رؤيتها فحسب.. ليس لإنقاذها بالضّرورة، بل ربّما لميلٍ نفسيٍّ آثم أن تقع عيناي عليها في وداعٍ أخيرٍ، قبل حتّى أن يدرك رحيلها ذلك الابن الشارد.

انحنيت في تردّدٍ أمام باب شقّتها المتواضعة؛ لألتقط المفتاح من مخبئه السّرّيّ، يعني هذا أنّ مختار لم يعد بعد أو أنّه يحتفظ بنسخةٍ إضافيّةٍ في حوزته.. تلفّتّ حولي، وأدرت المفتاح بحرصٍ؛ كي لا يصدر طقطقاتٍ تنبّه القاطنين لوجود متسلّلٍ غريب، وزحزحت الباب من بعدها رويدًا وأزيزه الخافت يكاد يصرّح بسرّي. سرت متحسّسًا خطواتي وتلك البقعة من الضّوء القادمة من غرفتها ترشدني إلى ضالّتي المنشودة، هنا ترقد العجوز الّتي ألزمها المرض فراشها الأبيض الكئيب.. أقف من خلف بابها متواريًا، وألقي إليها بنظراتٍ ملؤها الفضول لا الخوف، وأنا لا أكاد أتبيّن أحيّة هي أم ميّتة، ظللت أحدّق إليها مؤنّبًا نفسي بأنّ تجابني عن إسعافها قد يفضي بنفس تلك المسكينة في نوبتها القلبيّة إن لم تكن قد ماتت بالفعل.. تقدّمت نحوها خطواتٍ مراجعًا موقفي، أنّني كنت لأطلب سيّارة الإسعاف لتحملها إن عنيت حقًّا بإنقاذها، غير أنّني شعرت بها تتنفّس، وعلمت

من حركة صدرها الخفيفة ما بين صعودٍ وهبوطٍ أنّها لم تزل حيّة. تراجعت في بطءٍ وعيناي مثبّتتان عليها، حتّى كشف جفناها عن بؤبؤيها السّوداوين وهي تنظر إليّ! غمغمَتْ في وهن: «أسبرين".

تجمّدتُ للحظاتٍ قبل أن أدرك أنّها لا تظهر الاندهاش لرؤية غريبٍ بغرفتها في ساعةٍ كهذه من الليل، امتدّت يدي بغتةً لتضرب جميع مفاتيح الإضاءة بلطمةٍ خاطفةٍ دون تفكير.. وغرقت الحجرة في ظلام دامسٍ كسائر الحجرات، عندها قرأت الشّكّ في نبرتها الضّعيفة وشيئًا من الخوف، وهي تسأل: «قفلت النور ليه!".

فكّرت مليًّا وأردت لإجابتي أن تخرج هادئةً وغير مطمئنة؛ كي لا تجرّ خلفها أسئلةً أخرى: «كده أحسن".

تهدّج صوت العجوز في رجفتها: «إنت مين؟".

رددت في برودٍ: «جار".

تلفّتّ حولي متذكّرًا طلب المرأة للأسبرين، يشير الأطبّاء أنّه على الرّجال بعد الأربعين تناول الأسبرين بانتظام، وكذلك النّساء الآيسات بعد زمان انقطاع الطّمث؛ هذا ما يمنع دمهم عن التّخثّر.. ويحميهم من الجلطات المفاجئة، ويخفّف من آثار النّوبات القلبيّة. شعرَتْ المرأة بحركتي؛ فبادرَتْ بإيضاحٍ متخوّف: «الدّوا على الشيفونيرة يابني، على إيدك الشّمال.. ابني نسيه هناك النّهارده".

شعرت بها تستقطب تعاطفي، كأنّما تؤمّن نفسها من

غـدر غريـبٍ تجهلـه ولا تأمـن أفعالـه، تحرّكـت يـدي في الظّلمـة متحسّسـةً موضعهـا الموصـوف، حتّـى قـرّت عـلى شريـطٍ واحـدٍ مـن الـدواء أفرغـتُ منـه حبّـةً صغـيرة، ودنـوتُ مـن فـراش المـرأة لأدفـع بهـا بـين شـفتيها، ثـمّ تراجعـتُ وسـمعتها تهمـس بآيـة الكـرسيّ: «اللهُ لَا إِلَٰـهَ إِلَّا هُـوَ الْحَـيُّ الْقَيُّـومُ ۚ لَا تَأْخُـذُهُ سِـنَةٌ وَلَا نَـوْمٌ".

لم تتجاسر المـرأة عـلى سـؤالي إلى أيـن أذهـب.. واربـتُ بابها، ودفعنـي الإثـم لقصـد حجـرةٍ أخـرى؛ عـلّي أرى صـورة ربيبهـا الغائـب هنـا أو هنـاك؛ فلـم تتـح لي فـرص التلصّـص السّـابقة تبـيّن ملامحـه بعـد.

فعّلـت وميـض الهاتـف وخطـوت عـبر الغرفـة.. يقـع الضّـوء عـلى ملابـس معلّقـة، وأُخَـر ملقيـاتٍ في عبـثٍ فـوق فـراشٍ غـير مرتّـب، كتـبٍ متراصّـة عـلى مكتـبٍ صغـير، وإلى جوارهـا مجموعـة أوراقٍ مكتوبـةٌ بخـطّ اليـدّ، فاتحتهـا البسـملة ويعلوهـا عنـوان منمّـق: « أوراقٌ حزينـةٌ لي.. مختـار عبدالحـيّ"

وتنقّلت عيناي ما بين سطور مقدّمته:

"مـددت جسـدي وجمعـت سـاقيّ وأفـردت ذراعـيّ كأنـما صُلّبـتُ إلى الأرض، بينـما تعلّقـت عينـاي بالسـقف الأبيـض الفـارغ.. كانـت تلـك هـي السـاعة مـن كلّ يـومٍ الّتـي تخـرج فيهـا كوثـر؛ لتجفّـف ملابـس أسرتهـا في الشّـمس، وعينـاى تراقبانهـا مـن خلـف بـاب الشّرفـة، لا أعلـم لمـاذا.. لكنّنـي اليـوم أحببـت صقيـع الأرض وقسـوة الحوائـط أكثـر مـن

اختلاس النّظرات إلى ذات الابتسامة الساحرة والوجه المتلألئ بالحياة".

دسست مذكّرات الرّجل تحت قميصي، وأنا غير عابئ لما سيكون عليه الأمر باكتشافه اختفاءها. كلّ ما أردت فعله أن أتقصّى حكايته بأدقّ تفصيلاتها، ما عاد يعنيني كثيرًا مدى أخلاقيّة ما أرتكبه الآن.. واثقٌ من أنّني سأفلت من أي مساءلة قانونية؛ فلم أسرق مالًا ولم أقتل شخصًا، ولم يثبت وقوع ضررٍ بضحيّتي الغائبة ووالدته. فتحت قفل هاتفي وصرت أقلّب في حساباتي بمواقع التّواصل الّتي يعلم بها مختار؛ لأحذف صوري الشّخصيّة واحدة تلو الأخرى؛ مخافة أن تحمل صدفةٌ عابرةٌ وجهي المعروف للمرأة طريحة الفراش؛ فتدلّل على أنّني ذلك الغريب الّذي تسلّل لبيتهما ذات ليلة؛ لأسرق حياتهما بالكامل.

تفحّصت محتويات غرفته للمرّة الأخيرة، كنت كلّما أردت المغادرة أعود لأنظر في تفصيلة إضافيّة أستدلّ بها على شيء من حياته، أعلم أنّ الأقدار وتجابُني عن العودة قد لا يسمحان لي بفرصةٍ أخرى؛ لأرجع لنفس البقعة من جديدٍ كيما أعاود الكرّة. مسح الضوء الباهر في هاتفي الحوائط تباعًا، كاشفًا صورة الأب المتوفّي متحزّمة بشريطٍ أسود كئيب، يبدو كإنسانٍ بائس لم يلقَ في حياته سوى العنت والشّقاء، وإلى جوارها صورته ضاحكًا وعن شماله زوجته، وهو يداعب أربعة من الأولاد بين

ذكورٍ وإناثٍ في لطفٍ بالغ. ابتسمت على غير إرادةٍ منّي، ونظرت من بعدها لمكتب مختار. تقدّمت إليه وفتحته بحرصٍ وأنا أسلّط الوميض على أجهزة الهاتف المتناثرة داخله. «كاتب مذكّرات الصّبح.. وحرامي موبايلات بالليل!». قلتها سرًّا في دعابة، ثمّ مضيت فاتحًا إيّاهم ظنًّا أنهم قد يكشفون لي على الأقل صورته.. تعجّبت من كون جميع هواتف ذلك الغريب المصاب بجنون الرّيبة محميّةً بأرقام سرّيّة؛ فمن سيتطلّع لسرقته في بيته وداخل مكتبه ثمّ سيهتم ببيانات هواتفه قبل أن يبيعهم بشارع عبد العزيز!

حاولت مرارا فتحهم بأرقام، بحروفٍ، بمساراتٍ، غير أنّني فشلت، وشرعت أغلقَ الهواتف من بعدها يائسًا. وفجأة.. علا صوت من الخارج.. طقطقاتٌ متتابعةٌ عبر عتبة الباب، مفتاحٌ يدور، وخطًى متثاقلةٌ تقترب. كان مختار عبد الحيّ قد عاد لبيته.

لم أَخَفْ، ثبّتّ سلسلة مفاتحي في قبضتي.. سأطعنه بها حين يخطو لداخل غرفته.. حين يراني لن أفكّر.. سأدفع بكلّ قوّة ذراعي في ضربة واحدة مباغتة كي أحطّم فكّه. هذا كلّ ما يتطلّبه الأمر، شعرت بالخواء داخلي لا الخوف، وبعكس ما توقّعت؛ فلا سبيل غير هذا للنّجاة.

تقترب خطواته شيئًا فشيئًا؛ ويترامى ظلّه من أمامي بعدما أضاء أنوار البهو الضّيّق.. تهدأ أنفاسي وتشتدّ

قبضتي ويكاد المعدن البارد يمزّق راحتي القابضة عليه في تأهّب.. إلى أن صدرت غمغمات مفاجئة آتية من بعيد: «مختار!».

يتكرّر النّداء وتلتقطه أذناي وأنا مسندٌ ظهري من خلف باب غرفته المفتوح. يتضاءل ظلّه فوق الأرض شيئًا فشيئًا؛ لينسحب مختار ملبّيًا نداء أمّه..

هكذا رأيته من الخلف، متوسّط القامة ذا شعرٍ أشيب جعد، لم أرَ وجهه، انحنى أمام أمّه ليصغي لكلماتها الخفيضة، وصوتها الهامس، تاركًا الطريق لباب الشّقّة خاليًا، أتطلّع إليه وأنا أطفو فوق الأرض بلا قدمين، وللمرّة الأخيرة أكاد أرى عيني المرأة يرمقانني بنظرةٍ غير مفهومةٍ من فوق كتف ابنها، لأغيب من بعدها عن الشّقّة، فالشّارع، فالمنطقة بالكامل؛ وأركض كمجنونٍ هاربٍ في الطّرقات، دون أيّ مُلاحِق!

***

-9-

"سُئلتُ عن سبب التّمسّك بالحياة؛ فأجبت: الخوف من الموت.. ثمّ عمّ الصّمت، وإذا بضحكةٍ من مصدرٍ قريب «ماذا بك يا مختار؟ ما هذا الكلام؟!». كانوا يريدون إجابةً علمتها مسبقًا: «الإيمان بالله» ابتسمتُ وأردفت: «إذا منع «الإيمان» المدّعَى المصريّين من الانتحار؛ ألم يكن من الأوجب أن ينعكس في معاملاتهم؟! وإلّا فلماذا لا نتذكّر الله إلّا على قمّة بناية، أو فوق كوبري علويّ؟! لعل الارتفاع هو السبب».

ثمّ ضحكت كشيطان صغير".

***

عدت فجر ذلك اليوم إلى فراشي المتواضع بشقّة الملك الصّالح، تلك الّتي استأجرتها خصّيصًا لمتابعة عملي كمهندس موقع من الأقاليم يحيا مغتربًا في أرض القاهرة، لم أنم.. أرّقني أن يكون مختار قد لمحني وعلم بأمري في الليلة المشئومة، أعددت ثلاثة أكواب متتاليةٍ من الشّاي، وجلست أستعيد كلّ ما مرّ بي من أحداث، كيف تأتّى لي أن أندفع بمثل هذه الآليّة؛ لاقتناص لحظات الموت الأخيرة من تلك المرأة العجوز! ولم حملت معي تلك الكومة من الأوراق الّتي ظلّت تشغلني وأنا أراقبها! وكأنّ روحًا لذلك المدعو مختار تتلبّسها لتُحال شبحًا يلازمني في معزلي الكئيب.. صرت كمن يراه ويتمثّل حركاته عبر حروفه الّتي أودعها أوراقًا خائنةً آلت في النّهاية لغريمٍ يجهله.. هو ذلك الابن لأبٍ راحلٍ، في

أسرة بها أختان كبيرتان وأخٌ غيره من الذّكور. مذكّراته قديمة مثلما بدا في اصفرار صفحاتها كأوراق الجرائد، بالتّأكيد لن يذكر فيها أنّ الأسرة قد انفرط عقدها _مثلما سمعت في مكالمة أمّه وأخته المقيمة بالعيّاط_ ورحل بعدها كلّ حبيب لبقعة من بقاع الأرض الشّتّى؛ فذاك حدث غير بعيد وليس من عمر تلك الأوراق القديمة على أيّة حال.. إنّني أضع يدي على صبا ومراهقة هذا الشّابّ الثّلاثينيّ، يبدو لي عاريًا من كلّ حلّة يدّعيها عبر مواقع التّواصل، أطّلع كشيطانٍ على حديث ذاته لذاته؛ فأعرف منه خباياه ودقائقه الّتي ربّما نسيها عن نفسه بفعل تقادم الزّمن وتتابع الأيّام.. احمرّت عيناي وصرت أحدّق عبر مرآتي، كانت العقارب تشير للسّادسة صباحًا وأنا مازلت ساهرًا، سأصل أربعا وعشرين ساعة من اليقظة بيوم عملٍ كامل، يوم تبدأه سيّارة الشّركة بعد نصف ساعة من الآن؛ لتقلّنيَ من أمام مطعم الفلافل الذي أتناول فيه فطوري؛ ثمّ تطير بي إلى محطّة بائسة جديدة تنتظرني، لربّما «نكلة، «برقاش»، «برطس»، أو «المناشي"!

لم أُقرَّع في حياتي لعملٍ قصّرت فيه، بل لم أتخاذل يومًا أو أدّخر جهدًا في عملٍ، ظللت أهزّ رأسي محافظًا لنفسي على ما بقي من قدرةٍ على التركيز، وتلك الغشاوة من النّعاس تدفع جفنيّ للسّقوط، أتابع خرائط جوجل والمسارات المطلوب تغطية الشّبكة بها في خارطة المشروع،

تسرع السّيارات من أمام ناظريّ فوق الطّريق الدّائريّ، ونصل لمفترقٍ فاصلٍ حيث لا أتبيّن أعليّ صعود ذلك المحور عن شمالي أم المضيّ قدمًا فوق الجادّة الرّئيسيّة بالدّائريّ، ألوك الكلمات بصعوبة وأنا أخبر السّائق مشيرًا بسبّابتي في ثقل: «هنا.. اطلع المحور».؛ لينعطف قاطعًا الطّريق على سيّارتين من خلفنا في تأهّب لتنفيذ الأمر.. أتلجلج خيفة أن يكون الطّريق خاطئًا والهلوسات تسيطر على رؤيتي وتدفعني كيما أصوّب في إلحاح: «لأ.. لأ.. كمل في طريقنا.. خد يمين.. خد يمين». لا يعي السّائق ماذا يصنع إثر توجيهاتي المتضاربة؛ فلا يفصل بيننا وبين الحاجز سوى أمتارٍ قلائل والسّيّارة منطلقةٌ فوق الثّمانين. يلفّ الرّجل دفّة القيادة يمنة بسرعةٍ خاطفة، ويختل اتّزان السّيّارة لترتفع عجلتاها اليسريان من فوق الأرض على إثر ذلك. «حاسب!! حاسب!!». لا أعرف كيف التقطت أذناي هذه الأصوات! رُبّ أنّ الفزع قد أطلق دفقاتٍ من الأدرينالين داخلي؛ جعل ما حولي من صورٍ متسارعةٍ تتباطأ، وما تداخل من نداءاتٍ صاخبةٍ في الأنحاء تتحلّل إلى مصادرها الأولى.. يعلو نفير السّيّارات من حولنا وتكاد سيّارةٌ قادمةٌ من الخلف أن تصدمنا، تلتفّ إلى جوارنا بصرير عجلاتٍ مخيفٍ إثر ضغط المكابح، وصوت اصطدام عنيفٍ يعلو من الجانب الأيسر للسيّارة «الجيلي» الّتي يقودها هيثم. نتوقّف والدّخان يتصاعد، ورائحة احتراق الهيكل تزكم

أنفي؛ احتكّ الجانب الأيسر بكامله بالرّصيف الخرسانيّ فتضرّر ببلاغةٍ وتهشّم زجاجه، بل كادت السّيّارة أن تسقط من حافّة الطّريق! توقّف قائدو المركبات من أمامنا؛ ليترجّلوا عن سيّاراتهم، وهيثم يصرخ إلى جواري: «لا حول ولا قوّة إلا بالله! منّك لله يا شيخ! قلت لك اتنيّل اعتذر وروّح بيتك.. شكلك بتنام». ومضى يكرّر في أسى: «العربية! العربية!».

رفع السّائق مكابح اليد في حنقٍ وفتحت بابي لأخرج؛ مفسحًا له المجال كي يلفّ من حولها ملتاعًا ويتفحّص إصابتها البالغة: «دي فيها ولا خمسين ألف!».

تتناثر كلماتٌ من المواساة هنا وهناك: «حصل خير». وتشفٍّ من آخرين: «احمد ربنا إنّكم سُلام!».. «طالما حديد في حديد ومحدش حصل له حاجة تبقى ملحوقة» وغيرهم: «المهم انكم بخير يا راجل». «ربنا يعوّض عليك.. خدت الشّر وراحت!».

تصل كلمات التّعزية إلى أذنيّ؛ فلا تعني لي شيئًا.. أنظر إلى ذلك الارتفاع الشّاهق الّذي أرصد فيه المارّة من تحتي في تهيّب، ويهيمن عليّ شعورٌ غريبٌ أنّني كنت لأهوي منذ قليلٍ عبره، لم يكن يفصلني عن الموت في واقع الأمر سوى لحظاتٍ قلائل وبعض السّنتيمترات الإضافية من انحراف عجلة السّيّارة.

"مش تفتّح يا أعمى وانت سايق!». يترجّل شخصٌ حارّ الدّم وهو يشمّر عن ساعديه بنيّة إيذاءٍ واضحة،

ينفخ الهواء بعنفٍ عبر شفتيه ويزمجر قاصدًا هيثم من بين الجميع، التفتّ إليه وأدركت من أمام سيّارة الشّركة وجود سيّارةٍ أخرى رباعيّة الدّفع أوقفها قائدها بميلٍ قاطعًا الطّريق على حركة الجيلي.

"إنتَ بقى اللي بتكروز بالمخروبة دي ع الدائري وفاكر نفسك في الميريلاند!». أمسك الغريب بتلابيب هيثم ضئيل البنية، وصار يجذبه إليه والرّجال يحولون بينهما، ويمنعونه عن لطمه والنّيل منه. «وحّدوا الله يا رجّالة.. احنا على طريق!».. يبدو الرّجل ضخم البنية متيسّر الحال وهو كمن يُقال فيه: يأخذ الدّنيا بالغلبة والذّراع! تورّط هيثم وهو يغلظ القسم خائفًا: «بالله العظيم ما قصدت يا جدعان.. دا العربية حدفت مني.. والتارة لفّت والجنب مع السّلامة راح.. إزاز مكسّر وبيبان مطبّقة! ودي أكل عيشي.. أنا كده هشحت.. قسمًا بالله ما معايا قرش أصلّحها!".

أقبلت نحو المشادّة، وصرت أربّت على كتف الغريب الّذي لم يأخذ بالًا بعد أنّي رفيق سائق السّيّارة المسكين، ثمّ قلت مهدّئًا: «حقّك علينا يا باشا.. عربيتك الحمد لله ماحصلّهاش حاجة.. والراجل ده سوّاق على قد حاله وبيجدّ عليها".

شعرت بأنّ بعضًا من الغضب قد ذهب عن الغريب الّذي قال شارحًا بإشاراتٍ عنيفةٍ من يده: «يا حبيبي الواد ده كاسر عليّا م الشّمال لليمين فجأة.. ولا إشارة..

ولا مهـدّي.. ولا كإنّـه سـايق عـلى طريـق مفتـوح في دبي!».
أظهـرت التّفهّـم، ونظـرت لهيثـم وهـو يتراجـع مسـلّمًا لي أمانـةً صامتـةً بإنهـاء الموقـف. ربّـتّ عـلى صـدر الرّجـل ونظـرت في عينيـه قائـلًا: «حصـل خـير.. حضرتـك شـكلك إنسـان محـترم.. وهـو في الأول والأخـير راجـل غلبـان عـلى قـد حالـه. هوغِلِـط.. وعـلى فكـرة لسّـه هيدفـع تصليحـات وصيانـة ومرمّـة ع بـال مـا يقفـل الفتحـة الـلي فتحـت عليـه دي.. فـوالله حقّـك رجـع لـك وبزيـادة كـمان.. ماحـدّش اتـأذى والحمـد لله إنّـك بخـير والعربيـة ماجرالهـاش حاجة".
انفـضّ الجمـع وهـدأت الأجـواء، ثـمّ أخرجـت المثلّـث العاكـس مـن صنـدوق السّـيّارة. تابعـت هيثـم ورأيتـه ينـوح كطفـلٍ صغـير. بـدا أنّـه صـار يـدرك عـلى نحـوٍ أعظـم فداحة مصيبتـه بمـرور الدّقائـق، قـام بتصويـر الأضرار عـبر كاميرا هاتفـه، وأرسـلها لمسـئول الحركـة في شركـة المقـاولات الّتـي نعمـل لحسـابها. اتّصـل بـه مـرارًا فلـم يجبـه، إلى أن ردّ عليـه في الأخـير: «فيـه إيـه يـا هيثـم عايـز إيـه؟!".
أراد السّـائق أن يسـمعني الحـوار لرغبتـه في تدخّـلي بقـصّ مـا حـدث، فهمـت ذلـك مـن فتحـه للسّـمّاعة واقترابـه منّـي أثنـاء إجـراء المكالمـة. تهـدّج صوتـه وقـال متأثّـرًا: «العربيّـة راحـت يـا أسـتاذ باسـم.. عملنـا حادثـة ع الدّائـري أنـا وباشـمهندس محمّـد.. افتـح الواتـس عنـدك أنـا باعـت لـك الصّـور".
اسـتنتج هيثـم مـن فـضّي للشّـجار وتخليـصي لـه مـن قبضـة

صاحب السّيّارة الأخرى، أنّي ربّما سأعترف بخطأي في توجيهي إيّاه أثناء العمل حين المساءلة؛ وسيثبت هذا أنّ الاصطدام كان إحدى التّبعات المباشرة لتردّدي في اختيار مسار السّيّارة؛ مما قد يجعل الشّركة تساهم بصورةٍ أكبر في تحمّل نفقات الإصلاح؛ فلا يلتزم هيثم بدفع كامل المبلغ المطلوب، ومن يعلم! فلربّما يرى مسئول الحركة في فعلتي سببًا رئيسيًّا في الحادث، وأحمل عنه بذلك نصف الكلفة كمسئوليّةٍ تضامنيّةٍ؛ ولهذا تحوّلت لهجة السّائق معي من لومٍ وتقريعٍ فور حدوث المصادمة إلى استعطافٍ وتمنٍّ.

"إدّيني محمد".

سمعتها بوضوحٍ، والتقطتُ الهاتف من هيثم.. نظر إليّ ورآني أغلق سمّاعته فورًا وأضع جهازه على أذني، التفتّ وأدرت نحوه ظهري، وقد أدركتُ أنّه قرأ في عينيّ الغدر؛ لم أكن لألتزم بذلك الاتفاق الضّمنيّ الّذي عقده السّائق مع أوهامه؛ مخافة أن أدفع ثمنًا باهظًا جرّاء هذا، ثمنًا يعجز مهندس اتّصالاتٍ حديث التّخرّج مثلي عن دفعه..

"قلت له إيه؟".

أجبته في برود: «اللي حصل".

_"وإيه مصيري دلوقت؟".

رددت غير عابئٍ: «استنى تحقيق من الشّركة".

***

-10-

"هل هي الأولويّات الخاطئة؟ ما الذي يشغله؛ ليترك ابنه يحدّثه؛ فلا يجيبه.. آهٍ.. كم تبدو الصّفعات قويّةً من المقرّبين، تترك ندوبًا لا تمحوها السّنوات! كم يملؤني ذلك بالغضب! بالألم الملتهب! بالدّماء الّتي تغلي! أريد أن أفجّر قلبي بداخلي، أن أموت دون أن أحدث صوتًا؛ كي يحزن هؤلاء عليّ كما لم يحزنوا.. أعلم أنّ حسراتهم عليّ ستغذيني في عالم آخر أحترق فيه بنيران الجحيم، وأنا أراهم يدمعون، وذلك الرّجل الباكي هناك سيتذكّر ودمعه يختنق في عينيه، كيف كان بإمكانه أن يتجنّب انفجار ولده، عندما أراد أن يجد من يحدّثه؛ فأعرض عنه، وتركه كي يفترس نفسه وحيدًا في غرفته، ولا أحد ليمنعه عن ذلك".

***

هذه إحدى فوائد الالتزام في منظومة العمل المصريّة، حين تقف وجهًا لوجهٍ موضع مساءلةٍ مع خصم يعرف الجميع عنه تهرّبه الدّائم، وتنصّله من أشغاله، وإضراره بمصالح المؤسّسة، تكون أنت المصدّق، وروايتك هي الحقّ المطلق، مهما ساق الآخر من مقدّماتٍ ومهما حاك من رواياتٍ شفهيّةٍ محكمة؛ فجميعها حينئذٍ تصبح مكايدةً بارعةً لا أكثر، وكم هي كثيرةٌ المكايدات في بيئة عملٍ كهذه!

لم أؤمن يومًا بوجود عاقبةٍ مباشرةٍ تلي الأفعال اللاأخلاقية الّتي قد نقترفها، وأكّد لي هذا خروجي

من المأزق الأخير بلا أضرار، وكأنْ لم يمسسْني شيء؛ رغم أنّ الحادث وقع إثر وجودي بشقّة مختار، وسرقتي لأوراقه، ومن ثمّ تأخّري عن النّوم ليوم كامل وزيادة. لقد أفلتّ من العقاب، وضربَت شهادتي شهادته حين أخبرت متولّي التّحقيق بالشّركة، أنّني كنت منكبًّا على عملي كعادتي الدّائمة وبشهادة من زاملوني من السّائقين، وانكفأت على متابعة الخارطة في وقتٍ، لم يمثّل لي موقعنا سوى نقطةٍ إحداثيّةٍ على لوحةٍ ثنائية الأبعاد، فوق شاشة اللاب الشّخصي، أنّني أشرتُ على السّائق بالاستمرار في طريقه فوق الدّائري، وألّا ينحرف أو يحيد عنه؛ ليسلك أيّ تفرّعات جانبيّة: «لكن يبدو إنّه سها وكان واخد جنب من الطّريق؛ فلمّا أكّدت له المعلومة اتلهوج، وخاف نتحدف لحتّة بعيدة ونضيّع وقت وبنزين، قام كاسر بالعربية يمين جامد، عجل العربية اترفع شمال والتّوازن اختلّ. كل ده حصل في لحظات.. أنا بتكلم حسب ما فاكر المشهد. أعتقد إنّه خاف نتقلب مع رفعة العجل؛ فرجع عدل شمال ودخل بالعربية في الرّصيف!».

واكتفى مدير الشّركة بكلمتي ليخبرني بأنّني مستمرٌّ في العمل مع سائقٍ آخر، وأنّ هيثم موقفٌ ريثما يُستكمل التّحقيق من مسئول الحركة، وسيتم تقدير النّفقة اللازمة لإصلاح تلفيّات السّيّارة.

حاول السّائق التّواصل معي من بعدها مرارًا، وتهرّبت

منه في كلّ مرّة.. مضى يومان على الحادث وما يزيد عن ستين اتّصالًا غير مجاب، وأرقامٌ غريبة أخرى حاول هيثم الاتّصال بي من خلالها، غير أنّني تجاهلته. لم أعد لفتح النّوافذ بشقّة الملك الصّالح؛ تحسّبًا أن الرّجل سيتربّص بي حيث يعلم أنّني مقيم. بالتّأكيد سيقف هنا لجوار محلّ الفلافل الّذي ألاقيه عنده. أنظر عبر خشب النّافذة لأستطلع قدومه، قبل أن أغادر طابقي وأنتقل لشارع آخر، ألاقي عنده السّائق الجديد. أبحث عبر هاتفي لأجد رسائل متتاليةً من هيثم: «إنت فين يا باشمهندس محمد؟ بالله عليك تردّ عليّا».، «النّاس هيعملوا معايا إيه؟ فيه جديد؟».، «مامعاييش قرش واحد في جيبي».، «أنا راجل غلبان وربّنا العالم بنقضّي اليوم ازاي».، «عيالي هيجوعوا يا محمّد.. أنا عرفت إنت قلت لهم إيه».، «أنا اللي دخلت في الرّصيف، بس انت لخبطتني، لو قلت كده ماكانوش هيدفّعوك حاجة.. يمكن يشيلوا معايا شوية من فلوس تصليحها».، «العربية خرجت سيفتي ومش عارف أصلحها عشان أشتغل بيها، ولا حتّى أدفع أقساطها».، «يا محمد.. يا باشمهندس.. فيه ربّنا فوق الكلّ».، «بدعي ربّنا يردّ لك اللي عملته فيّا وتحسّ بالكسرة اللي حاسسها قصاد عيالي".

ألحّت عليّ خاطرةٌ بأن أهرب من التّفكير في شأن هيثم، ذلك الّذي شعرت بأسفٍ صادقٍ تجاهه، غير أنّني لم

أكـن لأسـتطيع أن أحمـل عنـه شـيئًا مـن المسـئوليّة الماديّـة عـن الحـادث، ولم أكـن لأتراجـع كذلـك عـن شـهادتي؛ فأوصـم بأنّنـي شـهدت زورًا في بـادئ التّحقيـق.

أخرجـت لابي الشّـخصي وفتحـت بريـدي الإلكـتروني لأتصفّحـه وغرفتـي غارقـةٌ في الظّـلام كـما قـررت أن أفعـل منـذ الحـادث. راجعـت بعضًـا مـن مقابـلات العمـل الّتـي عـليّ القيـام بهـا للأسـبوع القـادم، ولمحـت إشـعارًا عـن نشـاطٍ جديـدٍ بالمحمـول ذي الهويّـة المسـجّلة.

سـأغوص ثانيـةً في عالمـي الأثـير.. أنظـر عـبر الشّاشـة إلى المـرأة وهـي ملقـاة عـلى ظهرهـا، وتتحـرّك شـفتاها في همسٍ خفيـض. تلـك أورادٌ تتمتمهـا الأمّ في مرقدهـا، ولجوارهـا شـبحٌ غـير واضـح يتحـرّك في الظّـلام، تنظـر المـرأة عـن يمينهـا، ويميـل الهاتـف ملتقطًـا صـورةً لكتلـة سـوداء تحيـط بهـا ذراعهـا. ذلـك هـو الابـن مختـار ينـام كطفـلٍ صغـيرٍ في حضـن أمّـه!

لم أعهـد رؤيـة مثـل هـذا المشـهد فيـما سـبق مـن أيّـام.. مـاذا اسـتجدّ خـلال يومـين مـرّا مـن الغيـاب؟ تحمـل الإجابـة المـرأة، وهـي تتقلّـب بوجههـا في قلـقٍ انطبـع عـبر ملامحهـا في إضـاءة شاشـةٍ ليليّـة، يبـدو أنّهـا تُرَبِّـت عـلى كتـف ابنهـا خـارج المشـهد، ويصعـد صوتهـا هامسًـا: «مختـار.. سـامع صـوت يابنـي؟».

"مفيش حاجة".

تخـرج كلماتـه ناعسـة متملّلـة، وتـردّد الأمّ آيـةً سـمعتها عـلى

لسانها من قبل: «اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ".
زفر مختار في ضيقٍ وقاطع المرأة: «ما عفريت إلّا بني آدم يا ماما".
ألهذا تلت العجوز الآية! أحسبت أنّني من الجنّ وأنا في غرفتها أضع حبّة الأسبرين بين شفتيها! كدت أبتسم، غير أنّني تلفّتّ حولي متذكّرًا أنّي غارقٌ وحدي في الظلام..
شعرت برهبةٍ لذلك الهاجس، وخوفٍ من نفسي قبل أن يكون من وحشتي في هذا المعزل البعيد، ثمّ ألحّت عليّ كلمات مختار في أوراقه الواقعة في حوزتي:
"إنّه ذلك الكائن القابع في ظلمة القلب يضحك هازئًا ويبكي متحسّرًا.. كان على علم ربّما بما ستؤول إليه الأوضاع بعد زمنٍ طويل من التّقلّبات والأزمات، والتّأرجح بين اليأس والأمل.. يحدّثني وقد قادني الفراغ إلى مسامرته ليلًا، وقد خلت غرفتي، وغرق الجميع في نوم عميق.. وفيما بدت نظرةً صافيةً إلى ضبابيّة الماضي وتعقّد الحسابات.. أفضى إليّ بأنّه كان يؤمن إيمانًا كبيرًا بوجود الشيطان.. ما يعادل اعتقاده الصادق بوجود الله.. كان يرتجف أحيانًا حين يتبادر إلى ذهنه أنّه طرفٌ في صراع بين الخير والشرّ، يحكمه قطبٌ أعظم يحيط بكلّيّات وجزئيّات الكون المترامي دائم الاتساع.. الإله العظيم الّذي ترك النّفس لتحمل الشّرّ وتتفاعل مع الشّيطان، حتّى تصبح شيطانيّة المنزع والاتجاه؛ كي تجري حكمته

المطلقة في النّهاية بشرطيّة الثّواب والعقاب، وارتباطها بحرّيّة الإرادة.. يذكّرني وقد ارتجف لذلك الخاطر القديم، كيف صوّر عقله الشّيطان وهو يقترب في تلك اللّحظة ويحيط به.. إنّه يسمعه يحدّثه ويستشعر وجوده بمدركاتٍ خفيّةٍ تشبه السمع والبصر.. يملكه بالخوف ويجعله يفكر.. «أين الإله؟».

يهرول خارج غرفته وكأنّ الشيطان يتلبّسه، ويقوده إلى جحيم من الافكار.. فقط عندما يبصر أحد إخوته جالسًا غير بعيدٍ منه يطمئنّ.. ويعود عقله إلى الاتّزان.. ربّما ليس الشيطان بتلك القوّة المتخيّلة والملصقة به زورًا، وإلّا لما عصمني منه أخي الأكبر حتّى دون أن يدري!».

تقرأ الأمّ أورادها، ويرتخي جفناها في بدايات النّعاس، تتوقّف قليلًا ثمّ تعود لتلوك الكلمات ببطء، في مقاومةٍ أخيرةٍ لبواكير النّوم، وفي النّهاية تسقط رأسها فوق صدرها في استسلام.

أتثاءب بدوري، وأضع راحة يدي فوق شاشة اللاب، في استعدادٍ لأخذ غفوة حتّى الفجر، غير أنّني أتوقّف.. يرتبك المشهد أمامي، وتهتزّ الغرفة السّاكنة، تلتقط يدٌ أخرى الهاتف وتتحرّك ظلالٌ سوداء من أمام الكاميرا.. الأمّ مصابة بالتهابٍ في الأعصاب يجعلها غير قادرةٍ على مفارقة الفراش، ذاك شيءٌ فهمته من مكالمات المرأة بجارات بيتها القديم ورفيقات طفولتها، وإطلاعهنّ على مستجدّات ملفّها الطّبيّ؛ لذا فتلك اليد هي يد مختار،

وهـو مـن ألقـى بالهاتـف في جيبـه ليختفـي مـن أمامـي كلّ شيء.
تـرد الأصـوات خافتـةً، وتتداخـل في نومـي الهـادئ، أشـعر بهـا تمتـزج بخيـالاتٍ وأحـداثٍ مبهمـةٍ في اللاوعـي: مـواءٍ للقطـط، نبـاحٍ للـكلاب في الحـيّ، خطـواتٍ تـضرب الأرض في تعجّـل، صَريـرٍ للرّيـح يرافقنـي وأنـا أسـير عـبر طريـقٍ طويـل، ونفـير سـيّاراتٍ لا يـكاد يتوقّـف في شـوارع القاهرة، يتهـادى مـن بعيـدٍ عـبر السّـماء، ويترامـى إلى مسـامعي هادئًـا خفيضًـا.
ومـا بـين النّـوم واليقظـة أسـمع قهقهاتٍ لرجـالٍ يتسـامرون، وقرقعـاتٍ لنـيران ومياهًـا تقرقـر في أرجيلـة: «ومسـكت الـواد مـن قفـاه، وعفقتـه بإيـدي زي دكـر البـطّ، والنّـاس تحـوش مابيننـا زي مـا تحـوش.. ويهديـك يـا عـمّ يرضيـك ماحلّتهـوش".
أتيقّـظ وأرى معطفًـا أسـود يطـلّ عـبر شاشـة الـلاب تـوب، هنالـك مـن يسـتخدم الهاتـف في تلـك السّـاعة مـن الليـل، أقـوم بفتـح الكاميـرا الخلفيّـة وأنظـر لتلـك الوجـوه المصطفّة خلـف النّـار الموقـدة، أكـوابٍ مـن الشّـاي ورشـفاتٍ صاخبـة، أرجيلـةٍ حائـرةٍ تتنقّـل مـن يـدٍ ليـد، وسـجائر فـرطٍ يوزّعهـا متسـامرٌ بسـخاءٍ لتقـرّ بـين إصبعـيْ زميـلٍ آخـر مـن الأشـقياء.. أيـن هـم؟!
تبـدو الجُـدُر المتشـقّقة مـن خلـف الظّهـور لأبنيـة صغـيرة، وتظـلّ غـير مفـسّرة المعنـى إلى أن أغـيّر الزّاويـة؛ لألتقـط

كادرًا آخر أكثر بانوراميّة.. أصغّر الرّؤية حتّى تبرز القباب الضّئيلة تعلو الأبنية المتراصّة، وآيات من الذّكر تزخرف الرّخام والحجر: «كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ»، وأدرك أنّ مختار ورفاقه مجتمعون بليلهم في مقابر المسلمين.

لم ينخرط الرّجل مع صحبته في أحاديثهم الدّائرة بالنّميمة عن النّسوة والأشغال والاقتصاد والسّياسة؛ فلم يصدر صوتٌ قريبٌ من الهاتف آلفه لأتعرّف عليه. إمّا أنّ مختار يميل بطبعه للصّمت، أو أنّ هناك ما يشغله في تلك اللحظات عن الكلام.. قام الرّجل عن الأرض الّتي يفترشها وصوّب الرّفاق نظراتهم نحوي عبر الشّاشة: «ها.. على فين العزم؟".

لم يجب مختار، وظهر في جانب المشهد رجلٌ يرتدي عباءة بيضاء ويشير بيده للمتحدّث في هدوءٍ؛ كي يخفض من صوته وهو يومئ: «سيبوه.. سيبوه".

تبعته وهو يتنقّل ما بين الشّواهد، ووميض الكاميرا يكشف لي عن ملامح المدقّ الترّابيّ الضّيّق الّذي يسير عبره الرّجل، وإلى جوار ذلك المدفن ذي الأدوار الثّلاثة، توقّف مختار، وتوجّه بجسده صوب غرفة صغيرة تمثّل العين الرّجاليّ لمدفن أسرة «المهندس عبد الحيّ الرفاعي» كما استقرأتُ من النّقوش الغائرة على ناصيتها، تلك يد الابن وهي تتحسّس حروف اسم أبيه حرفًا بحرف، وكأنّه يمرّ بأنملته من فوق ملامح وجهٍ منحوت، يشهق كمن يتنفّس لأوّل مرّةٍ بعد نوبة اختناق، ويتبعها بآهةٍ

متّصلةٍ تنطلق كصرخةٍ نادبة: «آه يابا.. آآآه». وصوتٌ لمصمصةٍ بجانب شفتيه يظهر أسىً عظيمًا: «سبتني لوحدي يا بابا». وتهدّج صوته ناحبًا: «ماكنتش مستعد لده». وكرّرها: «ماكنتش مستعد». ثمّ زفر في استسلام قائلًا: «وحشتني يا بابا.. ربنا يرحمك ويغفر لك ويجعل مثواك الجنّة".

أغلق مختار الوميض، وغرق في ظلام دامس. تناثرت آياتٌ من فاتحة الكتاب همس بها الرَّجل، ودعاءاتٌ طويلةٌ بالرّحمة، وأورادٌ متّصلةٌ من الذّكر، قبل أن يضيء المشهد المظلم من جديد، ويسير مختار بخطواتٍ متثاقلةٍ لمدخل المقابر الرّئيسيّ، وبعد أن وصل لخارج حدود مدينة الموتى الهادئة، التفّ الرّجل رافعًا كاميرا هاتفه؛ ليلتقط تذكارًا كئيبًا: صورةً باهتةً تظهر يافطة خشبيّةً تعلو البوّابة الحديديّة العظيمة، مكتوبًا عليها بخطٍّ أسود: مقابر كوتسيكا.

***

-11-

"ركّزت بصرى على تلك البقعة من الفراغ، والتى لا تختلف عن باقى الحائط، واستجمعت صورة معلّمى المدرسة وهم يقبّلون طالبهم المثالىّ مختار عبدالحى الرفاعى، وهذا الرجل الأسمر البدين وهو يقول لى: «سلّم لى على بابا يا مختار". شعرت حينها أنّ علىّ أنْ أمسك بمقعد المدير وألصق وجهه فى الحائط، لكنّنى ابتسمت وأومأت برأسى.

كان ذلك الفتى مدّعى الثّقافة يقول لى: «حافظ على عدائيتك لمن حولك، ولكن إيّاك أن تظهر ذلك، حتّى ولو صرت قويًّاً كفاية». لكنّنى كنت أعلم بالفعل أنّنى ضعيفٌ ولا أقدر على إظهار الكراهية، وأيضًا قوىّ الذاكرة؛ فلا أنسى لماذا أكره، وغير قابلٍ للتّأقلم ممّا يدفعنى للموت كمدًا وببطءٍ شديد.

سمعت الطّرقة المعتادة على الباب وذلك الصوت الذى يتبعها: «الأكل يا مختار".

"حاضر». إنّه ذلك الاستسلام للرّوتين اليومىّ، والوقت الذى أُرغَم فيه على البقاء فى غرفةٍ واحدةٍ مع أسرتى لتناول الطعام.. أقوم متثاقلًا وكارهًا للحياة؛ كى أفتح باب الغرفة، وأبدء باستنشاق رائحة الطعام غير حافلٍ به، ثمّ أجلس بجوار والدتى كما اعتدت..

"بسم الله الرحمن الرحيم"

ويحلّ الصمت كما يجب للصّمت أن يكون؛ فلا يصل إلينا إلّا أصوات الشارع وأزيز المروحة".

***

دارت المروحة من فوق المكتب، وتابعت عيناي مسئولة الموارد البشريّة الّتي تجلس أمامي في هدوءٍ روتينيٍّ كموظّفي الأرشيف، أومأَتْ وأشارَتْ لي بالدّخول بعد مناداة اسمي: «اتفضّل يا باشمهندس".

أكاد أجزم أنني رأيت ذات المشهد فيما سبق من مقابلات عمل، شأنه في ذلك شأن شركتَيْ المقاولات اللتين عملت لحسابهما من قبل، أطفأتُ سيجارتي، وعبرت الرّواق نحو غرفةٍ منفصلةٍ جلس فيها المسئول عن الاختبار التّقني خلف طاولته، وبادر بمصافحةٍ ودودٍ كشفت الكثير من التّرحاب، وحيّاني بابتسامةٍ قائلًا: «نوّرت يا محمّد. اسحب لك كرسي".

وبعد نصف ساعةٍ لا أكثر، تمّ الهدف من المقابلة: تجاوزت الاختبار، وقُبِل تعييني في موقعي الجديد، وتحدّد كذلك الرّاتب، سيتمّ التّوقيع بعد شهرٍ واحدٍ فقط، وفور تقديم إخلاء الطّرف من عملي الحالي، وحصولي على أوراقي اللازمة المتحفّظ عليها من قبل الشّركة الأولى.

قدّمت الاستقالة عبر البريد الإلكتروني الشّخصي، ولم تمرّ سوى ساعتين، وإذا بالمدير التنفيذيّ للشّركة يحدّثني في مكالمةٍ هاتفية قائلًا: «ها يا محمد، نويت الرّحيل؟".

ابتسمت وأجبت: «حال الدّنيا يافندم.. التّغيير سنّة الحياة، طبعًا.. كانت فترة مهمّة في حياتي، وخطوة كان لازم آخدها في مسيرتي المهنيّة، قابلت حضراتكم..

أشخاص محترمين.. بيئة عمل جميلة وودودة.. والتّجربة اللي خضتها معاكم كان لازم أمرّ بيها واعيش تفاصيلها بحلوها.. وبصعوباتها".

قطع المدير سيل «الكلاشيهات» المعتاد في مثل هذه المواقف مؤمّنًا: «مفهوم.. مفهوم.. طيّب.. نتمنّى لك الخير في مكانك الجديد يا محمّد، وإن شاء الله تكون لينا قعدة معاك الأسبوع الجاي في الشّركة.. هنتظرك".

ربّما يكون في هذا خروجٌ عن دائرة القدر المحكمة الّتي ألقتني لسلسلةٍ من الأعمال الرّوتينية، يتلقّفني فيها عملٌ بعد عمل.

الاشتغال ببعض مواقع الاتصالات يشبه الشغل في الفاعل، حيث لا يشفع المجهود البدنيّ المنهك المبذول لقاء بعضٍ من الجنيهات، حين تنهي عملك وتلحّ للعودة إلى منزلك، سيتحقّق الهدف الرّبع سنويٍّ للمشروع شئت أم أبيت.. وستخرج من تلك الدّائرة لتجذبك أخرى، حتّى تسلمك إحداهنّ إلى فراشك خائر القوى، كجنديّ آبقٍ ركض لتوّه هاربًا من موقعٍ عسكريٍّ يتداعى تحت قصفٍ عنيف، في أملٍ أخيرٍ لإدراك النّجاة.

أتذكّر ذلك الشّابّ الّذي صادفته «على الأرض» كما يقولون، يحدّثني بأنّه بدأ مسيرته كمهندس موقعٍ منذ سبعة أعوام، ما يزال يُجري تغطيةً للشّبكات في شوارع القاهرة الكبرى والدّلتا والصّعيد، وإلى الآن، لقد حفظ

الطّـرق عـن ظهـر قلـب؛ حـدّ أنّـه صـار ينظـر لمسـارات العمـل نظـرةً واحـدة؛ فيعلـم بهـا إلى أيـن عليـه التّوجّـه.. يشـير للسـائق في غـير مبـالاة: «عـدّي مـن هنـا.. خمسـة كيلـو، واطلـع أول محـور يقابلـك ع الدّائـري، ومنّـه لأوّل نزلـة عـلى إيـدك اليمـين». ثـمّ يغفـو، ولا يتيقّـظ إلّا عندمـا تلتقـط أذنـاه صوتًـا يصـدح عـبر الـلاب تـوب؛ ليخـبر بـأنّ أحـد الهواتـف قـد فُصِـل، أو أنّ جهـاز تحديـد الموقـع لا يعمـل بشـكلٍ سـليم؛ إثـر نقـرة الشّـمس اللافحـة في نهـار الصّيـف.

تعجّبـت حينـما أخبرتـه بـأنّ إحـدى الـشّركات تعـرض عملًا مكتبيًّـا في مجالنـا يسـتهدف المهندسـين حديثـي التّخـرّج، وإذا به يسـأل في تلهّـف: «هـا.. بيدفعـوا كام؟». لأجيبـه: «يعني.. قيمـة المرتّـب مـش هتوصـل لحاجـة عاليـة زي مـا انـت متخيّـل؛ لإنهـم طالبـين مهنـدس «فريـش». بـس سـؤال يـا مصطفـى: إنـت لـو جالـك شـغل بعيـد عـن طبيعـة الشّـغل الـلي متعـوّد عليـه بزيـادة طفيفـة؛ هـتروح هنـاك وتتجاهـل الخـبرة الـلي أخدتهـا في مجالـك بعـد سـبع سـنين؟"».

ويضحـك الشّـابّ كأنّنـي أتحـدّث عـن سـبعة أيّـام عابـرة، لا سـبع سـنواتٍ مُضنيـةٍ مـن الخـبرة، ويجيـب: «يـاً عـمّ أيّ حاجـة تدخّـل قـرش زيـادة، شـوف الـلي عايـز يفتـح بيـت دلوقـت محتـاج قـد إيـه.. القـرش بيفـرق.. ومـش هكـدب وأقـول لـك إنّي مـش فـارق معايـا نـوع الشّـغل في حاجـة، بـس هـو انـا لـو كنـت لقيـت فرصـة أطلـع بيهـا مكتـب مـن

الشّغل هنا كنت هقعد سبع سنين في الشّارع ليه؟ ده أنا ليا زمايل اشتغلوا منسّقين مشاريع في شركات كبيرة وربّنا فتحها عليهم من واسعة، واللي شرخوا في شركات الاتّصالات واللي شغّالين ما شاء الله من القرية.. والشّركة هنا لو عليهم قسمًا بالله يمشّوني، ويفكّوني باتنين شباب لسه متخرّجين.. وعشان كده بقول: الحمد لله إنّي لسّه هنا.. وعامّةً شوف: هي في الأول وفي الآخر نصيب.. الشّغل آه وحش.. بس أنا خلاص طبّعت عليه.. وهو كمان طبّع عليّا".

حينها تأمّلت وجهه، تلك السّذاجة في عينيه البنّيّتين، الشّعر النّابت في ذقنه، وشاربه الكثّ غير المهذّب، تلك هي طبعة العمل الكئيبة الّتي تحدّث عنها، تطلّ في عبوسٍ عبر وجهه المتجهّم وفي عُمقِ عينيه المُتعَبَتين.. شعرت بأسىً صادقٍ تجاهه، وفكّرتُ كم مرّت عليه من نشراتٍ داخليةٍ تمّ تقديم أقرانه فيها على حسابه، كم رَأَسَه من المهندسين حديثي التّخرّج، ممّن لم يجمعوا بعدُ معرفةً بمجاله، أو مهارةً تقنيّة، أو حتّى إعدادًا لائقًا؛ كي يديروا تلك «الموارد» الشّاقية الدوّارة طوال اليوم، كم علاه في السّلم الوظيفي شبّان آخرون من زملائه، ممّن لديهم الكياسة المطلوبة والمهادنة ومهارات التّواصل، الّتي تجعلهم الاختيار الأوّل لأوّل كرسيٍّ شاغرٍ في المكتب.. إنّها كلعبة الكراسي الموسيقيّة، لكنّها تجري وفق قواعد غير عادلة، وعلى ألحانٍ لا تعرف سوى

الحـزن والمأسـاة.
تخوّفـت مـن أن أصـير مثلـه، أن تقتـل منظومـة العمـل أيّ شـغفٍ بـاقٍ في قلبـي ناحيـة الإنجـاز والتّفـوّق، أن تنطفـأ تلـك الشّـعلة البادية في عينـيّ، والّتـي لمحهـا كلّ مـن أجـروا معـي مقابـلات التّوظيـف، وجعلتهـم جميعًـا يوقّعـون معـي عقـودًا مؤقّتـة للظفـر بخدمـاتي لحسـابهم، ومن أوّل جلسـة.. لهـذا عقـدت عزمـي عـلى الخـروج مـن تلـك الوظيفـة، وشـدّ الرّحـال إلى مـكانٍ مغايـر، مـكانٍ لا أرى فيـه مصطفـى، ولا أرى فيـه نفـسي أتحـوّل إلى مصطفـىً جديـد.
لمَ حملتنـي معـك في تلـك الرّحلـة يـا مختـار؟! لا أعـرف لمـاذا اسـتغلّ الرّجـل نـوم أمّـه كـي يحمـل هاتفهـا في ذلـك اليـوم، ويتسـلل في جنـح الظّلمـة؛ ليقـضي ليلـه في مقابـر المسـلمين! عـادت الأمّ لتنـام وحيـدةً حيـث اعتـادت.. والرّجـل غائـبٌ عـن رؤيتـي، تناديـه بـين الفينـة والأخـرى: «مختـار.. هـات لي كوبايـة مايّـة يـا حبيبـي».، ليمثـل بـين يديهـا في ظـلام الغرفـة طائعًـا، و»مـش هنتعشّـى بقـى يـا مختـار؟ وقـت العشـا وجـب». ويطـلّ شـبحه مـن أمـام الكامـيرا الخلفيّـة يحمـل صحنًـا واسـعًا وإبريقًـا وحاجيـاتٍ لا تظهـر إلّا كظـلّ حائـرٍ بـين الظّلمـة والنّـور. تضـع الأمّ هاتفهـا عـن جنـبٍ، وأسـمع طقطقـاتٍ بالفـراش، والرّجـل يبـدو أنّـه يقيـم أمّـه ليعتـدل جسـدها توطئـةً لتنـاول العشـاء، وتمـرّ دقائـق هادئـةٌ مـن الصّمـتِ وأصـواتٌ خافتـةٌ تتناثـر كفتـات الخبـز عـلى صحـن الطّعـام، إلى أن تبـادر الأمّ بجـذب طـرفٍ للحديـث

قائلة: «شفت أختك بثينة قالت لي إيه يا مختار؟".
لا يبدو الرّجل مهتمًّا بما تحمل المرأة من أخبارٍ وأحاديث للنّميمة، فيقول غير عابئ: «ها.. إيه الموضوع؟".
بدا البِشر على صوت الأمّ وهي تعلن: «قالت إن شاء الله.. إن شاء الله جوزها قال هيجيبها، وهتيجي مع الولاد يقضّوا معانا اليوم بحاله.. الجمعة بعد الجايّة اعمل حسابك.. الجمعة بعد الجايّة".
ارتفع صوت زحزحة لكرسيّ من فوق الأرض ومختار يقوم عن مقعده معلّقًا: «أفلح إن صدق".
تبتعد خطوات الابن، وتصدح المرأة وهي تُسمعه: «إن شاء الله يصدق.. وفي يوم هتتجمعوا كلّكم هنا.. أنا.. وانت.. وبثينة وسناء.. وأكرم".
صمتت الأمّ للحظاتٍ قلائل، يبدو أنّ سيرة هذا الغائب بالتّحديد تجلب الكثير من الأسى والذّكريات الموجعة، أو هكذا فهمت من سكتتها الّتي ألحّت كحدثٍ طارئٍ قبل أن تتساءل بنبرةٍ صاخبةٍ تصل إلى مسامع ابنها حيث يتواجد: «مفيش خبر عن أخوك أكرم يا مختار؟".
اقتربت خطوات الرّجل من أمّه وقال في تملّل: «أكرم بخير يا ماما.. ورّيتك آخر محادثة بيننا أظنّ".
بدا عدم الارتياح في صوت السّيّدة وهي تستدرك: «بس ليه يابني مابيتّصلش؟ يعني.. يسمّعني صوته.. يبعت صورة.. حاجة تشفي غليل الواحدة ناحية ابنها الغايب.. مش جايز حدّ سارق موبايله وبيبعت لك

مكانــه؟".
زفـر مختـار في ضيـقٍ؛ يبـدو أنّ أمّـه قـد طرحـت مثـل هـذا التّسـاؤل سـابقًا: «اسـأليه.. قديكـي سـألتيه قبـل كـده، وعـلى مـا ردّ كان فيهـا لتـاني يـوم.. ولا فـادني ولا فـادك.. هـو ملهـي مـن الأصـل في حياتـه، ولا تعنيـه حواراتنـا دي في شيء.. أخـد البطاقـة الخـضرا بتاعـة الأمريـكان.. وعايـش مـع مراتـه عيشـة ميـة فـلّ وعـشرة، ومرتـاح أربعـة وعشرين قـيراط، ومابيفكّـرش يرجـع. اقلقـي عليّـا أنـا يـا ماما.. اقلقـي عـلى بثينـة ولّا سـناء.. ولّا تقلقـي ليـه مـن الأصـل؟! إنتـي هتفضـلي شـايلة الهـمّ طـول عمـرك! يـا ماما ماتريّحيني بقـى، وتريّحـي نفسـك يـا ماما!".
علـت نـبرة مختـار الزّاعقـة في اسـتنكاره لمخـاوف أمّـه، وظهـرت مـن بعدهـا غمغـماتٌ مبهمـةٌ مـن الشّـكوى، جعلـت الابـن يطلـق زفـرةً ثقيلـةً تراجـع مـن بعدهـا عـن غضبـه قائـلًا: «أنـا آسـف يـا ماما.. عايـزة تبعتـي لـه رسـالة بصوتـك، ابعتيهـا.. أنـا بـس صعبـان عليّـا قلقـك وأخـدك للأمـور عـلى أعصابـك.. وكـمان ازاي يبقـى موبايلـه مسروق يعنـي وحـدّ بيكلّمنـا مكانـه؟ بالعقـل كـده.. هيتـسرق في أمريـكا، ويطلـع الحرامـي بالصّدفـة عـربي.. ويفضـل يتابـع معانـا أخبـاره ويبقـى عارفنـي وعـارف اخـواتي البنـات وبيقـول لنـا تفاصيـل في حياتنـا مابتكلّمـش فيهـا مـن وقـت مـا كنّـا صغيريـن! تيجـي ازّاي؟ طـب ليـه نقلـق ونتوتّـر ونشـيل الهـمّ؟ وانتـي عارفـة أكـرم مـن صغـره.. ده بابـا

كانت شكوته من أكرم أكتر من شكوته من أي حدّ من ولاده.. أكرم عايش الحلم الأمريكي من وهو صغير، إشي يبرطم بإيه وإشي يعوج لسانه بالانجليزي في الرّاحة والجاية.. ودايمًا نافر على بيئته وأهله وكلّ حاجة.. كلّ حاجة من دون ما أفسّر، وأوّل ما جت له فرصة.. ما صدّق يهجّ على برّة». وكرّرها مختار مؤكّدًا: «ما صدّق يهجّ على برّة.. كويس إنه لسه بيبعت لنا يا ماما".
كان الرّجل كلّما ارتفع صوته في تفسيره تراجع؛ مراعاةً لحساسية الأمّ المكلومة الّتي انتظرت حتّى فرغ من كلامه، وبدا أنّها قد قنعت بما قال، ثمّ التمست منه رغم ذلك أن تسجّل بصوتها رسالة لابنها المغترب يبعث بها مختار إليه عبر ماسينجر، ووافق مختار على الأمر.

***

-12-

**"لماذا دائمًا يسيطر النّسيان على لحظات الصّدام.. يتوارى العقل، وتسيطر العاطفة اللحظيّة والغريزة.. أرى الجائزة معلّقةً فوق جرفٍ منحدر؛ فأسرع إليها كما يجب للكلب يلهث خلف العظام، ولا أرى غيرها كأنّما علّقت في الفراغ بحبلٍ وهمي.. ألتقطها بكُلّيّتي، وأهبط في وادٍ سحيق من الهلاك!**

**وأرى هذا المدّعي يرفعُ صوته كي يخيفني؛ فأتراجع وأجمع جسدي بين ذراعيّ، ولا أبصر أمامي إلّا الألم أو النّجاة.. حينها تبدو النّجاة جائزة كبرى يجب اقتناصها".**

***

عادت صورة مختار في مخيّلتي لما كانت عليه قبل محاولاته الصّبيانيّة للقائي ومن ثمّ التّملّص والهروب، بل زاد تقديري لما يمرّ به الغريب من مشاقّ وما يبديه من جَلَدٍ وتحمّل؛ لمعرفتي بأنّه رغم كلّ ما انكشف لي خلال مراقبتي إيّاه، فإنّه لا يظهر سوى أقلّ القليل من تفصيلات حياته، ويضمر في أحشائه ذكرى ماضٍ مؤلم وأطلال صراعاتٍ قديمةٍ لا يحدّث بها.. انتهت لعبةً الاستغماء الّتي بدأها الرّجل، والآن أنا من يُبقي ما بين يديه على نافذةٍ مفتوحةٍ لا يملك مختار أن يتوارى منها أو يستتر، إنّني أراه كشيطانٍ من حيث لا يراني، ومن حيث لا يعلم حتّى أنّني أراه، وأضطلع بمهمّتي في استقصاء أسرار حياته على أكمل وجه؛ لأشرّح نفس هذا الصّديق اللدود إلى قطاعات طوليّة وعرضيّة، سأظلّ

أنبش بمخالبي في جوف أعماقه الموحشة، وأنفذ عبر ضميره الحيّ إلى مرتقىً لم يبلغه غيري، مرتقىً لم يبلغه حتّى ذلك الرّجل نفسه.

لم يتوقّف مختار عن مشاركة موقعه المزيّف، حين ينسلّ كعادته في جنح الظّلام ساعيًا إلى مقابر كوتسيكا، هكذا استنتجت، وأنا أرى أمّه الّتي لم تزل طريحةً للفراش في مرضها الدّائم، تناجي اسمه ليلًا في طلب شربة ماء، وهي تعلم أنّه ذاب كحبّة ملح في صحن القاهرة الواسع، تتمتم في أسى: «إنت نزلت تاني يا مختار!». وتطلق زفرةً طويلة تنمّ عمّا يعتريها من ضيق، ثمّ تهزّ رأسها في كمدٍ قائلة: «معلش.. الصّبر طيّب".

وينسج الغريب حكايةً مخترعةً عن أصدقائه المقرّبين ومرافقيه الّذين خاضوا معه تلك المغامرة الليليّة في شوارع العاصمة، وعن المتحرّش الّذي أعدّوا له كمينًا محكمًا إثر مضايقته لإحدى الشّابّات في كافيتيريا شهيرة بميدان طلعت حرب وهربه قبل التّمكّن منه.. «لكن على مين؟ جبناه بردو.. وسلّمناه لقسم الشّرطة".

ضحكت لادّعاءات مختار، ولم أعلم صراحةً ما هي دوافعه لاختلاق مثل هذه الأكاذيب، ليس في الأمر شبهة تجنٍّ من ناحيتي؛ فذلك الرّجل ليست له من صحبةٍ سوى الحشّاشين وعامل المقابر ذي العباءة البيضاء الّذين رأيتهم في جلسة السّمر حين حمل معه هاتف أمّه نحو المدافن بكوتسيكا، وصديق طفولةٍ قديم كذلك لم

أُصادَفْ بسماع اسمه يُذكَر من قبل في بيت مختار؛ رُغم وروده في الأوراق غير مرّة باسم: عبد الحميد الخيّام.
"اتفضّل يا محمّد.. استريّح".
أبتسم مستشعرًا القلق، وأجلس منتظرًا بادرةً بالكلام من مسئول الحسابات بالشّركة، ثمّة خطبٌ ما.. أستقرء ما في عينيه من تردّد، يتنحنح أسامة ويهمّ بالقول، غير أنّني أوقفه متسائلًا: «فين باشمهندس ياسر؟ كان قال لي إنّه هيبقى موجود النّهارده".
ابتسم أسامة مبديًا الودّ وأوضح: «لأ.. ياسر مش هنا، عنده أعمال طرأت خاصّة بيه، فمش هيعرف يتواجد في الشّركة.. هو عامّة اللي بلّغني أتابع الموضوع معاك، وأيّ حاجة حابب تستفسر عنها ممكن بعد القعدة تبقى تتّصل بيه.. وتكلّمه بقى يشوف الدّنيا معاك".
تلجلج الرّجل بشكلٍ واضح أكّد لي مخاوفي بأنّه يريد مفاتحتي في أمرٍ منغّصٍ؛ فأومأت واعيًا؛ ليستأنف أسامة طرحه مقتربًا بجذعه نحوي في غير رسميّة: «شوف يا محمّد.. إنت عارف إنّي من أوّل يوم وأنا شخصيًّا من أكتر المتحمّسين ليك في الشّركة.. وزقّينا السي في بتاعك فورًا بعد امتحان السّمات وقبل الامتحان التّقني حتّى.. تقدر تقول إنّنا كان يهمّنا في المقام الأوّل نوعية المهندس اللي جاي للمكان قبل أي «نوليدج» ممكن ندّيهاله فيما بعد.. سواء مع التّدريب أو بالتّعوّد من خلال الشّغل".
توقّف الرّجل وهو يستجمع أفكاره، ذلك المسئول

والمعروف عنه لطفه الزّائد قد استشعر الحرج في نقل تلك الرّسالة عن مديره المباشر، غير أنّه وضع راحته على الطّاولة الصّغيرة أمامه وأوضح لي صراحةً: «هيثم غلبان.. وأنا وباسم وباقي الطقم في المكتب عارفين باللي حصل يومها.. عارف إنّها مش مسئوليّتك المباشرة إنّ العربيّة تخيّش من السّوّاق حتّى لو بلجلجة في التّوجيه منّك بقى.. أو بعدم نوم». وأمال رأسه عن شماله مظهرًا لي علمه بالتّفاصيل، وموجدًا لي المبرّر لتقبّل جانبي من المسئوليّة، واستكمل: «المهم.. إحنا عايزين نساعده من ناحيتنا.. باعتبار إنّها حالة إنسانيّة.. ربّ أسرة ويعتبر العائل الوحيد ليها، حصلت له حادثة عمل، ونتيجة ليها فقد مصدر رزقه، وماعتقدش إنّه حاليًا من الممكن يتوجد له شغل تاني يعوّض الدّخل اللي كان بيخشّ له شهريًا من الشّركة".

شبّكت ذراعيّ وأسندت ظهري للمقعد من خلفي، ورفعت رأسي ناظرًا للسّقف، ومنتظرًا أن يعقد أسامة اتّفاق التّسوية الّذي يريد: «ياسر للعلم مش مقتنع غير بإنّ اللي عمل الحادث هو اللي شايل مسئوليته بالكامل، اتقال له بقى خش يمين.. اكسر شمال.. اطلع الرّصيف.. دي كلّها أمور هامشيّة".

همهمت موافقًا وقلت: «بالظّبط".

استدرك أسامة: «بس احنا كلمناه تاني، يعني.. عشان يبص بعين الرّأفة لهيثم في ظرفه الصّعب.. وبعد جولات من المناقشة

قال لي إنّ مفيش قرش واحد من فلوس الشّركة هيتصرف لمعالجة خطأ يتحمّله فقط مرتكبه، بس لو عايزين نساعده كزمايل ليه؛ فكلّ واحد منّنا في المكتب هيساهم بمبلغ وليكن خمسمية جنيه، ومحمّد ـ يقصدك يعني ـ ماشي في وقت أجازات، وعندك عشر أيّام عيد من ضمن الشّهر المتّفق عليه في العقد، يعني شغلك الشّهر ده مريّح.. واحنا كمان هنريّحك في جداول الشّغل قدر المستطاع، والمبلغ اللي كان هينزل لك مع نهاية الشّهر، يتحطّ كمساهمة لصيانة العربيّة، ولو فيه إمكانية يزيد عليه قيمة نص شهر زيادة من الرّاتب تطوّعًا، تبقى دي لفتة إنسانيّة جميلة منك يا راجل يا محترم".

طالعت مسئول الحسابات بابتسامةٍ باردةٍ ولم أكد أبدي ردّ فعلٍ حتّى سأل: «ها.. إيه رأيك؟".

قطعتُ لحظات الصّمت الغريبة وصوّبت نظري ناحيته مستفهمًا: «ده جزاء نازل عليّا من الشّركة ولّا التماس إنّي أشارك تطوّعًا في التّكاليف المطلوبة يا أستاذ أسامة؟".

هزّ الرّجل رأسه في عنفٍ مستنكرًا: «لا.. لا.. لا». وتأتأ: «مش ده القصد يا محمّد.. لا هو جزا، ولا تطوّع.. فيه حاجات كده ليها حسابات مختلفة، يعني.. في وقت من الأوقات بتختار إنّك تقدّم تنازل عن حاجة هي من حقّك، في مقابل الحفاظ على صورة كويسة ليك في مكان العمل.. وأرجو إنّك ماتعتبرش نصيحتي دي تهديد، بس المجال أوضة وصالة، والصورة اللي بتكوّنها عن نفسك هنا هتستمرّ معاك في أي مكان هتروحه".

أومـأت واعيًـا لفحـوى هـذا التّهديـد المبطّـن، وأصررت: «التّحقيـق تـمّ مـن أسـبوعين، ماينفعـش تتشـال مـن عليّـا المسـئوليّة امبـارح، ويتغـيّر الـكلام وابقـى متّهـم النّهـارده عشـان مـاشي مـن الشّـغل والشّركـة عايـزة تتحفّـظ عـلى حقوقـي يـا أسـتاذ أسـامة.. لـو فيـه موقـف محـرج هيتحـطّ فيـه حـدّ وصـورة سـيّئة هتتصـدّر عـن طـرف؛ فهـو الطّـرف الـلي غـيّر في نتيجـة التحقيقـات إرضـاءًا لطـرف نزاع مسـتمرّ في الشّـغل عـلى حسـاب طـرف نـزاع تـاني بيصفّـي شـغله".

أوقفنـي أسـامة بإشـارة مـن يـده بعـد أن احتـدّت لهجتـي وقـال في تهدئتـه للأجـواء: «مفيـش تغيير يـا محمّـد.. التّحقيق حصـل، وسـبق وقلـت لـك إنّ المسـئوليّة عـلى هيثـم. أنـا مـش هحـابي لسـوّاق في المـشروع عـلى حسـاب مهنـدس».

وأكّـد عـلى الكلمـة ثـمّ أكمـل: «بالواقـع وبالمنطـق، إنـت ممكـن في يـوم مـن الأيّـام تخـشّ معانـا مكتـب.. أمّـا هـو فعمـره مـا هيخـشّ مكتـب. يبقـى لـو بحـابي في حسـاباتي وحسـابات الشّركـة، وقتهـا أكيـد هميـل ليـك مـش هميـل ليـه هـو. فاهـدا كـده وماتحطّـش نفسـك في موضـع مقارنـة مـع حـدّ".

صمـتّ وأنـا أقلّـب نظـري في الحكايـة برمّتهـا، يريـد هـؤلاء منّـي أن أحمـل كلفـة الرّحيـل عـن المـشروع، ربّـما ظنًّـا بـأنّي أعـددت لطلـب الاسـتقالة قبـل الحـادث، ولعـل هـذا مـا دفعنـي للاسـتهانة بتوجيـه السّـائق بشـكل سـليم.. حينهـا سـأكون مسـتحقًّا للعقـاب مـن وجهـة نظرهـم.. ليـس

في الأمـر صـوابٌ أو خطـأ، بـل جانـبٌ للشّركـة يدفعـه غـرور شـخصيّ لمديرهـا التّنفيـذيّ، وهـو يظـنّ أنّ بإمكانـه وضـع إمـلاءات عـلى جنـديّ قـرّر الانسـحاب مـن ميدانـه والمغـادرة. يخـال أنّ الأمـر لا يمكـن أن يمـرّ ببسـاطة.. المسـألة إذن شـخصيّة بينـي وبـين يـاسر، وجـرّاء ذلـك أعلنـت بوضـوح: «ظـرفي الشّـخصي وأنـا مهنـدس حديـث التّخـرّج مايسـمحش أشـيل عـن هيثـم وعـن الشّركـة إجـراءات صيانـة العربيـة بدعـوى التّضامـن الإنسـاني، وإن كان في الأمـر إرغـام فأتمنّـى أشـوف مـين هيقـدر يرغمنـي أدفـع قـرش واحـد مـش عايـز أدفعـه، ولـو عـلى الأسـبوع الـلي قضّيتـه مـن الشّـهر الجديـد؛ فأنـا متنـازل عنّـه مـن دلوقتـي.. واسـتقالتي مقدّمهـا مـن أسـبوعين، أعرّفـك إنّ مفيـش قانـون عمـل في الدّنيـا يرغمنـي أشـتغل يـوم واحـد زيـادة في مصلحـة مقـدّم منهـا اسـتقالة".

وضربـت عـلى المكتـب بقبضتـي وأنـا أعتـدل واقفًـا، علّـق أسـامة: «إنـت عدّيـت حـدودك يـا محمّـد، والـلي بعملـه معـاك ده «جنتلمـن أجريمنـت». مفيـش إخـلاء طـرف هيطلـع مـن الشّركـة ليـك أو أي ورقـة شـخصيّة بـما فيهـا شـهادة التّجنيـد واسـتمارة ستّة، إلّا لّمـا نصفّـي المسـألة ونحلّ الإشـكال. لـو عانـدت؛ فانـت الخسران.. فكّـر فيهـا عـلى رواقـة، وبعدهـا قـل لي جوابـك".

وقام بدوره ليغادر كلانا المكتب من تجاهٍ غير الآخر.

***

-13-

"قرأت ما كتبت في الكرّاسة منذ سنوات طوال: «إنّهم يقيّدون حرّيّتك في كلّ يوم عندما ترتدي وتأكل ما يشترون بأموالهم، بل عندما تتحدّث بلفتهم وتنطق بألفاظهم.. إنّ كلّ ما تملكه في هذه الحياة هو ما ورثته عن والديك، وما رأيته مع إخوتك.. حتّى ملامح وجهك التي ستصاحبك إلى قبرك هي أثرهم وطبعهم فيك.. حياةٌ بغيضة!".

ها أنا ذا أعيش على تلك اللّقيمات الّتي لا أكثر منها، وأقوم عن الطّعام قبل أن يقوموا؛ حتّى لا أشعر بمزيدٍ من العبء، وأعود الى الغرفة بعد ترجّي والدتي كي أكمل الطّعام.. هناك حيث أفتح الباب وأتركه للعابرين ينظرون إليّ وأنا أكمل رسم المنمنمات الّتي سلبت من عمري الكثير عن طيب خاطر.. ذلك هو الشّهر الثّاني وما زلت عاكفًا على نفس اللّوحة بل نفس التفصيلة الصغيرة من رداء ذلك البحار المغربيّ..

"دعك من هذا يا بنيّ، وتمتّع بالحياة كما يفعل الجميع». ماذا أفعل؛ عندما أسمع تلك العبارة تتردّد على مسامعي عشرات المرّات، إنّه والدي على أيّة حال، لكنّه لا يعلم ماذا أريد وبما أشعر، وأنا لن أسمح لنفسي بكشف أفكاري وعدائيّتي له.. اللعنة! لا مفرّ من الابتسامة المصطنعة لبعض الوقت.. ربّما أيّامٍ أو أسابيع؛ حتّى تهدأ الأجواء وأعود لحياتي البائسة الأثيرة.. أتمنّى".

***

تكـرّر انسـلال مختـار مـن وراء أمّـه ليومـين إضافيّـين نحـو جلسـة السّـمر المعتـادة، شـعرتُ بأنّـه يتهـرّب مـن فكـرةٍ تقتلـه مـع اقـتراب زيـارة أختـه بثينـة وزوجهـا وولديهـما، لم يكـن رغـم هـذا بعيـدًا عـن حصـار المـرأة في غيابـه عـن المنـزل؛ فقـد ظلّـت تهاتفـه وهـو يجيبهـا في ضيـق: «أيـوه يـا ماما.. معلـش أنـا بـره البيـت مـع أصحـابي".

_"الوقـت اتأخّـر أوي يـا مختـار يابنـي، احنـا في نـص الليـل".

وتتناثـر الضّحـكات للصّحبـة عـلى هامـش المكالمـة: «ماما قلقانـة ع التّوتـو». وهسهسـاتٌ وغمغـماتٌ تتصاعـد في الخلفيّـة.

"أنـا مخنـوق يـا ماما.. شـوية وهرجـع.. شـوية وهرجـع». ويضـجّ في محاولاتـه البائسـة للتّنصّـل مـن أمّـه.

تلـحّ المـرأة: «مختـار يابنـي.. لـو زعـلان إنّ أختـك جايـة، كلّمهـا.. قـل لهـا خليـكِ عنـدك يـا بثينـة.. أنـا بـس كنـت عايـزة أشـوفها يـا مختـار.. وحشـتني بثينـة".

تسـتعطف الأمّ ولدهـا الّـذي قـال في ضيـق: «يـا ماما اعملي الـلي تحبّيه".

تعيـد الأمّ رجاءهـا: «طـب ارجـع يـا مختـار.. أمّـك عايـزاك تقـضّي معاهـا اليومـين دول وخـلاص".

أسـمع تعليـق أحـد رفاقـه الهازئـين بوضـوح، وأتيقّـن مـن أنّني لاحظـت ردّة فعـلٍ عـلى وجـه أمّ مختـار عـلى إثـره: «يـا عـم كنـت خـد الموبايـلً معـاك".

وجمت أمّ مختار، وسرعان ما أغلق الرّجل هاتفه، لربّما ثار العراك في مقابر كوتسيكا تلك الليلة، ما بين مختار وهذا المتطفّل الّذي كشف عن سرّ حمله لهاتف أمّه في أمسيةٍ سابقة. لم يُرِد مختار أن يتلقّى مكالمةً من أمّه تدفعه للعودة إلى المنزل. إن كان الرّجل قد كشف السّرّ لأحد الرّفاق؛ فقد نقله ذلك الرّفيق بالضّرورة للآخرين، لا مأمن لسرٍّ بين جماعةٍ من الحشّاشين؛ فكلّ ما يحرّكهم للتّفوّه بحماقاتهم هي جرعة المزاج وما يقتضيه «المزاج» من نوعيّة أحاديث وترّهات، لهذا خرج الحشّاش عن النّص مقرّرًا أنّ مهاتفة الأمّ لولدها في تلك اللحظات تنغّص مزاجه، وتقضي على آخر أنفاس الحشيش بالتّبخّر والتّحليق بعيدًا.

لم تمرّ سوى نصف ساعة، ودقّت قدما الرّجل في ظُلمة حجرة أمّه، تلك الّتي أغمضت عينيها في آخر مشهدٍ، وظلّت من بعده ساكنةً دون حراك.. شعرت المرأة حسب ما استقرأتُ من سلوكيّاتها بالقهر لوقوع ابنها بين هؤلاء الّذين تجرّأوا على أمّه عبر الهاتف، سمعت قبلةً مطبوعةً على جبين الأمّ وضجرًا ينطلق من بين شفتيها. «أنا عارف إنّك صاحية يا ماما".

_"لأ.. نايمة".

تهدّج صوتها وبدت كطفلةٍ صغيرة، ثمّ صارت تنوح ومختار يهدّء من روعها: «أنا آسف يا ماما.. بس أنا بعوز أقعد وقت لوحدي".

لتجيبه ناحبة: «ماتستعجلش يا مختار.. هتقعد كتير لوحدك".
بدت كلماتها قاسية، وجسدٌ يُلقى من فوق فراشها، ربّما يحتضنها مختار، ويصل صوته إلى مسامعي: «عايز أنام جنبك هنا يا ستّ زينب".
ابتسمتُ وأنا أسمع تلك الملاطفة النّادرة بين الابن وأمّه، والمرأة تتساءل في لوم: «لو كان حصل لي حاجة يا مختار.. وانت مش جنبي".
قاطع مختار أمّه قائلًا: «بعد الشّرّ عليكِ يا ماما".
قالت المرأة في أسى: «هيعمل لي إيه المفتاح اللي تحت الدّوّاسة وقتها يا مختار؟".
ويصمت الرّجل دون أن يُعقّب.

***

"ما هو السّبيل للتحرّر من كلّ قيد؛ لا أعلم؛ فحتّى نسمات الهواء التي أستنشقها أكاد أشعر فيها بامتزاج الأنفاس الدّافئة لهؤلاء.. و«هؤلاء» سيظلّون للأبد عقدتي الباقية. كم تمنّيت أن أصبح الإنسان الأوحد في هذا الكون، أسمّي الأشياء كما أريد، وليس كما يفرضون عليّ.. أجني ما أرغب بيدَيّ العاريتين، وأنا أنظر إليهما وأدرك أنّهما لا تشبهان يدَيْ والدي وإخوتي الكبار.. أهمس بما أحببت أن أهمس به دائمًا:«جنا جو كي جنا أوم".

نعم؛ فأنا أفعل ما أحبّ، وأقول ما أحبّ بلغتي الخاصة التي لا يحتاج أحدٌ إلى فهمها؛ لأنّه ببساطة لا أحد غيري في هذا الكون.. اللعنة!".

***

وصلت لطريقٍ مسدودٍ في تسويتي مع الشّركة؛ ما أدّى إلى تعثّر إجراءاتي بمقرّ العمل الجديد، يجب الحصول على إخلاء طرفٍ وأصل للاستمارة السّادسة وشهادة إتمام الخدمة العسكريّة. تعنّت المدير التّنفيذي لشركتي وأوصى بإبقاء الأوراق المطلوبة في حوزة مسئولي الموارد بعد توقيعي على تسليم العهدة المطلوبة إليهم. «هو ده سلو الشّركات في مجالنا يا محمّد. آخر مرتب ده زي آخر دفعة بيدّيها المنتج بتاع أفلام المقاولات لنجم الفيلم.. الكلّ بيتساوى فيها.. شغال ومش شغال، محترم وعربجي.. يا بيروح عليك منها يا ما بتاخدهاش.. يا بتاخدها

بطلوع الرّوح وقت ما ربّنا يفرجها".
تعجّبت من أن يقولها منسّق المشروع في عملي الجديد الّذي لم يزل فكرةً في علم الله قائمة، أبدى تفهّمًا عظيمًا لوجود خلافٍ مع منظومتي الأولى، رغم ما قد يدقّ هذا الأمر من أجراس إنذارٍ لغيره من مسئولي الشّركات الّذين يفضّلون ضمّ أصحاب السّجلات النّظيفة وذوي الصّفحات البيضاء لأشغالهم..
أذكر نصيحته لي: «كده كده الشّهر ده انت ماشتغلتش منه حاجة.. ونصّ مرتّب شهر اللي عايزينه، انت هتكسبه هنا في أسبوع.. استعوض ربّنا.. وادّيهم اللي همّا عايزينه.. واعتبره آخر تعامل بينكم".
وطاوعته حين قال لي: «لازم تنخّ يا جمل.. لازم تنخّ عشان الدّنيا تمشي".
أرسلت زميلًا لي بالمبلغ المطلوب وأنا أشعر بالانكسار، كان هذا كلّ ما احتاجه الأمر لأحصل على أوراقي بعدها بثمانٍ وأربعين ساعة كاملة ودون انتظارٍ لمضيّ شهرٍ واحد. هذه هي بدايتي الجديدة، في مكانٍ جديد.
اليوم الخميس، وغدًا سيلتقي الغريب بأخته في شقّة أمّهما، أنهيت أوّل أيّام عملي الجديد، وفتحت نافذتي الخاصّة في شقّة الملك الصّالح لأرى وأسمع ما استجدّ من أحداثٍ ببيت مختار عبد الحيّ. أوشكت الشّمس على المغيب، وظهرت زينب صبوحة الوجه مبلّلة الشعر، في ثوبٍ باهرٍ، وكأنّ المرأة قد صغرت عشرين

عامًا من الفرح في استعدادها للقاء الابنة الغائبة بثينة، أراها تمسّد شعرها بصعوبةٍ إثر تأثير هذا الالتهاب على أطرافها وتلتقط صورًا لنفسها وكأنّها فتاةٌ في العشرين، لا أعرف لماذا شعرت ببهجةٍ وكأنّ الأمر حقًّا يعنيني، وكأنّ السّرور قد زار قلبي لرؤية البِشْر يطلّ عبر وجهها الحزين لأوّل مرّةٍ منذ أيّام وأسابيع..

لا شكّ أنّ مختار قد بذل مجهودًا خارقًا، حتّى أضناه التّعب وألجأه لتلك الأريكة القريبة من فراش أمّه، التقطت له المرأة صورة وهو يخبّئ وجهه في ساعده أثناء نومه، وظلّت تدعو له بما اعتادت دومًا الدّعاء به: «ربّنا يرزقك بالزوجة الصّالحة والذّريّة الصّالحة اللي تعوّضك عن الدنيا وهمّها يا مختار".

تقلّب مختار على أريكته في ضيق؛ ليلاقي كاميرا أمّه بظهره، كادت تلك أن تكون أوّل مرّة يظهر لي فيها وجه الغريب الّذي ظلّ خافيًا عنّي بمحض صدفةٍ عجيبة، ومفارقةٍ أن يكون مختار عبد الحيّ وحتّى اللحظات الرّاهنة الّتي عايشتها رجلًا بلا وجهٍ أراه!

ارتفع آذان العشاء، وقمت لأتوضّأ استعدادًا للصّلاة، وصوتٌ من الطّرف الآخر يصل إليّ عبر سمّاعة البلوتوث الّتي استخدمتها لتكبير تلك الأصوات الخافتة الصّادرة عن لابي الشّخصيّ: «قوم يا مختار يا حبيبي.. المغرب فاتك والعشا أذّنت".

ركضتُ من الحمّام عبر الصّالة الضّيّقة ومنها لغرفة

نومي، حيث نافذتي المطلّة على مختار وأمّه، أردت رؤيته.. كانت الكاميرا الخلفيّة موجّهة على مدخل الغرفة، ونظرتُ عبر الكاميرا الأماميّة فظهرت المرأة وهي تلفّ حجابًا حول رأسها في تأهّبٍ للصّلاة. وما لبثت أن أدّتها حتّى غرقت في نومٍ عميق.

مرّت ساعاتٌ هادئة، لم تبثّ خلالها سمّاعة البلوتوث سوى غطيطٍ خفيفٍ للمرأة النّائمة وانشغلتُ من بعدها في بعض شأني لتجهيزات العمل الجديد، حتّى سمعتُ صوتًا يضرب غرفتي: «إنت لسه نايم يا مختار؟». تثاءبت المرأة والتقطت هاتفها لتفعّل وميضه: «مختار!». دارت ذراع المرأة والهاتف بيدها لتبحث عن الابن، وفعّلتُ الرّؤية الأماميّة لألحظ قسمات وجهها في تلك اللحظات، رأيت الخوف في عينيها والغرفة غارقةٌ في ظلامها وموضع الابن خالٍ من فوق أريكته، كما أظهر شعاع الضّوء المسلّط من الهاتف أنّ المعبر الموصل إلى باب الشّقة لا يشغله كائنٌ كان.. تملّص مختار كعادته، وذهب لزيارة قبر أبيه.

تخيّلت ما ملأ ذلك القسم الّذي فاتني من رواية الغريب وأمّه؛ فهذا الهندام الّذي تزيّنت فيه الأمّ والألق البادي عليها لم يتأتّيا بسهولة، بذلت المرأة مجهودًا مضنيًا بالنّظر لحالها الصّحيّة كيما تساعد ابنها في حمله إيّاها؛ ليحمّمها، ويدور بها على أثوابٍ لم ترتديها منذ أعوام طوال. هذا هو ما أسلمها للنّومِ، وهذا ما دفعها للتّيقّظ فجأة وقد

وضعت يدها فوق صدرها في ألم.
"مختار.. الحقني يابني.. أنا بموت!".
وقع قلبي في قدميّ وسمعت الرّجل يصرخ: «ماما!".
بدا الوهن في نبرة صوتها كتلك المرّة الّتي ناولتها الأسبرين خلالها عند تسلّلي إلى شقّتهما، غير أنّها صارت أكثر يأسًا وتشاؤمًا: «كلّم الجيران.. الحقني يابني".
فزعت المرأة، وتركها مختار على الانتظار لدقائق، وهي تجاهد للبقاء حيّة، لاحظتُ جحوظ عينيها، وذلك الهلع البادي على وجهها الشّاحب، هذا هو خروج الحياة من جسدٍ لم يألف سوى الحياة، دقّت أكفٌّ زاعقةٌ فوق الباب المغلق وأصواتٌ مرتفعةٌ تصاحبها: «ستّ زينب.. يا ستّ زينب!".
ظلت المرأة تغمغم: «المفتاح.. المفتاح".
قاصدةً أن تخبرهم بمكان المفتاح غير مرّةٍ بصوتها الضّعيف، ومختار ينوح كطفلٍ صغير، ويشهق ويزفر في اضطرابٍ كأنّه يركض عبر مسارٍ طويل: «أنا أخدت المفتاح يا ماما.. خفت الحرامي اللي سرقنا يدخل لك الشّقة تاني.. اللي ادّاكي الأسبرين مش جنّ يا ماما.. ده حرامي".
فزعتُ وتركتُ لابي، تراجعت وأنا أنظر حولي مرتعبًا، سأكون قاتل المرأة العجوز.. سأقتلها دون أن أمسّها.. ماذا صنعت! لماذا تورّطت في حياتيهما إلى هذا الحدّ!
رأيت أشباح الموت الأسود تطفو حواليّ بلا أرجل،

مثلما طفوتُ بجسدي خارجًا من غرفة مختار وبحوزتي أوراقه اللعينة؛ كي أركض من بعدها كالمجنون في شوارع القاهرة.. وروحٌ تلبّستني بكلّ حرفٍ قرأته من كلمات مذكّراته، ضجّ الجمع بالخارج والمرأة تدمع بعينٍ جاحظةٍ وفم مفتوح، وابنها يقول: «كنت عند بابا يا ماما.. والله جاي لك.. اتحمّلي يا ماما".
لتردّ المرأة في استسلام: «أنا اللي هاجي!".

***

"ليتنى أملك من القناعة مثل ما تملك؛ فهى تملك أكثر من القناعة؛ ربّما لأنّها قاصرة النّظر ومحدودة الطّموح، ربّما لا تعنى لها القناعة شيئًا؛ فقد حظيت بأكثرَ ممّا أرادت بالفعل أو اعتقدت حتّى بأنّها تستحقّ. بالتأكيد كانت فى يوم من الأيام كغيرها من البشر تطمح لأكثر ممّا وصلت إليه، لكنّ الظّروف المحيطة، واختيارها الحرّ بأن تفتعل نفسها التّأثّر بما حولها بدافع من التّعايش وفق قوانين وشروط المجتمع، أحطّا من قدرها كإنسان؛ فاكتفت بتعليق آمالها على حياة فاترة تنتهى كما تبدأ، لا تتعلّق فيها أنظارها بأبعد من قدميها، تموت على فراشها بعد أن تصل من العمر إلى ما ينسيها حقائق بل حتى ظواهر الأشياء.. أمثال هؤلاء البشر يموتون قبل أن تغادر أنفسهم أجسادهم، يغرقون فى التّيه، ويدفعهم ضعفهم وما تبقّى من أطلال مشاعر قديمة وصور فى ذاكرة متأرجحة بين الوجود والعدم إلى حبٍّ زائف، لا يملك خيارًا غير الإفصاح بكلمات غامضة من أحاديثَ ذات شجون.. كما يبدأ الخلق يعود، ويُردّ بعضنا إلى أرذل العمر؛ لكى لا يعلم من بعد علم شيئًا، وتعود ذاكرة الأحداث القريبة لتتشبّه بذاكرة الطّفل قبل وعيه الكامل بالمادّة، وقبل أوّل مشهد يتذكّره بشكل واضح، كعالمه السّحرىّ القديم.. إلّا أنّه يصبح كئيبًا وغير مكترث، يستشعر خطوات الموت أكثر اقترابًا من ذى قبل.. لا يعلمه تمام العلم، ولكنّه يدرك بما تبقّى لديه من إدراك أنّها النهاية! كذلك هى أمّى".

لم يعلم مختار متى لفظت الأمّ أنفاسها الأخيرة، توقّفَتْ عن الكلام وهدأ صوت شهقاتها وهو كمن يحدّث نفسه عبر الهاتف متمسّكًا بأملٍ أخير، لا يزال يركض ويلهث؛ ليصل إليّ صوت أنفاسه المتلاحقة إثر عدوه المحموم.

علا صوت فرقعةٍ بعدها بدقائق، كان هذا بالتأكيد هو حطام الباب الّذي اجتمعت الجيرة لاختراقه كي ينفذوا إلى غرفة الأمّ المحتضرة، لا شكّ أنّ الدّقائق القلائل الّتي مرّت، هي ما مكّنت الابن اللاهي من مهاتفة جيرانه؛ حتّى يقوموا بمحاولةٍ أخيرةٍ للولوج إلى الغرفة وإسعافها، قبل أن يأكل قلبه شعورٌ خانقٌ بالذنب أنّه لم يكن إلى جوارها حين احتاجت إليه.

نشيجٌ متّصل، وكلمات تعازٍ متناثرةٌ هنا وهناك، وأطفالٌ وأحداث تصل إليّ أصواتهم حول فراش المرأة يتهامسون ويتساءلون عمّا حدث، هؤلاء من أيقظتهم دقّات الأكفّ فوق الباب؛ ففزعوا، وتسابقوا من فورهم نحو باب شقّة مختار بين من تدافعوا. لا أرى سوى السّقف الأبيض الفارغ يحدّق إليه هاتف المرأة السّاقط فوق ملاءتها، ولربّما أطلّت بعض الأنوف والشّوارب لرجال غرباء، وهم يتحسّسون مؤشّراتها الحيويّة؛ ليتبيّنوا أحيّةٌ هي أم ميّتة.

"السّتّ ماتت يا جدعان.. لا حول ولا قوّة إلّا بالله".

تتحاكى النّساء فيما بينهنّ عن مختار الغائب؛ وتلتقط

أذنـاي المتلصّصتـان أصواتهـنّ عاليـة الـتّردد كأنّهـا صفـير الرّيـح في فجـرٍ مشـئوم، ومنهـنّ مـن تسـاءلت: «راح فـين ابنهـا؟». لتجيـب أخـرى: «بيقولـوا هـو الـلي اتّصـل عـلى عـمّ أحمـد عشـان يلحقهـا".

_"يمكن في شغل؟".

"شغل إيه يا بت السّاعة واحدة ونص بالليل؟".

_"وانـا إيـش عرّفنـي؟ الشّـغلانات كتـير.. جـوزي بينـزل مـن البيـت حـداشر مـا بيرجعـش غـير عـلى سـتّة الصّبـح تـاني يـوم".

"تلاقيه متجوّز عليكي يا هبلة".

تُفلـتُ ضحـكاتٌ وقحـةٌ مـن النّسـوة، قبـل أن يتوقّفـن، ويـرنّ هاتـف المـرأة مـرّات عديـدة؛ إلى أن يمسـك بـه عجـوزٌ ذو شـاربٍ كـثّ، تبـدو عـلى وجهـه أمـارات الطّيبـة، وأراه يمصمـص شـفتيه في أسـى قائـلًا: «لا حـول ولا قـوّة إلّا بـالله العـليّ العظيـم".

ويجيـب الاتّصـال: «أنـا عمّـك أحمـد يابنـي.. البقـاء والـدّوام لله.. السّـتّ الوالـدة ربنـا افتكرهـا.. شـدّ حيلـك".

أكاد أجـزم أنّنـي رأيـت وجـه مختـار واجمًـا، رغـم أنّنـي لم أبـصره بحـقّ.. شـعرت برابـطٍ بينـي وبينـه لم ينقطـع بوفـاة الأمّ، تلـك الّتـي كانـت موضـع مراقبتـي الدّائمـة. لـن أنـام اليـوم، ولا ضـير في هـذا؛ فغـدًا عطلـةٌ رسـميّةٌ عـلى أيّـة حـال، كان عـليّ العـودة لأسرتي بالإقليـم، بعـد انقضـاء المغـرب، لكنّنـي غصـتُ في تفصيـلات الرّجـل وأمّـه، حتّـى

سـوّفت الرّحيـل سـاعةً فسـاعتين، والآن السّـاعة تقـارب الثّانيـة ليـلًا، ومازلـت مقرفصًـا فـوق فـراشي أسـمع صـوت عـم أحمـد العجـوز، يفـضّ التّجمّـع، ويخـلي الطّريـق لمختـار المنتحـب قائـلًا: «كلّـه يـروح لحـال سـبيله، يـلّا توكّلـوا عـلى الله.. مانجيلكـوش في حاجـة وحشـة".

"لـو عـزت حاجـة يابنـي قـل لي، أنـا زيّ أبـوك.. ثبّـتّ لـك البـاب كروكـي لحـدّ النّجّـار مـا ييجـي يصلّحـه.. أنـا هخطـف لي سـاعتين أنامهـم، وهقابلـك الفجـر في المسـجد بالمشـيئة. لازم ندفنهـا قبـل الضّهـر يابنـي.. إكـرام الميّـت دفنـه. يـلّا.. شـدّ حيلـك".

وهدأت الأجواء..

سـمعت قُبُـلاتٍ دامعـة، واهتـزّ الهاتـف.. عـلا أزيـزٌ بالفراش إثـر حـركاتٍ مـن فوقـه، واضطـرب صـوت أنفـاس مختـار المكلـوم.. «امسـك الموبايـل». همسـت بهـا كشـيطانٍ، وأنـا موقـنٌ مـن أنّـه سيسـمع وسوسـاتي؛ فأنـا حولـه.. معـه.. أراه مـن حيـث لا يـراني. جحظـت عينـاي وأنـا أنظـر لصـورة السّـقف عـبر كاميـرا الهاتـف.. حدّقـت مليًّـا ثـمّ ابتسـمت.. كانـت هـذه هـي اللحظـة الصّفريـة؛ كـي أرى وجهًـا مـرّ أمامـي مـن قبـل، ولم أملـك اليقـين في ربطـه بمختـار.. وجـه رجـلٍ خمسـينيّ الهيئـة جلسـت إلى جـواره بمحطـة مـترو المعـادي، وتـردّد في إخـراج سـاعة اليـد «الأوميجـا» مـن حقيبتـه، غـير أنّنـي لمحتهـا، ذلـك الّـذي أعطـاني هاتفـه المعلّـق عـلى وضـع الطّـيران؛ كـي أنظـر للتّوقيـت حـين

سألته: «هيّ السّاعة كام لو سمحت؟».
وكأنّ بداخلي كيانًا آخر لم أنتبه لوجوده إلّا الآن، وعقلًا مستقلًّا كوّن وعيًا منفصلًا بذاته، ومنظورًا خاصًّا يرى به الأشياء من حوله، ذاك ما صنع استنتاجه المُسبق بأنّ هذا الغريب هو بنفسه مختار، لكنّه أخفى معرفته عنّي؛ والآن لم يعجب أنّ الشّابّ ذا ملامح الكهولة والشّعر الأشيب بعينه هو طريدي الثّلاثينيّ الّذي بحثت عنه في أرجاء المترو، بوجنتيه البارزتين، وذقنه غير الحليقة، بعينيه الغائرتين في محجريهما وهما تتجابنان عن النّظر في عمق عينيّ. هو شابٌّ بائسٌ ليس إلّا، يزيّف حياةً كاملةً لا أصل لها في واقعه، يخلق فيها عائلةً وأقرباء ورفاقًا، وقصّة حبّ مستحيلٍ لفتاةٍ عشرينيّةٍ تطارده فلا يستجيب لها، لا ريب أنّها ليست سوى سيلٍ متّصلٍ من الأرقام الثّنائيّة، وضلالاتٍ صنعها عقله الكذوب.
لا أشعر الآن بالشّفقة تجاهه، كما لم أعُد أشعر بشفقةٍ تجاه هيثم وقد دفعت أنا ثمنًا باهظًا لقاء خطأٍ وحده هو من ارتكبه، ثمّ تحمّلت عنه جانبًا من المسئوليّة ودفعت بها إلى خصومي عن يدٍ وأنا صاغرٌ ذليل، بعد مسكنته الكاذبة الّتي ادّعاها واستجدائه الآثم لعطف مديريه.
أكره الضّعف، أكره الانكسار في عينِ مختار الحزين، أكره تزييفه لانتصاراتٍ وهميّةٍ تعوّض خساراته في الحياة. أكره من تُذلّ الأيّام أعناقهم؛ فيخضعون لمصائرهم دون أدنى مقاومة، ومن تلجؤهم الأقدار إلى الحيلة؛ ليكسبوا

أهدافهم بالالتواء والتّخنّث بدلًا عن كسبها بقوّة الأذرع كالرّجال..

أرى مختار وهو متمسّكٌ بجثمان أمّه ومنخرطٌ في بكاءٍ مرير، يفتح سجل الاتّصال في هاتفها؛ لتظهر خمس مكالماتٍ صوتيّة فوّتها الشّارد وهو قائمٌ بقبر أبيه، أو هكذا دأب على القول. حاولت زينب الوصول لابنها وهي تعالج نوبتها القلبيّة؛ فلم يُجِبْ، وهو من يعلم أنّ أيًّا من لحظات الأمّ قد تمسي الأخيرة إن لم يستيقظ من غفلته، ويسرع لإسعافها. يمسح الابن سجلّ المكالمات الّذي يسيؤه من ذاكرة الهاتف؛ ربّما ليقنع نفسه بأنّها وجدته بعد أولى محاولاتها؛ فلا يقتل نفسه بالذّنب أنّه قد تسبّب بتقصيرٍ بيّنٍ أفضى إلى موتها في الأخير. ذلك الذّنب الّذي لن أحمل منه شيئًا بعد الآن؛ فأنا أعلم أنّني لست وحدي القاتل.

ابتسمتُ على غير إرادةٍ منّي، وهببت عن فراشي نافضًا ثوبي. سأقطع الطّريق إلى موقف الأقاليم قاصدًا سمنّود الغربيّة. قررت أنّه لن تشرق شمس هذا اليوم الجديد إلّا وأنا قائمٌ ما بين أهلي ومعارفي. تلك مزيّةٌ أدرك أنّه لن ينعم بها مختار عبد الحيّ منذ هذه الليلة، وهو منفردٌ بوحشته في داره، وإلى أن يلحق بمن رحلوا من آله في الدّار الآخرة!

***

"كيف غابت تلك الخواطر عنّي تلك المدّة الطويلة؛ ولمَ لمْ أعد أرى مشاهد الماضي؛ بل لمَ لمْ أعد أفكّر فيه؛ ربّما لأنّه أصبح حملاً هائلاً يثقل كاهلي؛ فصرت أتخفّف عنه بعدم التّفكير فيه، وربّما لأنّ النّدم ليس من شيمي؛ فما أنا عليه دائمًا هو نتاج السّيّئ الذي يدفعني للأمام والجيّد الذي يبقيني مندفعًا؛ فلا حاجة إذن للالتفات إلى الماضي. هكذا علّمتُ نفسي قديمًا، وظللت متمسّكًا بذلك بفطرةٍ وكبرياء. جرفني الحاضر الّذي لم أملكه؛ فتسلّيت عنه بالحلم والتّمنّي، وكان إغراقي في أحلام اليقظة مقدّمةً لما أوشك أن يصبح النّهاية الحتميّة..

"أمّا اليوم، وقد علمت أنّ كوثر صعبة المنال؛ فقد صنعت أخرى تليق لي، تبتسم عندما أرغب كي يبتسم العالم.. كوثر تشاركني مسيرتي وأحاديثي، تعلّو وتصمت، تؤنسني وتخاصمني، تجاورني في فراشي الفسيح حين ليل، أضمّها بين ذراعيّ كالطّود الذي يحضن زهرة، حيّةً وليست حيّة، أراها ولا يراها أحد".

حتّى مرّت ثلاثة أيام، وخفت أن أصاب بهلوساتٍ بصريّة؛ فتوقّفت قبل أن أتجرّع السمّ بعد موت شبحها".

***

حين انطلقت سيّارة الأجرة ذات السّتّة ركّابٍ من موقف الأقاليم بالقاهرة، كان الفجر لم يزل في بداياته. استحوذتُ على المقعدين الخلفيّين لحسابي، وأخرجت الهاتف

والـلاب تـوب الشّـخصي؛ كـي أبـاشر مهمّـة المراقبـة الّتـي أقلمـت نفـسي عـلى الاضطـلاع بهـا دون الشّـعور بذنـبٍ يُذكـر.

أعلـن تطبيـق الآذان عـن ميقـات الصّـلاة، وسـمعت طرقـاتٍ عاليـةً عـلى بـاب مختـار، والأخـير يصـدر أصواتًـا خفيضـةً لا يسـتجيب بهـا لنـداء عـم أحمـد، لا يريـد الرّجـل القيـام عـن موضعـه، هـو نائـمٌ لم يـزل في حضـن أمّـه، هكـذا استشـعرت، وبعـد لحظـاتٍ قلائـل مـن الانتظـار يستسـلم الجـار، وتتوقّـف الطّرقـات.

أقبّـل يـد أمـي النّائمـة عـلى أريكـةٍ بمدخـل شـقّتنا مـن «بيت الأهـالي» ذي الثّلاثـة طوابـق؛ لتسـتيقظ وتعتـدل في جلسـتها، وقـد فوجـأت برؤيتـي، كيـما تقـوم مـن فورهـا لتحضننـي في شـوقٍ ولهفـة غريبـين: «إيـه يـا ماما! هـو انـا رجعـت مـن الحجـاز ولا إيـه؟".

أضحـك، وهـي تلومنـي في عبـوسٍ غـير عابئـة: «إنـت غايب يـا واد بقـى لـك شـهر ونـص وقاطـع بينـا.. لا بتتّصـل مـن نفسـك ولا بتخطـف رجلـك في يـوم صـدّ ردّ. إيـه مابينزّلوكـش أجـازات مـن شـغلك عشـان تشـوف أمّـك يـا محمّـد؟".

وتقبّـل جبينـي ووجنتـيّ في حنـوٍّ معهـود، أسـير بصحبتهـا ويدهـا تمسـح فـوق ظهـري، وهـي كـما تفعـل في كلّ مـرّةٍ ترشـدني خلالهـا إلى غرفتـي، تعيـد تعريفـي بـكلّ مـا في البيـت مـن أشـخاصٍ ألفتهـم طيلـة حيـاتي، وأحـداثٍ مكرّرة

لم ينكسر روتينها الدّائم قط، وكأنّني غريبٌ قادمٌ من بلاد ما وراء النّهر: «أبوك نايم جوّه الأوضة، ما إنت عارف.. بيسهر كلّ ليلة خميس لحدّ الفجر".
حدّجتها بنظرةٍ جادّةٍ مستفسرًا: «مين؟ الحاج أحمد أبو رقيبة؟".
رفعت أمّي أحد حاجبيها في استنكارٍ وقالت: «ياكش تكون بتشبّه عليه".
لأضحك على طرفتنا المعتادة معلّقًا: «لا عارفه يا ماما.. بشوفه كتير في البيت!".
_"خشّ.. كوّع لك حبّتين لحدّ ما أحضّر لك الفطار يا قلب أمّك وأصحّيك".
هكذا أخبرتني، قبل أن أطأ بقدميّ الحافيتين أرض غرفتي الباردة، لم أشعر بشوقٍ للقياهم كما اعتدت. أردت فقط أن أحظى بشعور الانتماء لعائلةٍ كبيرة؛ لربّما تشفّيًا في قاتل أمّه الّذي يأكلني الفضول لمعرفة حاله الآن. أغلقتُ الباب من خلفي، ووضعتُ أجهزتي فوق المكتب؛ كي أفتح نافذتي الخاصّة المطلّة على بيته، وعادت الصّور من بعدها لتتدفّق.
سرت تلاوات القرآن بصوت مختار في عزلته خفيضة، وقطعها غير مرّةٍ ليجهش ببكاء كئيب.. ثمّ توقّف عن القراءة، وسمعته يحدّث أمّه أو نفسه قائلًا في ضعف: «أنا جعت يا ماما.. هعمل لك معايا فطار".
لاك الرّجل كلماته بصعوبة، وقام عن موضع الهاتف

مبتعـدًا، تثاقلـت خطواتـه في سـيره، وترامـى إلى أذنيّ حديـثٌ محتـدمٌ مـن طـرفٍ قـصيّ، وكأنّـه حـوارٌ مـا بـين شـخصين.. يمـرّ الغريـب بحالـةٍ مـن الإنـكار أو هكـذا أظـنّ.. عـادت خطواتـه تـضرب عـن قريـب، وتنحنـح وصوتـه يتهـدّج: «الأكل يـا ماما".

سـكت مختـار لدقيقـةٍ.. ثـمّ همـس: «بسـم الله الرّحمـن الرّحيـم".

لاك بعـض الطّعـام ببـطء وأنفاسـه تضطـرب، ثمّ ظهـر وجهه وهـو يحمـل الهاتـف، حـدّق إلى سـجلّ المكالمـات حيـث لم يبـق أثـرٌ لمكالمـات فائتـة، تزلّلـت دمعتـان مـن مقلتيـه، وعـاد يصـوّب بـصره نحـو بقعـةٍ أخـرى فـوق فـراش أمّـه: «مـا أكلتيـش ليـه يـا سـتّ زينـب؟".

رفـع عينـه عـن الصّحـن وثبّـت نظراتـه أمامـه حيـث موضع جثـمان المـرأة، تمتـم دامعًـا في لحظـةٍ صادمـةٍ مـن الإدراك: «ماما".

وناح كطفلٍ لم يبلغ الحُلُم!

تلك هي مرارة اليُتم..

***

"تذكّرت يومًا مقولةً سمعتها من أحد معارفي، يصف المرأة مخلوقًا شيطانيًّا، ويسوق أدلّته محمولةً بما يراه من مآثر أرسطو، واعتقادات غيره من الفلاسفة. لم أكن لأجزم يومًا، ولن أصبح جازمًا لأمرٍ ملاكه العاطفة وليس العقل؛ لأنّني أرى الإنسان يولد جسدًا ناشئًا، بداخله نفسٌ كاملةٌ خاليةٌ من العيب، ومدفوعةٌ بفضيلةٍ حملتها من عالم آخر. قيمةٍ في النّفس مستقرّةٍ في أعماقها السّحيقة، تلك الفضيلة التي أرست كليّاتنا على خيار الحياة؛ كي نبصر ونسمع ونتفاعل مع محيطاتٍ ماديّةٍ بجسدٍ ماديٍّ ومدركاتٍ حرّة الحركة داخل أطرها وقوانينها المقيّدة. تلك الأشياء التي طغت بكثافتها على رؤية الحقائق المجرّدة. هنا حيث لا يصبح الرّجوع إلى الوجود القديم ممكنًا، نفقد تدريجيًّا إيماننا بحقائق الاشياء، وتتنازعنا العوائد والطّباع الدّخيلة المستحدثة، لا فرق في ذلك بين ذكر أو أنثى؛ فالكل ينقص درجاتٍ من الكمال، ويكتسب قدرًا من مهارة العيش وفق قوانين غير منصفة، وعدائيّة تجعل القوّة حاكمةً لمسيرة الأشياء، ووحدها القوّة لديها المبرّر كي تتعدى حدود المفترض والواجب؛ فيكون الحقّ تابعًا ذليلًا لقوّةٍ مسيطرة.. يفقد قدسيته.. تلوكه ألسنةٌ سليطةٌ غير عادلة.. تسوقه يدٌ باطشة؛ كي تريح ما تبقّى من فضيلةٍ في عمقٍ حيويٍ من النّفس؛ فلا تشمئز من واقعها المخزي المعادي لعالمها القديم. فقط هذا العالم الّذي يحمل الفضيلة والقدرة المطلقة متلازمين غير متناقضين.. لا يسوق أحدهما الآخر، ولا

**يتبع أحدهما الآخر.. كأنّما القدرة وإرادة الخير صفةٌ واحدةٌ لا تختلف إلّا من منظارنا نحن البشر".**

***

تأخّرتُ عن فطوري، وتابعتني عينا أمّي في شكٍّ مريب دون أن تنبس بكلمة، لكنّني لم أعقّب، هناك شيء تبدّل بي أخفيته خلف ابتسامةٍ مصطنعةٍ أمامهم، غير أنّ أمّي لم تكن لتقنع بها؛ فكم مرّة دقّت بكفّها على بابي؛ لأجيبها: «حاضر يا ماما.. شويّة بس وجاي".

إلى أن جلس أبي وإخوتي قبل أن أجلس، وبرد البيض الّذي لا يؤكلُ باردًا، وأثلج الشّاي الّذي يُشرب بعد الفطور ساخنًا، وضجّ أبي موجّهًا أخي في ضيقٍ كما سمعت من خلف الجدر: «قوم يابني شوف أخوك اللي رجع من السّفر، ومش عايز ياكل مع أهله ده، لا يكون تعبان ولّا حاجة".

ثمّ خرجتُ إليهم لأطعم ممّا صنعت أمّي وحيدًا وعيونهم تتابعني في لومٍ وشيءٍ من الغضب، وأنا أسترجع في ذاكرتي بكائيّات مختار أمام جثمان أمّه.

عبر الغائبون بخطواتهم المترقّبة غرفة السّتّ زينب، سمعتهم منذ فُتِح الباب الّذي لا شكّ قد قادهم إليه عمّ أحمد الجار: «ربنا يكون في عونك وعونه يا ستّ بثينة.. إنتم جيران محترمين، وعمر ما حدّ سمع صوت للسّتّ زينب الله يرحمها".

بكت المرأة وابتعدت خطوات الجار، ثمّ سمعتُ صوتًا

خشنًا أجشّ لرجل غريب يقول: «شدّ حيلك يا مختار.. معقولة حماتي تتوفّى من بالليل ومانعرفش غير بالصّدفة دلوقت؟".

لم يبدُ أنّه يعنيه رحيل المرأة حقًّا في شيء؛ كانت نبرته الهادئة أقرب ما تكون لإثبات موقفٍ لا عتاب، إمّا هذا أو أنّه فضّل ألّا يسوق لومًا قاسيًا لأخي زوجته في مثل هذا الظّرف الحرج.

لم يردّ الأخير، ووصلت قُبُلات الابنة الدّامعة لأمّها السّاكنة فوق فراشها تتخلّلها أنفاسها المضطربة. حمل الهاتف صبيٌّ صغيرٌ هو أحد ولدَيْ بثينة. لم يبدُ لي أنّ الصّغير يدرك قرابة الجدّة له؛ فلم يظهر على وجهه القدر الضّئيل من التّأثّر.. حتمًا لم يكن اللقاء الأخير قريبًا بأيّة حال من اليوم.

فعّلتُ الكاميرا الخلفيّة الّتي التقطت في هذا الموضع مختار وهو جاثٍ على ركبتيه بجانب الفراش، لم يزل صحن الطّعام لجوار جثمان الأمّ.. امرأةٌ أربعينيّةٌ تحتضنه في سكون، وقد أنزلت حجابها؛ لينسدل شعرها الأسود فوق كتفيها الهزيلين، وابنتها الصّغيرة تحتضنها بدورها.. رأيت شعورًا عميقًا بالشّفقة يطلّ عبر تلك الأعين الرّاصدة لمختار في فجيعته.. وهو كمن غرق في التّيه ولن يعود أبدًا..

"بتعمل إيه يا علي؟ هات اللي في إيدك ده!".

سحبت بثينة الهاتف من حيازة صغيرها، ولم يمهلها

الـزّوج المتعجّـل؛ فأخـذ بيدهـا واختفيـا في الغرفـة الأخرى.. تلـك الّتـي تسـلّلت إليهـا في الليلـة المشـئومة، وطفـوتُ فـوق الأرض منهـا حـين وصـل مختـار؛ كـي أغـادر في الأخـير.. أُغلِـقَ البـاب مـن خلفيهـما، وهمـس الرّجـل: «معقولـة مـن بالليـل لحـدّ دلوقتـي والدتـك ماتغسّـلتش يـا بثينـة؟».

لم تجبـه المـرأة؛ فتابـع: «هـو كان مسـتنينا نيجـي عشـان نعمـل احنـا الواجـب ده ولا إيـه؟».

_«إنت شايف إنّ ده وقت مناسب للكلام ده؟».

_«لأ فعـلًا مـش مناسـب.. الـكلام ده كان المفـروض يتـمّ مـن خمـس.. سـتّ سـاعات.. أو أكـتر».

زفـرت بثينـة وهـي تتحامـل عـلى نفسـها، ثـمّ قالـت في تماسـك: «مختـار كان أقـرب حـدّ فينـا لماما.. وهـو الـلي فضـل جنبهـا في شـدّتها وفي عـزّ مرضهـا، إنـت فاهـم إنّـك بتحاسـبه عـلى موقـف هـوّ مصـدوم فيـه صدمـة حياتـه في ماما ومـش عـارف يتـصرّف!».

وتهـدّج صوتهـا وانخفضـت نبرتُهـا وهـي تقـول: «ماما الله يرحمهـا.. ده يابنـي قـام يعمـل لهـا فطـار، ومسـتنيها تـاكل معـاه!».

ونشـجت بثينـة في أسـى عـلى أخيهـا، ضمّهـا الرّجـل لصدره وربّـت عـلى ظهرهـا بحـرارة، والتفّـت يدهـا الممسـكة بالهاتـف حـول خـصره؛ لتلتقـط الكاميرا الخلفيّـة مـن فـوق الحائـط صـورة أسرتهـا الّتـي انفـرط عقدهـا إلى الأبـد.

***

*"ربّما إذا اعتبرت جميع الأشخاص حوائط صمّاء لا تقوى على التّأثير؛ لكان «عبد الحميد الخيّام» دونًا عن إخوتي الكبار حائط مبكى، أهرع إليه لأعيد لنفسي ذكريات أيّام سابقة، أعصف بأفكاري في عنف عنده، وأخرج تناقضاتي الباطنة في صورة انفعالات زائفة، وطبعًا ما تيسّر من دموعٍ.. ولحسن للشّقاء. ربّما كان فيما أظهر من ادّعاء جانبٌ من الحقيقة، لا يتعدّى كونه وجهة نظرٍ لذلك الشّخص في المستقبل، بعد أن بكى عمره وأطلال أسرته المندثرة، وأراد لنفسه النّهاية المثاليّة اللّائقة ببائسٍ حلم أن يصبح عظيمًا؛ ولذلك ف«عبد الحميد» هو صديقي الّذي لم يعاتبني يومًا، ولم يدّعِ الحكمة؛ كي يشعر بنرجسيّةٍ لم يملك منها الكثير، وفي النّهاية فقيمة الأشخاص لدينا ليست فيما أثروا به عقولنا، وليست في أقوالهم أو في بعض نصحهم، وإنّما هي فيما نستشعر من عواطف وأحاسيس مختلطة ردًّا على موقفٍ منهم أو كلمةٍ قالوها قد يكون لها أبعاد أخرى، ودوافع غير صادقة".*

***

جمّد مختار حسابه الشّخصيّ على الفيسبوك دون أن يعلن خلاله وفاة الأمّ، مرّ بمرحلة صمتٍ افتراضيٍّ كئيبٍ ألزمته الانسحاب من كلّ ما انخرط فيه من نشاطاتٍ وهميّة، وألزمته شقّة أمّه الرّاحلة.. بقيت بثينة إلى جواره لثلاثة أيّام، ثمّ أتى وقت الرّحيل؛ لتودّعه الأخت قائلة: «هبقى أجي لك في وقت تاني يا مختار".

ظلّ الرّجل ملازمًا لفراش أمّه، وهو يقرأ باستمرارٍ من تطبيق المصحف عبر هاتفها، ذلك الّذي اعتادت استخدامه في حياتها بمعزلها الأثير، ومن نفس الموضع. بكى كثيرًا، حدّث شبحها المقيم بأنّه مسئولٌ عمّا حدث، وصارحه بندمه لتنصّله الدّائم من القيام بخدمتها على الوجه الأكمل، علّل ذلك بأنّ صدره قد ضاق لحياةٍ لا يحياها لنفسه، حياةٍ لم يتّخذ فيها خليلةً أو حبيبة. لقد أراد من داخله أن تنتهي معاناة الأمّ، وتنتهي معها معاناته، لكنّه فوجئ الآن بأنّ فجيعته الحقيقيّة قد بدأت لتوّها.. شعر الغريب بالخواء، بانتفاء الدّافع للاستمرار، ليست لديه قضيّةٌ يفني حياته في حملها، ويبذل من أجلها الجهد العظيم.. فقد ماتت أمّه الّتي كان يخدمها، وماتت معها كلّ دوافعه!

تعرّف هاتف مختار على شريحةٍ جديدةٍ أضافها لهاتف أمّه، الّذي اتّخذه بديلًا عن الّذي في حوزته؛ بنيّة أن يصبح بدايةً جديدةً له، بعيدةً كلّ البعد عن حياة الوهم والادّعاء. هي شريحته ذات الرّقم المسجّل في جهات الاتّصال لديّ، وذلك هو تطبيق الواتساب الّذي فتحه الرّجل غير مرّةٍ لينظر إلى صورة واجهته الّتي تظهر الحزن لفقد الأمّ، وحالاتٍ متتاليةٍ قام بنشرها، ولم يفتحها أيٌّ من أصدقائه عبر التّطبيق: «البقاء والدّوام لله.. توّفيت إلى رحمة الله تعالى حبيبتي، وأمّي الحاجة: زينب السّبيع». «أمّي الحبيبة لم يعد للحياة معنىً في

غيابـك.. رحلـتِ ورحـل معـك كلّ شيء".
رنّ الهاتف لرقمٍ غير مسجّل..
"ألو".
_"مختار يا حبيبي ازّيك؟ اعذرني أنا مقصّر معاك والله".
تلجلج مختار لوهلة في محاولةٍ للتّعرّف على الصّوت، ثمّ عاد يقول في ترحاب حزين: «عبده.. ازيّك.. أنا بخير يا عبده.. بخير والله".
_"أنا عرفت بالصّدفة من واحدة قريبتي موجودة عند إخواتك البنات على فيسبوك.. قالت لي إنّها شافت البوست بالعزا والدّفنة.. ولسّه معرّفاني حالًا باللي حصل.. قالت لي: مختار صاحبك والدته اتوفّت، عرفت بالخبر؟ قلت لها والله ما أعرف بده غير منّك.. مانت ماعندكش حساب أعرف منه أخبارك، ولّا حتّى كلّمتني تعرّفني يا مختار.. عامة يابني قلبي عندك.. ده حال الدّنيا.. إنت عارف إني لو عرفت من يومها كنت هقطع شغلي في سوهاج فورًا، وأنزل لك على وجه السّرعة زيّ ما بيقولوا.. مايصحشّ أسيبك لوحدك في ظرف زي ده".
بدا التّأثّر على صوت مختار الّذي قال: «فيك الخير يا عبد الحميد.. لا.. مالوش داعي سفرك وانت في مكان بعيد، أنا بخير.. التّعازي مابتعملش حاجة.. غيرش بتزوّد الزّعل".
وأفلت ضحكةً مريرةً من بين شفتيه نمّت عن حزنه العميق.

"يعزّ عليّا ماكونش جنبك في الظّرف ده يا مختار.. إنت أخويا مش مجرّد صاحب.. لا انت منتظر كلام.. ولا فيش كلام يوفي معزّتك في قلبي.. إنت عارف.. وربّنا كمان أعلم.. أنا عامّة قطعت الشّغل وطلبت أجازة بكرة من المدير.. هاجيلك الشّقة في المعادي.. بس لو تكرّمت تبعت لي اللوكيشن عشان بتوه في القاهرة".

صدّ مختار صاحبه وأكّد بلهجة حازمة: «خلّيك عندك يا عبده.. إنت واجبك واصل وبدون أي شيء.. لسه هتاخد قطر الصّعيد رايح جاي عشان تقول لي كلمة قلتها لي في التّليفون!".

زفر عبد الحميد ولم يعقّب لبرهة، كأنّما قد قنع بإعفائه من آداء الواجب، ثمّ سأل صديقه سؤالًا باغته في شيءٍ من التّردّد: «هيّ.. فاطمة كلّمتك؟".

فاطمة!

لم يصدف لي أن سمعت باسمها لا في أوراق الغريب، ولا محادثات أمّه، ولا واقعه الافتراضيّ.. لا بدّ أنّ سرًّا يقف خلف المرأة المجهولة؛ حتّى لا يذكرها سوى أمين سرّ مختار في معرض تعزيته لصديقه ودونًا عن غيرها؛ ولهذا أنصتّ بفضولٍ لإجابة مختار حين قال في أسىً لم يحسن إخفاءه: «الموضوع ده خلص من زمان يا حميد.. خلص قبل حتّى ما يبدأ".

وانتهت المكالمة..

***

"حدّثتُ نفسي كثيرًا عن هذا، واستنتجت أنّني ربّما لست وحدي من أحبّ «كوثر»، لكنّني بالتّأكيد أكثر محبّيها ولعًا وبؤسًا.. أمّا كوثر، فهي «كوثر»، لا تقلّ ولا تزيد عن هذا؛ فربّما ظلم الإنسان محبوبته إذا ما دعاها قمرًا أو غزالًا؛ لأن هذين الاثنين أو غيرهما لا يزيدان في عينيّ العاشق بهاءً عن ذلك المحيّا الآسر، أو تألّقًا عن تلك العينين الرّائعتين، أو نضرةً عن الطّفولة الفضّة، أو حيويّةً عن الشّباب المندفع. إنّها «كوثر» التي وقعت عيناي عليها في أحد أيّام الطّفولة المعذّبة. كم أرغمتني بشرتها البيضاء، ووجهها المتورّد بالحمرة، وعيناها الصافيتان أن أعود طفلًا كبقيّة هؤلاء.. أتمنّى ما لا أملك، وألتقط النّجوم بأصابعي من النّافذة.. أحلم بخصلات شعرها الذهبيّ نائمًا ويقظًا.. أسير على مقربة منها؛ كي أتنسّم عطرها.. أرى الطّفل النّحيل عاري الجسد يستعرض شبحه في المرآة، ويتمنّى لو كان أكثر قوةً؛ فيجذب انتباه كوثر، أو يجعلها فقط تنظر إليه مرّةً واحدة، ثم تشيح بالبصر بعيدًا..

مرّت السنوات، ورأيت تغيّر ملامحها جليًّا، ووصفته في كرّاستي تفصيلًا، وإن كنت قد أبقيت على حبّي الدفين في أحشائي أربعة أعوام، لم أعد أذكر بعدهنّ الحبّ إلّا طيفًا شاردًا، وذكرى طارئةً.. وعلمت بعدها أنّ كلّ شيء يذهب طيّ النّسيان، ولا تبقى إلّا أشباح الحقائق والماضي ذو الشّجون!".

***

رنّ هاتف مختار تلك الليلة، وأجاب الرّجل الاتّصال القادم من «ذكرى سيّئة» فورًا!
"ألو".
قالها بصوتٍ عميقٍ في أناةٍ وترقّب، إلى أن ظهر صوتٌ خفيضٌ من الطّرف الآخر تصاعد تدريجيًّا: «مختار؟".
همهم في تحفّظٍ، ثمّ أجاب: «أيوه يا فاطمة.. أنا مختار".
شعرتُ بتوتّرٍ قائم بين الاثنين، غير أنّ الغريب بدا أقرب لإذابة ما بينهما من عوالق؛ فقد أراد أن يخبرها بأنّه لم يزل يحتفظ برقمها، وأنّه لم يمحُها من جهات اتّصاله قط.
"البقاء والدّوام لله.. إنّا لله وإنّا إليه راجعون.. لُو ماقولتش يا مختار؟ أنا معك لو احتجت لي في أي حاجة.. أنا جنبك، وربّنا بياخد دايمًا النّاس الصّالحة؛ لأنه همّا من أصحاب اليمين وفي جنّات الخلد إن شاء الله".
نشج مختار جرّاء ما أبدت المرأة ذات اللكنة الأجنبيّة من شفقة تجاهه، وتهدّج صوته وهو يجيب: «الله يرحمها.. إنّا لله وإنّا إليه راجعون".
_"ربنا يكتب لينا لقاه في الجنّة يا كريم يا ربّ".
انخفض صوت مختار في استسلام وقال: «آمين يا ربّ.. شكرًا على اتّصالك".
شعرت المرأة برغبة محدّثها في الانسحاب هذه المرّة؛ فاستجابت في غير تحرّج قائلة: «العفو.. بتركك.. مع السّلامة.. سلام".

راقبتُ وجه مختار، وعيناه تدمعان بينما يسراه تضغط فوق صدره، ويده الأخرى قابضةٌ على هاتفه، فتح الحالات الّتي نشرها عبر واتساب، ولم تفتحها سوى فاطمة، أو كما سجّلها «ذكرى سيّئة». أراد منها وحدها أن تعلم بالخبر ولذا غير واجهة التّطبيق وقبل برسالتها، وانكشفت لها حالاته خصّيصًا، أراد من الفتاة أن تواسيه، أن تمدّ ذلك الحبل المنقطع بينهما ثانية.. أو هكذا فهمت. تلك المحادثات الّتي قام بأرشفتها من تطبيق الواتساب لبريده الإلكتروني، تُظهر علاقة حميميّة جمعت الحبيبين ببعضيهما، قلّب الرّجل عبر شاشته في تاريخ طويلٍ من التّعارف، هو سنواتٌ من الاتّصال والانفصال، من التّقارب والتّباعد، من الصّحّة والانتكاس.. كان يتوقّف مليًّا في محطّاتٍ بعينها ليشهق في تأثّر: «ببقى طول العمر معك يا مختار.. ربّنا يجمعنا على خير".

_ماتسيبينيش يا فاطمة.

مش بسيبك.

_عمرك ما هتسيبيني يا فاطمة؟

مختار.. لمو تتكلّم عن البعد والفراق؟

_عشان سبتيني قبل كده وتعبت.

أنا آسفة إنّي جرحتك.

_ماتتأسّفيش يا حبيبتي.. أنا بحبّك، واللي بيحب بيسامح.

لكن أنا جرحتك.

_وأنا نسيت كلّ حاجة، خلّينا نفتح صفحة جديدة.

مش عارفة.
_مش عارفة إيه؟
مش عارفة إن كان ممكن نفتح صفحة جديدة وننسى اللي مرّ.
_تاني يا فاطمة؟
إنساني يا مختار.. مش عايزة أجرحك تاني.
_إنتي بتهربي منّي.
إت تستحق أحسن منّي.. جدّ تستحقّ أحسن.
_تاني بتقوليها يا فاطمة؟ قلت لك كذا مرّة: أنا مش عايز أحسن منّك.. افهميني! أنا بحبّك انتي.. انتي.. مش حدّ تاني!!!
وأنا مابحبّكش.
_ورجعتي لي ليه؟
مش عارفة.
_وليه تقولي امبارح بتحبّيني.. وترجعي تقولي دلوقتي مش بتحبّيني! إنتي بتلعبي بمشاعري؟
أها.. أنا لعبيّة.. وآخدة الموضوع مزحة.
_فاطمة.. مش بهزّر!
وأنا مش بهزّر.. إذا كنت إت شايفني هكّه.
_أنا مش شايفك كده.. أنا بسألك.
بتسألني كأنّك ما تعرفنيش.. أحسنك وربّي.
استقرأتُ أنّ مختار واقعٌ في حبّ شخصٍ سامٍّ أو هكذا أدّعي، أمّا تلك المرأة _تحبّه كانت أو تبغضه_ فقادرةٌ

على قلب الطّاولة في كلّ مرّة، وكما أرى بتقديري فسوف تدمّره حتمًا في نهاية المطاف.. علق الرّجل في شباك ذلك الحبّ المريض منذ ثمانية أعوام كاملةٍ وربّما أكثر! هكذا أشار أوّل تاريخ لمحادثاتهما عبرَ التّطبيق، أمكن أن يكون مختار مهووسًا بها، وأمكن أن تكون هي المصابة باضطرابٍ ثنائيّ القطب؛ فهو من جهته يتودّد إليها، ويتجاوز عن إساءاتٍ تسوقها إليه فاطمة دونما ردٍّ يُذكَر، وكأنّه رجلٌ يحيا بلا كرامة. وهي من جهتها تتقلّب ما بين الودّ والكراهية كتقلّب العام بين فصولٍ أربعة: «إت يا أخي بارد، ومشاعرك باردة». ثمّ: «مختار.. أنا آسفة.. كلامي ضايقك".

تلوّح فاطمة بالرّحيل وتتراجع، تتمسّك بحبيبها، ثمّ تنهره بكلماتٍ موجعة، ومن ثَمّ تهجره وتنقطع عنه، وتصمت في فترات انقطاعها أيّامًا وأسابيع.. تمرّ الأوقات بطيئةً على العاشق المهزوم الّذي ينعزل بدوره، ويتقلّب ما بين نوبات الفزع والأعراض القاتلة لمتلازمة القلب الكسير، كلّما ألحّت عليه ذكرى رحيلها، يخبرها حين تعود إليه بعد ذلك لائمة، أنّه لن يرجع إليها من تلقاء نفسه حين تتركه، وأنّه لن يطرق اليوم بابًا أغلقه صاحبه في وجهه بالأمس. غير أنّ الفتاة تلتمس منه رغم كلّ شيءٍ أن يظلّ إلى جانبها مهما حدث.. ألّا ييأس منها حتّى وإن ضاقت به ذرعًا، أن يبادر بمصالحتها من تلقاء نفسه، وإن خالف بذلك طبيعته الّتي لا تميل للمبادرة.

ويجد الرّجل نفسه في الأخير ـ ولسخرية القدر ـ يعتذر للفتاة عن طبعه العنيد، ليذوبا من بعدها في حمّى التّوق والشّغف متبادلين عبارات الحبّ والهُيام!
عدّل مختار اسم «الذّكرى السّيّئة» إلى «فاطمة»، اسمٍ يعبّر عن منطقة اللاخصام واللاوصال، ويمهّد لعودة حبٍّ غارقٍ ظنّه قد مات في قلب محبوبته؛ فإذا به يطفو إلى السّطح بعد عامٍ ويزيد من القطيعة وهو لا يتبيّن أحيٌّ هو أم ميّت.
أوصل الرّجل هاتفه بحاسوبه الشّخصيّ بغرض نقل الملفّات، وحين انتهي ظهر لي معرض صوره كاملًا، وعيناه الحزينتان تطالعان وجه امرأةٍ سمراء بملامح إفريقيّةٍ واضحة: أنفٍ دقيقٍ ومنخرين نافرين، عينين واسعتين وفكٍّ بارز.. شفتين رفيعتين رغم هذا، وعظمتيْ وجنةٍ منحوتتين بإزميلٍ ومطرقة. أقرب ما تكون لما تبدو عليه الإريتريّات وبنات قبائل البجا. لديها صورٌ كثيرةٌ مع قريناتٍ عربيّاتٍ يضحكن في وضعيّاتٍ طريفةٍ ما بين متلثّماتٍ في تدلّلٍ وأخرياتٍ مميلاتٍ أعناقهنّ في حركاتٍ استعراضيّة، بدت بيوتٌ قديمة الطّراز فوق ربىً مرتفعةٍ وكثبانٌ فوق سهلٍ ممتدٍّ في الأفق. تلك هي أرض العاشقة الغريبة. أسند مختار وجهه لقبضته، وتأمّلها بعينين حزينتين ثمّ أفلت ابتسامة توقٍ على غير إرادة منه.

***

"حملني أبي على كتفيه وصار يجول بي أرجاء الشّقّة. كم تبدو تلك اللّحظة بعيدة تمامًا كأنّما هي منذ ما قبل البشريّة. مرّت السّنوات القصيرة طويلة عليّ، وظلّ أبي كما كان: يمزح معي وإخوتي كما يمازح الأطفال، وعلى ما بدا فيه من اختلاف في المعاملة كان ليوحي بأنّه شخص آخر، إلّا أنّني علمت بأنّ جوانب من شخصيّته لم تبد جليّةً لطفلٍ في الخامسة من عمره، وأنّ ما تبدّل هو رؤيته لصفحةٍ بيضاء أراد أن يمحو منها عجزه في الحياة وإخفاقاته، ويرسم فيها الابن الذي طالما أراده، رآها تمتلئ بترّهاتٍ وعبثٍ عقيم. إنّه نفس الرّجل بعد أن ألقت الحياة على كاهله أعباءها وأمانيها.. وخذلانها!

كنت أعلم بأنّ ذلك الغضب الكامن داخلي سيدمّر كلينا حتمًا. كان والدي دائم الظّن بمثاليّته أو هكذا كان يجهر أمامنا، وهو حقًّا على ما أعلم كان لينتظره شخصٌ آخر في نهاية النّفق، لولا أن اختلفت خياراته في الحياة، وتبدّلت بدافع العاطفة، وكان فيما مضى يكثر من أحاديثه معي لأنّه كان يعلم بأنّ إخوتي ضلّوا الطّريق الذي أراد، وكان هناك ما يدفعه دائمًا للتّمسّك بالأمل ناحيتي. شيءٌ صرّح به مرارًا على أنّه تميّزي وعبقريّتي غير أنّني لم أصدّقه، ولم أعِه، وظلّ غامضًا لم أعلمه طوال سني حياتي".

***

هذا أوّل عملٍ أديرُ فيه موارد تتحرّك على الأرض: فنيّين ومهندسي موقعٍ شاقين في شوارع القاهرة. صرت أملك

ما بين يديّ لعبةً أعرف خفاياها، بعد أشهرٍ كنت فيها مجرّد ترسٍ فاعلٍ بها. الآن أراها من الخارج.. أجري اتّصالاتي بالرّجال؛ ليلاحقوا أعطال الشّبكة هنا أو هناك، تمثّلتُ شخصيّتين متناقضتين عن قصدٍ وبكامل إرادتي وأنا أعامل زملائي ومرؤوسيّ، هذان وجهان تخيّرتهما بعدما خبرتُ طباع البشر، وجه الرّجل الهادئ دمث الخلق المقرّب من مديريه، والمقدّر من زملائه، والوجه الصّارم لرئيسٍ عنيفٍ لا يتهاون في سير منظومة العمل دون النّظر لأيّ اعتبارات إنسانيّة، وجهٌ لا يراه سوى المؤتمرين الّذين يذوقون عذاباته والمتهرّبين من أشغالهم.

"انزل يا أحمد فورًا على موقعك. ده أمر شغل في وقت عملك الرّسمي ووفق متطلّبات عملك الطّبيعيّة. في حالة وجود عذر قهري يمنع نزولك لازم الرّجوع لمسئول الحركة في الشّركة.. غير كده منتظر حركتك خلال خمس دقايق من دلوقتي".

سيظلّ الرّجال يذكرون التّحقيق الحادث بمقرّ الشّركة، حين جلس خمسة عشر مرؤوسًا في شكوى جماعيّة تواطأ فيها مهندسو موقع وفنّيّون ضدّي: «باشمهندس محمّد قاطع نفسنا ومدوّرنا في ساقية.. فين السّيفتي يا جماعة؟ إحنا ناس شغّالين بدراعنا ومنّا ناس على باب الله، لو وقع واحد فينا مين اللي هيفيده ويفيد عياله.. أنا آسف يا مدير.. بس كلّ واحد فينا وراه كوم لحم، ومفيش واحد هنا إلّا واشتكى بدل المرّة اتنين من الباشمهندس..

أكيد المشكلة مش فينا.. ولّا إيه يا جماعة؟".
ابتسمت في هدوء، والمدير يشير إليّ بالإدلاء بدفوعي الّتي سبق له الاطّلاع عليها: «دي فرصة سعيدة إنّه يتواجد معانا النّهارده في التّحقيق الحركة والسّيفتي.. لإنّي حسب ما متذكّر؛ فعمّ كامل ذكر جزئيّتين مهمّين جدًّا كان لازم أردّ عليهم، الجزئيّة الأولى إنّي مدوّر إخواتنا وزمايلنا الفنيّين في ساقية.. وأنا بس بدّي أعرف إيه السّاقية المقصودة.. يعني هل أنا سبق ليّا وشغّلت فنّي زيادة عن الاتناشر ساعة المعتمدين من قواعد الشّغل كعدد ساعات في أي يوم عمل محتمل؟ الإجابة لأ.. وده ملفّ مش أنا وحدي المسئول عن بياناته، ولكن كلّ زمايلي في المكتب، بمعنى أصحّ بيان موثّق بتحرّكات الفنيّين وعدد ساعات عملهم والمواقع اللي اشتغلوا فيها خلال التلات شهور اللي فاتوا من بداية تعييني وحتّى الآن.. وعلى فرض إنّه حصل وأنا إدّيت أمر شغل بيتنافى مع قواعد العمل من ناحية الحركة؛ فالطّبيعي إن زمايلي الأعزّاء يرجعوا بشكوى لمسئول الحركة، ولو أرغمتهم على الشّغل ضدّ السيفتي يبقى لازم الرّجوع لمسئول السّيفتي، ووقتها هوّ اللي بسلطته وباختصاصه هيتدخّل وهيمنع الأكشن ده من إنّه يحصل، وإلّا فسكوتهم كفنيّين على الغلط يعتبر تدليس على قواعد الشّغل وتقع عليهم فيه مسئوليّة زي ما هتقع وقتها عليّ، الفكرة إنّه مسئول السّيفتي لم يتلقّى شكوى واحدة ـ ولو حصل غير كده

بإمكانه يصلّح لي ـ أو رجوع في استفسار إن كان الأكشن اللي قام بيه زملائي الفنّيّين متوافق مع السّيفتي أو لأ ده من خلالهم.. وبإمكانه الرّجوع لعدد ساعات الشّغل، ولحركة السّوّاقين في المشروع، وإن ثبت ليه إنّهم اشتغلوا ضدّ السّيفتي؛ فهتقع مسئولية أولى عليهم لإنّه مش ممكن إنّ حدّ في المكتب يضرب فنّي أو سوّاق على إيده عشان ينزل يشتغل غلط، ثمّ مسئوليّة على مسئول المكتب في حالة إنّه ثبت توجيهه ليهم بالشّغل ضدّ السّيفتي، تاني جزئيّة: وهي إنّ كلّ الشّكاوى المرفوعة للحركة تمّ الرّدّ عليها في وقتها، ونزل الفنّيّين في النّهاية مواقعهم، ودي جزئيّة مش في صالح اللي رافع الشّكوى نفسه؛ لإنّها دليل على التّملّص من الشّغل في ساعات العمل الرّسميّة، وفي وقت أعلى فنّي ومهندس من زملائنا مش محقّق تارجت ستّين في الميّة من عدد ساعات الشّغل، وعدد المواقع اللي المفروض يحققها شهريًّا".

قرأت الحرج والتّورّط في أعين بعض الفنّيّين والغضب البادي على وجه البعض الآخر؛ فهدأت لهجتي في محاولة لإظهار وجهٍ رؤوف ومتفهّم لجميع الحاضرين: «إحنا قطاع خدمي يا جماعة، وطول الوقت بنتحرّك عشان نلحق خدمة متوقّفة في مكان معيّن أو نحلّ شكاوى «في آي بي» لعملاء مهمّين، وبناءًا عليه أنا وانتم بنتقاضى رواتبنا من الشّركة، أنا إن أخلّيت بقواعد العمل هقع في مساءلة مع مديريني، وإن كبّرت دماغي عشان أبقى

حبيب الكلّ ومازعّلش حدّ منّي أبقى غلطان وبخون المنظومة اللي باكل منها عيش، الحالة الوحيدة اللي ممكن نناقشها النّهارده بعد ما ثبت للجميع إنّه ماحصلش توجيه لحد من زمايلنا في المواقع ضدّ قواعد الشّغل، هو إنّه يكون فيه توزيع غير عادل للشّغل على الفنّيّين، تحميل زيادة على واحد أنا أكون واخد موقف شخصي ضدّه، وترييح لناس تانية «على الحجر» زي ما بيقولوا، وأرجو لو فيه حدّ شايف كده يقول هو اشتغل زيادة إمتى ومين كان أحقّ وقتها بالنّزول للشّغل بداله".

ترقّبت ظهور الفوضى وأنا أنظر لطاولتي في هدوء، لم أرفع رأسي لأنظر إليهم؛ فقد كنت أراهم بعين الحقيقة وأكاد أسمع أحاديثهم لأنفسهم كشيطانٍ مريد، وهمساتهم فيما بينهم، غمغمت: «تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُم شَتَّى» وأفلت ضحكة خبيثة، والفنّيّون متحزّبون إلى جبهات، مرّت لحظاتٌ قلائل من التّردّد والهمهمة، ثمّ حدث ما توقّعته تمامًا، وما رميت لحدوثه: شيئًا فشيئًا اشتبك المتواطئون في تلاسنٍ جارح، وتبادلوا التّهم فيما بينهم. وُقِّعت جزاءاتٌ بالجملة من الشّركة على أصحاب الشّكاوى؛ لما بدر منهم من تجاوزات أثناء التّحقيق وخروج عن الأساليب اللائقة والقواعد المتّبعة، أُبلِغ العاملونَ بأنّ الإدارة لن تسمح بتكرار ما حدث، وأنّ أيّ تقريرٍ سيُرفع من خلال المكتب يُرصَد فيه تراخي طرفٍ من أطراف المنظومة سيُقابَل بإجراءٍ عقابيٍّ عنيفٍ يصل

إلى الإقالة، بل أعلمهم المدير التّنفيذي صراحة، وبإنذارٍ شديد اللهجة أنّ سياسة الشّركة للوقت الحالي قائمة على إعادة إحلال عناصر أكثر صلاحيةً في الوظائف الشّاغرة أو المشغولة بغير ذوي الكفاءة والاجتهاد. لم يعد من الممكن إخفاء ذلك الحدث الجلل بالمشروع، قيل: «محمّد أبو رقيبة غلب جرمأ الرّجّالة اللي شكوه، وبعد ما سنّوا سنانهم عليه طبّقهم وحطّهم في جيبه.. نقول ايه؟ القوي فيه اللي أقوى منه".

صنع الحدث لي صورةً مهيبةً في أنظار الرّجال، سارع المتملّقون في محاولة إرضائي وكسب ودّي مخافة تقلّبي، وقد اعتقدوا أنّني مستندٌ لركنٍ قويٍّ يعضّدني في الشّركة، تجنّبني البعض، ليس فقط على مستوى المرؤوسين بل الزّملاء الّذين صار ينالهم جانبٌ من تقاريري القاسية. لست تواؤميًّا.. لكنّني حظوت بجانبٍ من المرونة مع أقراني في بداية عملي قررت من بعد التّحقيق تركه؛ لأكشف للجميع عن قدراتٍ خاصّة في الإيذاء، إيذاءٍ في اتّجاهٍ واحدٍ، لا يخرج إلّا من «محمد أبو رقيبة»، ولا ينال منه على إثره شيء.

لم يغبْ عنّي مختار طوال تلك الفترة، وإن كنت قد رشّدت من مراقبتي له؛ لا لشيءٍ إلّا لتركيزي جلّ مجهوداتي على مباشرة أعمالي وخوض معاركي الّتي تطحن العظام. تجاسرت على الاتّصال بالرّجل بعد مضيّ أسبوعٍ لا أكثر من وفاة أمّه. كان لم يزل منغمسًا

في موجةٍ باردةٍ من الحزن، من رأسه وحتّى أخمص قدميه، تردّد كثيرًا على قبرَيْ أمّه وأبيه المتجاورين في ألفةٍ وحزن؛ كي يبثّهما همّه وشكواه، وهو يعلم أنّهما في مثواهما الأخير لن يسمعاه.

حدّثته.. قلت له أنّي أردت الاطمئنان عليه؛ فقد غاب لأسبوعٍ كاملٍ عن الفيسبوك: «إيه الموضوع يا مختار؟ إنت بخير يا صاحبي؟ افتكرتك عملت لي بلوك لمّا مالاقيتش أثر لحسابك ع الفيس. قلت استنّى كام يوم أشوفك هتظهر ولّا لأ. طمنّي عليك، وماتقطعش كده يا مختار".

_"والله انت ابن حلال يا باشمهندس محمّد.. فيك الخير، فيك الخير يا حبيبي".

قالها بمزيجٍ من التّحفّظ والودّ؛ كأنّما قد مسّته لفتةٌ إنسانيّةٌ من شخصٍ ينتمي لعالمٍ أراد أن يطوي صفحته إلى الأبد.

"مال صوتك يا مختار؟». قلتها وكأنّني أجهل الأمر فسكت.. وسمعتُ شهقته وقد خمّنت أنّه لا يعلم أيصارحني بوفاة أمّه أم لا، إلى أن قال: «ظرف صعب، لكن ربّنا قادر يهوّن".

اختصرت المسافة عليه: «حالة وفاة؟». ثمّ تداركت الأمر متابعًا: «.لا قدّر الله؟".

"أمّي".

ولم يَزدْ.. حينها حوقلتُ وقدّمتُ إليه التّعازي. أظهر

مختار استعدادًا صادقًا لفتح صفحةٍ جديدة، لتعارُفٍ حقيقيٍّ يهرب به من شبح الماضي: «بس طلب شخصي: ماتسألنيش على أيّ حاجة فاتت غير لما قول لك عليها من نفسي يا محمّد".
قالها في التماسٍ احترمته، وأجبته موافقًا: «أكيد يا مختار.. وهكون سعيد نتقابل في يوم من الأيّام".
ثمّ صارت بيننا مكالمةٌ واحدةٌ أسبوعيًّا على الأقلّ، لا دافع يُذكر منها سوى وجود غريبٍ مثلي، لم يزلْ يتمسّك بأصولٍ قديمة ـ عفا عليها الزّمن ـ ويريد أن يقف لجوار غريبٍ آخر في محنته؛ ذاك ما تدعو إليه الشّهامة وما تفرضه المروءة الحقّة.
لم أعُد أكتفي بممارسة تأثيرٍ خفيٍّ على هذا الرّجل، أردت بعد الخوض في تفاصيله أن أتفاعل معها، أن أصبح حاضرًا بجسدي في تلك السّاحة المحرّمة، حيث مختار عبد الحيّ وأخته بثينة وصاحبه عبد الحميد الخيّام، والأهمّ: تلك الفتاة صّوماليّة الأمّ المولودة بتعز اليمنيّة، محبوبته السّابقة ومعذّبته الأثيرة: فاطمة الزّهراء علي أحمد جواد.
دارت نقاشاتٌ متّصلةٌ بينها وبين مختار ثانيةً، لم يتعلّم الغريب أن يبتعد، لم يستفدْ من تجربةٍ بدت لي مريرة، بل لم يلبث أن وجد النّار تستعر من جديد؛ فإذا به يلقي بجسده خلالها ويحسب أنّها ستكون بردًا وسلامًا.
كما لم تتغيّر المرأة ولو قليلًا، لم ترَ دافعًا لمراعاة أنّ حبيبها

قد فقد لتوّه أمًّا، وحياة كاملة حياها تحت قدميها خادمًا. يحرّك مختار شعورٌ عميقٌ بالذّنب أكاد أشعر به؛ فقد توقّف أمام جزءٍ من محادثتهما في إحدى المرّات: تلك الّتي كشف فيها عن إصابة أمّه بالتهابٍ في الأعصاب، أثّر على أطرافها وبخاصّةٍ ساقيها اللتين لم تعودا قادرتين على حملها، كان ذلك منذ ثلاث سنوات، وتغيّرت لهجة الفتاة من بعدها معه وبشكلٍ جذريّ: «مختار.. لمّا نتزوّج من بياخد باله من والدتك؟".

سألته صراحةً ودون مواربة، وأجابها: «هيّ أمّي يعني مسئوليّتي.. أنا أشيلها، وانتي تساعديني عشان جوزك، وربّنا هيكتب لك بده الثّواب".

_لكن الرّجل مش بيتزوّج علشان يلاقي خادمة لأمّه.

الجواز أساسه الحبّ واللي يقدّمه كلّ طرف بيقدّمه طواعيةً، مش إلزام.. والتّطوّع لو مش دافعه الحبّ يبقى مش هعوزه.

_أها.. بنعيش معها؟

أعتقد ده بديهي يا فاطمة.

_بالله.. بربّك! وإذا حبّينا نستقلّ بحياتنا في يوم؟

هنستقلّ لكن ماما هتفضل معانا.

_مش عارفة.. هكّه مش استقلال.. أيّ زوجة بتحتاج تشعر بحريّته وإنّه مستقلّة مع زوجه.. علشان.. إت عارف.. والأهل عندنا وجودهم في نفس البيت بيصنع مشاكل، وكتير بيستغلّوا الزّوجة تكون خادمة لأمّ الزّوج

وإخواتـه.
إيـه نـوع المشـاكل الـلي ممكـن تسـبّبها لـك ماما ربّنـا يشـفيها ويعفـي عنهـا؟ دي مـش بتتحـرّك بنفسـها.. ونفسـها عزيـزة جـدًّا للعلـم.. دي بيصعـب عليهـا حتّـى إنّي بخدمهـا مـع إنّه واجبـي، وبتتضايـق إنّهـا مـش قـادرة تخـدم نفسـها بنفسـها.
_أها.. حبيبتي.. ربّنا يحفضه ويتمّ شفاءه على خير.
فاطمة..
_نعم..
أنـا مـش بسـتغلّك يـا فاطمـة. أنـا كفيـل بمسـاعدة أمّـي، وأنـا أخـدت عـلى كـده خـلاص.
_الـكلام يكـون شيء لكـن بعـد الـزّواج الرّجـل يتغـيّر، ويظهـر عكـس مـا كان.
بسّ أنا صادق معاكي، وإلّا ماكنتش أقول ده من الأوّل.
_ما في شيء يضمن يا أخي، مش عارفة..
عامّة مسير الأيّام تثبت.
_إنشالله.
كان وجـود الأمّ عائقًـا أمـام اسـتمرار تلـك العلاقـة؛ لهـذا شـعر الغريـب ربّـما بثقـلٍ زائـدٍ لأمّـه، تمنّـى مـن داخلـه أن تنتهـي مأسـاتها الحزينـة؛ كـي يبـدأ قصّتـه الخاصّـة الّتـي توقّفـت منـذ سـنتين كاملتـين. الآن الطّريـق ممهّـدٌ لفعـل هـذا؛ رحلـت السّـت زينـب بأثقالهـا الموهنـة، أمّـا بثينـة وسـناء وأكـرم فبعيـدون كلّ البعـد عـن حيـاة مختـار، ستشـعر فاطمـة باسـتقلالها أخـيرًا؛ لتتطلّـع إلى عرشـها

الأثـير، وتدخـل جنّتهـا الّتـي وعدهـا بهـا الرّجـل، كملكـةٍ متوّجـةٍ بكبريـاء، عـادت لتوّهـا مـن المنفـى.
يا لغفلتك!

***

-21-

"كم كان ذلك الطفل الذى يسير بخطواتٍ مرتبكةٍ فى الشّرفة والصّالة أحمق عندما ظنّ أنّ بإمكانه أن يصوغ ملامحه كيفما يشاء؛ فيصبح هائل الجسد كجبل، عظيم البطش كالقوّة ذاتها، حرّ النّفس كنسرٍ محلّقٍ ممتلىء البطن، عديم الرّغبة كما يجب لراهبٍ أو قدّيس!

بل ظنّ أنّ كلّ ما يأتى به من فعلٍ أو حركةٍ عابرة، إنّما هو خطٌّ فى رسمه المنتظم، ومكوّنٌ لكيانه الكامل غير المنقوص. أرى الآن ذلك الكائن القابع فى الظّلمة يشير إلى رأس الصّغير ويستهزئ به.. كيف لم يأخذ بالًا لذلك التّصوّر الخاطئ، بالرّغم من كل تلك العلامات والدّلالات؛ فهو الآن يسرع فى أرجاء بيته ويصدم أنفه فى الباب مرّاتٍ عدّة!

وهو أيضًا الذى احتضن الحائط بدرّاجته «أمّ ثلاث عجلات» وسقط مجروحًا فى رأسه!

ربما لم يحسب الصّغير حسابًا لكلّ شىءٍ فى حياته كما اعتقد.. ربما".

***

"عمّ أحمد".

_"أنا في منتهي الخجل منّك يا مختار يابني.. لكن أنا صبرت شهر بعد وفاة المرحومة السّتّ زينب، وفيه جماعة طيّبين وناس بيلحّوا عليّا وعايزين الشّقّة.. أظنّ إنّه جه الوقت تسلّم الشّقّة، وربّنا هيكتب لك الخير في مكان أحسن بالمشيئة".

تـرك مختـار هاتفـه قريبًـا مـن بابـه وتهـادى إلى مسـامعي حديـث عـمّ أحمـد «الطّيّـب» فضحكـت طويـلًا، تذكّـرت مزحـةً مظلمـةً لرجـلٍ أتعسـته الحيـاة، وحـين وجـد في الأخـير يـد امـرأةٍ تربّـتُ فـوق كتفـه في حنـوّ.. اكتشـف أنّهـا تريـد زرع كُليتـه في جسـدها، تخيّرتـه دونًـا عـن الرّجـال؛ لأنّهـا شـعرت برسـالةٍ قدريّـة تربـط بـين مصيريهـما في الحيـاة، وأوهمهـا التّعـس أنّـه قـد صدّقهـا؛ ليهبهـا بذلـك الكُليـة الصّحيحـة الّتـي أرادت، وهـو يعلـم أنّ كُليتـه الأخـرى معطوبـة!

خـرج الرّجـل مـن غرفـة العمليّـات، ولم يبـقَ بعـد الإفاقـة سـوى سـاعةٍ واحـدة، تواجـه والمـرأة فـوق فراشـين متجاوريـن وأخبرهـا بأنّـه عـرف بمفـاد تلـك الرّسـالة القدريّـة الّتـي أخبرتـه بشـأنها، وهـي: أنّ عليـه الاستسـلام للمـوت؛ فالمـرأة الوحيـدة الّتـي عطفـت عليـه في حياتـه.. «طلعـت حُرمـة بنـت كلـب!».

ثمّ مات.

"لكـن أنـا حابـب أكمّـل يـا عـمّ أحمـد هنـا، يعنـي.. هفضـل ملتـزم بدفـع الإيجـار زي عقـد ماما".

_"كان عـلى عينـي يـا مختـار يـا حبيبـي.. بـس المبلـغ الـلي كانـت السّـتّ الوالـدة بتدفعـه دلوقتـي مابقـاش يجيـب، وانـت عـارف يابنـي الأسـعار بقـت في الطّالـع.. لا حـول ولا قـوّة إلّا بـالله.. النّـاس هيلاقوهـا منـين ولّا منـين بس!".

سـكت مختـار، ورفعـتُ مكـبّر سـمّاعة البلوتـوث، لم يحسـب

الرّجل حساب هذه اللحظات القاسية: «ممكن نكتب عقد بمبلغ جديد؟".
لم يتحرّج الرّجل في سؤاله: «هتدفع كام؟".
_"يعني.. ممكن ألف سبعمية وخمسين.. أو ألفين.. ألفين".
قهقه عمّ أحمد قائلًا: «يا راجل يا طيّب! المنطقة كلّها سودانيّين، قسمًا بالله أقلّ شقّة هنا ما بتسكّن بأقلّ من عشر تلاف".
_"بس أنا مش معايا المبلغ ده، ولا حتّى نصّه".
"يبقى ما بين البايع والشّاري إيه؟".
لم يُجِب مختار؛ فقد عرف الإجابة مثلما عرفتُها: «يفتح الله يابني.. قدّامك كمان يومين عشان المستأجر الجديد جاي يستلم.. يلّا.. فتّك بعافية".

أُغلِق الباب، واقتربت خطوات مختار ثقيلةً ومتباطئة؛ كأنّه لا يريد أن يُزحزح قدميه عن أيّ موضع بشقّة أمّه الرّاحلة، أمسك بهاتفه ونظر إليه.. تلاقت عينانا عبر تلك الشّاشة وكأنّنا نلقي لبعضينا عبرها بنظراتٍ خاويةٍ لا تحمل أيّ معنى، رغم أنّه لم يكن يراني في واقع الأمر.
جلس الرّجل على حافّة فراش أمّه، والتقط صورةً لموضع رقودها الدّائم، ثمّ أتبعها بعبارةٍ قصيرةٍ وعيناه تدمعان في انكسار: «ياريتك معايا يا ماما، أو ياريتني أنا معاكي".

جمع الغريب متعلّقاته الشّخصيّة: أوراقه الثّبوتيّة، ملابسه، أدوات نظافته، هواتفه النّقّالة، وأجرى اتّصالًا بأخته بثينة يخبرها بأنّه سيُخلي الشّقّة لصاحب البيت، وسيحمل عزاله فوق عربة نقل ثقيل؛ كي يبعث بحاجيات أمّه إليها في العيّاط، ولها أن تفعل بها ما تريد. لا يعلم الرّجل كيف يبيع، وأين يبيع، وبكم.. كي يغنم من وراء جهاز المرأة القديم مبلغًا صغيرًا يعينه ولو لأمدٍ قصيرٍ كي يتدبّر أموره في مكانٍ آخر.. سألته البنت: «ماما ماسابتش حاجة خالص يا مختار؟".
_"كلّ دهب ماما اتباع يا بثينة، وحطّت فلوسه في البنك من وقت تعبها في شهادة، اضطرّيت أكسرها السّنة اللي فاتت عشان نصرف بيها على البيت، كلّ الباقي سبعين ألف جنيه، أروح بسّ البنك أسحبهم وأبعت لك نصيبك منهم، وأبعت لسناء نصيبها». ولم يأتِ على ذكر أخيه أكرم، كأنّه لم يكن!

اضطرّ الرّجل لفتح حسابٍ عشوائيٍّ من حساباته الوهميّة عبر فيسبوك، والّتي جمّدها كذلك منذ شهرٍ كامل، وأجرى بحثًا عن مجموعات السّكن المشتركة بالقاهرة، أراد فراشًا وحيدًا ما بين أربعة جُدُر، في أيّ مكانٍ قريبٍ للمعادي أو كوتسيكا، حيث يقبع والداه الرّاحلان في صمتهما الكئيب.
أمّا الحساب الوهميّ فكان باسم أكرم عبد الحيّ نفسه!

قتلني الفضول؛ ماذا فعلت الحياة بهذا الأخ المجهول الشّارد في إحدى بقاع الأرض؟ ألهذا ارتابت الأمّ في رواية ابنها الأصغر ورفضت تصديقه؟ ألم يبعث أكرم الموهوم بالحلم الأمريكيّ منذ صغره برسالة طمأنةٍ واحدةٍ تتحقّق منها الأمّ؛ فتصدّقها وتسكُن بها جراحها الدّامية وتهدأ؟ الأمّ الّتي أكل الشّوق والحرقة قلبها المتعب، إلى أن تحرّرت بالموت من حبسها الدّائم في جسدها المعتلّ، وفوق فراشٍ هي طريحته، وبين جُدُرٍ حزينةٍ تريد أن تنقضّ.

أتى يوم الرّحيل، وأنزل الحمّالون أثاث الشّقّة مثبّتين إيّاه فوق العربة، وظهر من بعيدٍ رجالٌ أفارقةٌ وفدوا في موجاتٍ متتاليةٍ نحو البوّابة الصّغيرة للبيت، هنالك حيث لاقاهم «عمّ أحمد» في توتّرٍ واضح: «مش عايزين قلق هنا يا رجّالة، البيت فيه حريم.. والمنطقة دمّها حامي.. اللي يقعد يقعد بأدبه ومن غير دوشة".

ليجيبه زعيمهم الجنوبيّ: «إنت لك قروشك ال بندفعهم لك يا زول.. ونحن لنا الطّابق ال قاعدين فيهو بقروشنا".

وأمسك برسغه في عنفٍ ليضع في راحته مبلغًا كبيرًا من المال أرغمه على السّكوت. التقط مختار الصّورة للرّجال المحيطين بصاحب البيت، وهو يعلم أنّ اللقاء الّذي وثقت الأمّ في حدوثه بغرفتها لن يحصل أبدًا، ولن يتواجد الأبناء الأربعة مجتمعين في مكانٍ واحدٍ قط،

ناهيك عن الغرفة الّتي سينام بها سبعةٌ من أبناء دولة الجنوب على أقلّ تقديرٍ، بعد أن كانت تنام بها أمّه الرّاحلة.

همس مختار لنفسه في انكسار: «إنتو اللي طلّعتوني من شقّة أمّي.. وعشان فلوسكم اترميت في الشّارع من دون تمن. حسبي الله ونعم الوكيل".

***

-22-

"أنا ما هنت فى وطنى ولا صفّرت أكتافى..
وقفت بوجه ظلّامى يتيمًا عاريًا حافى".

توفيق زياد

أكتم ضحكة متحسّرة فى أعماقى.. هذا أنا مختار عبد الحىّ الرفاعى، أسير بين هذا وذاك؛ فلا يحفل بى إلّا من عرف ظاهرى عن حوّ.. نشأت فلم أجد وطنًا أو أهدافًا أو حتّى عدوًّا يلقى لى بالًا.. كما لم ألوَ من الهوان إلّا ما وضعت على رأسى من دافع التّفيير، وعار العجز أو التّقاعس!

كم حسبتُ الجميع خصومًا لى، ولم أضع لنفسى قدرها من الخصومة.. كان مختار هو عدوّى الأوّل، ومازال هو ذلك العدوّ، وسيبقى حتّى موتى قائمًا بالعداء.. إنّه الكائن القابع فى ظلمة قلبى يضحك مجددًا.. يا لغبائى!

ماذا نسيت من أفكارك عندما تنمّر عليك هذا الفتى وأرغمك على النحيب؟

أنّ عليك تملّك شعورك وتحمّل الضّربات؛ أم أنّ لا فارق بين النّظرية والتطبيق كما اعتقدت دائمًا؛ لم يكن هناك زعيمٌ للأبالسة يعتقد بفير ذلك، ولم يكن هناك ملاكٌ حارسٌ يجزم بأنّ ما غاب عنك فى التطبيق إنّما كان لعدم رسوخ النّظريّة.. كلّ ما كان هناك هو فتىً يظنّ ولا يجزم، يحمله ضعف إرادته إلى التّسليم باحتماليّة خطئه كلّما وصل إلى مفترق طرق؛ فيتراجع عمّا ظنّ بصحّته تلقائيًّا، وها هو ذا الطّريق الذى رفض أن يسلكه يقف فى نهايته رجلٌ متهالكٌ

**بعد أن عاش كما يجب أن يعيش، وعرف المجد كما لم يعرفه أحد، تاركًا خلفه من يحمل مثاليّته إلى العالم؛ كي يخلد اسمه أبد الدهر!**

**وها هو الواقع الذي سيّر فيه بعبث خطواته وإرادته الحرّة، لا مكان للسّعادة فيه إلّا موضع نبتةٍ في قلب الطّود العظيم. كم أراد أن تصبح كوثر في موضع تلك النّبتة، ولكن اجتمعت كلّ ملذّاته فأكلت وشربت من النّبتة، وتركتها ذابلةً ومتجذّرةً في قلبه!**

***

لم تقابل الحبيبة السّابقة مختار على أرض الواقع، ليس بعد عودة العلاقات الفاترة بينهما على أيّة حال. كنت لم أصِرْ بعدُ على درايةٍ كافيةٍ إن كانت فاطمة حبيبةً افتراضيّة شأن الكثير من أوهام الرّجل، أم أنّه قد سبق لكليهما اللقيا ببقعةٍ من بقاع القاهرة المزدحمة، ذلك جانبٌ لم يكشفه لي ما وقع تحت نظري من رسائلهما المتبادلة. وإن كنت قد فهمت أنّ مختار هو من ساعد الفتاة على التّقدّم بطلب التحاقٍ بطبّ قصر العيني، بعد أن حصلت على مجموع ثمانيةٍ وسبعين بالمائة في الشّعبة العلميّة بالثّانويّة اليمنيّة؛ ما لم يمكّنها من التّقدّم لأيٍّ من كلّيّات الطّبّ بالجامعات المحلّيّة باليمن.

أمّا هذا المختار؛ فهو متقلّبٌ بين عملٍ وآخر، لا يكاد يستقرّ. ولا أشعر أنّه قد وصلت طموحاته في التّعليم لأبعد من أن يصير خرّيجًا جامعيًّا ليس إلّا، على عكس

ما قرأت في أوراقه عن نفسه حين أخبر بأنّه كان طالبًا مثاليًّا، محبوبًا من معلّميه.
للرّجل سوابق في الكذب والمخادعة تجعلني أتشكّك حتّى في حديث نفسه لنفسه. ذلك الحديث الّذي يكتبه وهو يعلم أنّه لن يقرأه سواه؛ فهو آلةٌ حيّةٌ من الوهم والادّعاء.
طالت إجراءات المصرف في فكّ التّركة وتقسيمها، ومن ثمّ تجنيب نصيب الأخ الغائب في بلاد الله، الآن يحدّثني مختار لكي أقابله وهو مقيمٌ بفراشٍ في غرفةٍ واحدةٍ يتشاركها مع اثنين من طلّبة الأقاليم المغتربين في القاهرة، أراد منّي خدمةً عاجلةً مثلما قال، ودون أن يوضح الرّجل تجاسر بعد انتظارٍ لطلب ملاقاتي صراحةً: «لو تقابلني بس يا محمّد، وأنا هشرح لك كلّ حاجة".
واستجبت لطلبه كما أراد.
انتظرت بمقهيً شعبيٍّ اعتدت ارتياده في الملك الصّالح حسب الموعد المحدّد، أخرجت سيجارةً من علبة كينت، وألقيت بها على طاولتي، ثمّ أشعلتها في شيءٍ من التّوتّر، ووضعت لابي الشّخصيّ لمتابعة بعض أمور العمل العالقة، ريثما يظهر الغريب..
"باشمهندس محمّد؟".
أغلقت شاشة اللاب وانتبهت ليدٍ استقرّت فوق كتفي، التفتّ لأجد الكهل الخمسينيّ المنتظر في محطّة المترو، وقد صغر عشرة أعوامٍ كاملة، وبدا أقرب ما يكون

لعمره الحقيقيّ. يقف إلى جواري كشابٍّ نحيل الجسد في نهاية الثّلاثينيّات، حليق الذّقن معقوف الأنف، وفي عينيه مسحةٌ من الحزن، يبتسم لي في لطفٍ بالغٍ، وتمتدّ إليّ يده في مصافحةٍ ودود.

هو أحد أولئك الأشخاص الّذين يكبرون أعوامًا من الهمّ مثلما يُقال؛ فيوحي مظهرهم دائمًا بسنٍّ تكبر عن سنّهم الحقيقيّة، وعلى نحوٍ أكثر غرابةً، لم أُفاجَأ بمثله في غيره من الأشخاص، وعلى تلك الدّرجة من التّطرّف والخروج عن المألوف.

"إزّيك؟ مختار؟".

أومأ الرّجل في هدوءٍ، وأشرت له بالجلوس.

"اتفضّل.. تشرب إيه؟".

_"كوبّاية شاي إذا تكرّمت".

لم يمتنع الرّجل عن الإفصاح فورًا عن رغبته بتناول مشروبٍ ساخنٍ في تأدّبٍ شديد، وبعكس التّحفّظ المعتاد في غيره ممّن يحلّون ضيفًا على الغرباء؛ فقد دأب على الاقتصاد في مأكله ومشربه طيلة مبيته في السّكن المشترك.. هكذا لاحظت، وتأكّدت اليوم بنفسي؛ وقد بدت تلك فرصةً لن تُعَوَّض لرجلٍ خرق خطّ الفقر خاصرته حتّى أدماه.

أُنزِل المشروبان، وأمسك مختار بكوبه بكلتا يديه لينفخ فيه كقطٍّ عطِش، وبعد دقائق من الاستحياء والتّعليقات العامّة على هامش لقاءنا سألتُه: «ها.. أقدر أفيدك

بإيه؟".
_"أنا فتحت حسابي المتجمّد فترة صغيّرة عشان أدوّر على مسكن جديد، يعني.. والحمد لله لاقيته.. ظروفي الفترة دي ملخبطة شويّة، والشّركة اللي كنت فيها قافلة من شهور ومسرّحة كلّ موظّفينها، ومن ساعتها وأنا خالي شغل وبدوّر. بس المهمّ.. أنا سمحت لنفسي أقلّب في صفحتك، وعرفت إنّك بقيت زيّ مدير في مكانك أو ماسك يعني تحت إيدك مصلحة بتديرها".
أومأت؛ فاطمأنّ مختار وتابع: «كنت عايز _لو عندك إمكانيّة تساعدني_ تجيب لي شغلانة بأيّ مرتّب".
أسندتُ ظهري إلى الكرسيّ مفكّرًا، ثمّ صارحته: «بس احنا قطاع تكنولوجي، والسّلك الإداري البحت ده ماليش فيه سكّة، كلّ الشّغّالين مباشر معانا واللي أنا أقدر أزقّ حدّ وسطهم يا إمّا مهندسين، يا فنّيّين، يا سوّاقين على عربيّات".
وضع مختار الكوب على المنضدة الصّغيرة من أمامه، وقال: «أنا مش بعرف أسوق.. عمر ما كان معايا عربيّة".
بدا أنّ الرّجل صار عاريًا من كلّ أكاذيبه؛ حدّ أنّه لا يواري وجهه مخافة أن أكتشف رؤيتي السّابقة له، لا يريد مختار سوى أن يقيم ظهره ثانيةً بعملٍ شريف، هكذا أدركت وأنا أتأمّل قسماته وردود أفعاله الّتي ارتسم عليها حرصٌ على نيل فرصةٍ أخيرة، أعلم أنّه سيبذلُ

مـن أجلهـا قصـارى جهـده؛ كـي لا تضيـع مـن بـين يديـه.
"طـب الفنّـي ده بيحتـاج يبقـى دارس مثـلًا معهـد فنّـي صناعـي أو دبلـوم متخصّـص؟ أو معهـد إشـارة ولاسـلكي وكـده؟".
ابتسـمت وهـززت رأسي نافيًـا: «لا يـا مختـار.. هـو بياخـد تدريـب في الشّركـة وشـوية كورسـات تأهّلـه للشّـغل.. وبيعمـل فحـص في مـكان معتمـد يثبـت إنّـه لائـق طبّيًّـا، مش أكـتر".
تعـرّق جبـين مختـار وسـقطت عنـه قطـرةٌ نديّـةٌ وهـو يضـع راحتـه فـوق صـدره، أومـأ ولم يعقّـب؛ فسـألتُه: «آمـين الـكلام ده بالنّسـبة لـك؟".
دسّ الغريـب وجهـه في كوبـه السّـاخن، ورشـف منـه مـا اسـتطاع، ثـمّ نظـر إليّ قائـلًا: «إن شـاء الله أتقبـل".
زفـرت: «إنـوي انـت بـس ومايكونـش عنـدك فكـر.. سـؤال بقـى يـا صديقـي العزيـز: مـش شـايف إنّهـا بعيـدة شـويّة عن مجـال دراسـتك؟ يعنـي أكيـد لـو متوفّـر شـغل محاسـبة ليـك يكـون أفضـل".
أومـأ مختـار، وأغمـض عينيـه: «تصـدّق وتآمـن بمـين يـا هندسـة؟".
همسـت بشـهادة التّوحيـد؛ فتابـع: «أنـا كنـت هدخـل هندسـة بـردو بعـد ثانويّـة عامّـة.. وبابـا أصـلًا أصـلًا.. كان مهنـدس".
ابتسـم مختـار في لطـفٍ يخفـي بـه حزنًـا عميقًـا: «فرقـت معايا

عـلى نـصّ في الميّـة.. جبـت اتنـين وتسـعين في الميّة".
أفلـت مختـار ضحكـة حزينـة: «دخلـت الامتحانـات وبابـا الله يرحمـه متـوفّي قبلهـا بأيّـام قليلـة".
_"البقاء لله".
"ونعـم بـالله يـا محمّـد.. حالتـي النّفسـيّة سـاءت، وأخويـا الكبـير أكـرم _بعـد مـا الـكلّ اتّفقـوا يدخّلـوني هندسـة خـاصّ_ أصرّ يصفّـي نصيبـه مـن بيـت بابـا الـلي كان كلّ الـلي باقـي لنـا منّـه بعـد وفاتـه، بابـا مـات صغـيّر.. مـش كبـير أوي، جـت لـه جلطـة في القلـب.. العيلـة عندنـا ليهـا تاريـخ مـرضي مـع الجلطـات.. ماما كـمان الله يرحمهـا".
توقّـف الرّجـل ودمعـةٌ عزيـزةٌ تترقـرق في جفنـه، لم أعقّـب.. ظللـت أنظـر إليـه في هـدوءٍ وهـو يسـتكمل حكايتـه بعيـدًا عـن ذكـر أمّـه الّـذي تجنّبـه: «أكـرم كان حابـب يسـافر برّه مـصر.. يطلـع عـلى أمريـكا، ومنهـا يتجـوّز ويحقّـق أحلامـه هنـاك. لمّـا إخـواتي البنـات شـافوا إصراره عـلى التّقسـيم، حكّمـوا رأيهـم يبيعـوا البيـت. ماما ماقدرتـش تقـف قصـاد التّلاتـة، أختـي الكبـيرة خالـص كانـت لسـه متجـوّزة جديد. وجوزهـا كان بيخبّـط يمـين وشـمال عشـان يدفـع فلـوس تأشـيرة يسـافر بيهـا دولـة مـن دول الخليـج «بحـث عـن شـغل». لحـدّ مـا ربّنـا كرمـه بعقـد عمـل في البحريـن. كان محتـاج الفلـوس في البدايـة؛ فأختـي الأولى ركبـت دماغهـا.. والتّانيـة بقـى شـبطت في ديلهـا عشـان كانـت داخلـة عـلى جـواز، وجهـاز.. وبلاسـتيك وإزاز".

ضحك مختار وحده على مزحةٍ أطلقها في مرارة؛ ليكسر بها جدّيّة تجربته، دون أن ينتبه أنّني لم أشاركه الضحك، ثمّ أكمل: «الباقي اللي هو تلت المبلغ _عشان ماما شالت نفسها من الحسبة_ وصلني.. ما كانش قدّامي غير إنّي أحطّه في شهادة في البنك تطلّع قرشين يسندونا مع المعاش بتاع بابا.. ماما ستّ بيت وعمرها ما اشتغلت في مكان، كان صعب عليّا أقول لها تخبّط أو تشتغل.. وأنا الشّنب خاطط في وشّي".

ذمّ مختار شفتيه وتناسى تناول باقي مشروبه ساخنًا، هزّ رأسه في أسىً: «اتنين وتسعين في الميّة وماعرفتش أدخل الكلّيّة اللي كان نفسي فيها يا محمّد.. وناس تانية بتخشّ طبّ حكومي بخمسة وسبعين في الميّة".

لم أُعقّب، وأنا أعلم أنّه يرمي لقصد حبيبته الأجنبيّة الّتي صارت تنظر له نظرةً فوقيّة؛ بدعوى أنّها الآن تتمتّع بمكانةٍ علميّةٍ لن يتمتّع بها يومًا.. أردت منه أن يُفرِغ كلّ ما في جوفه؛ فلهذا السّبب بالتّحديد كان يبحث عن حكاياتٍ وهميّة، تقرّبه من لقائي أو لقاء غيري من الأصدقاء الافتراضيّين، والشّكوى لهم بشأن حاله وأيّامه، أراد الحديث، أراده رغم تهرّبه الدّائم، المدفوع بخوفه من ماضيه المزيّف ومن تلك الأكاذيب ذاتها.

احتاج الأمر لفقدٍ عظيم مثل فقد أمّه؛ ليدرك أنّ كلّ الأثمان المدفوعة لقاء أذنٍ تنصت لمأساته المضنية هي أثمانٌ رخيصة، وأنّ كلفتها لا توازي في الحقيقة نفعها

النّفسيّ، حين يزيح ذلك الحجر الجاثم فوق صدره.
"كان ممكن وقتها أدخل حاسبات.. بس إحساس الخيانة اللي حسّيته من ناس قريبة من قلبي وجعني.. خلّاني مش عايز أنجّح تجربتي، لا في الدّراسة.. ولا في الحياة نفسها".
أخرج مختار منديله ومسح عينيه. أدركت أنّني أجالس طفلًا في هذه اللحظات. طفلًا لم يزلْ يحمل عقدةً قديمةً تعود لسنوات النّشأة والصّبا، وسلسلةً من المظلوميّات صنعها والداه وإخوته الكبار.
"أنا آسف.. دوشتك معايا يا هندسة".
ـ "إيه اللي غيّر ده؟".
عقّد مختار حاجبيه مستفسرًا: «غيّر إيه؟".
أجبته في برود: «ليه عايز تنجح دلوقتي؟ إيه اتغيّر؟".
ضحك الرّجل من جانب فمه وقال: «مفيش حاجة اتغيّرت.. بس ماعنديش اختيار تاني.. العَوَز وحش".

***

"إنّه العقل الذى حوّل أبسط الأشياء إلى سحرٍ حىٍّ يجمع كلمات الأغانى الغربية، والألحان المتداخلة، ويمزجها بأصواتٍ من الماضى لأشخاصٍ جهلتهم ، وصورٍ نسيتها، وأمكنةٍ مألوفةٍ من زمانٍ سحيقٍ لم أعد أذكرها..

إنّه العالم القديم الذى لم يطّلع عليه أحد، كامنٌ فى أعمق الأغوار داخلى، لا يمكننى كشف أمرٍ منه إلّا ما عرض علىّ من صفحاته المسطّرة بلغةٍ عجيبة؛ فلا أدرك إلّا لفظين أو صورتين، أو شعورًا بالانجراف إلى تيارٍ باردٍ يغمرنى بحنينٍ وصقيع، ورغبةٍ فى الهروب من العالم!

وذلك اليوم الذى لعبت فيه مع هؤلاء البلهاء؛ فقيّدونى بأيديهم، ووضعوا عصابةً فوق عينىّ، وقادونى إلى مكانٍ آخر فى البلدة ثمّ هرولوا مبتعدين. أزلت العصابة ونظرت حولى.. كنت وحيدًا.. وفى ذلك المكان الآخر شعرت بالخوف، وانتقلت عيناى من الحوائط المتشقّقة إلى البهائم والأغنام، ثمّ مازجنى شعورٌ بعدم الاعتياديّة والرّغبة فى الرّجوع؛ «إنّهم يعلمون ما لم أعلم وهم فى مثل عمرى أو يقلّون!». جريت فى الأنحاء أنادى أسماءهم، وأسبّهم واحدًا واحدًا؛ فإذا بضحكاتهم تتعالى من بعيد، وأصداء أصواتهم تصلنى: «لست على قدر اللعب!"

***

"من كراديس".

_"وفين دي لا مؤاخذة؟".

"مركز دِيَرْب نجم.. شرقيّة، عرفتها كده؟".
أخبرت منسّق المشروع الّذي أصبحت تجمعني به علاقةٌ وثيقةٌ منذ مواجهتي مع الفنّيّين بمقرّ الشّركة، بتفاصيل ذلك «الصّديق» الّذي يبحث عن فرصة عمل؛ فضحك ملء فيه.
"في العادة يا محمّد بنفضّل نجيب فنّي خبرة، أو شابّ سنّه صغيّر يقدر يستقبل معلومة ويحتفظ بيها.. تعليم النّاس الكبيرة دي بيبقى صعب.. كإنّك بتحرت في ميّة.. وتقريبًا بيبقوا شبه فاقدين لَمَلَكِة اكتساب المهارة بعد سنّ معيّن، وده بناءًا على تجربة شخصيّة. ماتنساش كمان إنّ اللي انت جايبه ده دفعة ألفين وسبعة، وماسبقش ليه حتّى الشّغل في المجال!".
أعطيت رامي سيجارة وقدّاحة، وابتسمت: «يا راجل كبّر مخّك.. إحنا عندنا جدود جدوده في المجال، وخبرة بالعشرين وخمسة وعشرين سنة، وبردو لسّه كواحيل، تعرف اللي بيسألني شغّال فين وأوّل ما يعرف يضرب كفّ بكفّ ويقول لي شبكتنا وحشة، بقول له إيه؟".
_"إيه؟".
"إحنا أصلًا مابنعيّنش كفاءات، يقول لي طب وانت؟ أقول له أنا أكبر دليل إنّها ماشية غلط".
وانفجرنا ضاحكين في ضباب منطقة التّدخين بالشّركة.
وافق الرّجل بشكلٍ مبدأيٍّ على وساطتي لتعيين مختار، ورغم أنّ الأخير قد ابتعد عن المشروع الّذي أُشرِفُ

عليه؛ إلّا أنّني سأحتكّ بمديريه بصورةٍ أو بأخرى؛ فالمجال كما هو شائعٌ على ألسنة المشتغلين به: «أوضة وصالة». لاشكّ أنّك ستُفاجأ طيلة مسيرتك المهنيّة بوجوهٍ قابلتها يومًا بمشروعٍ ما، بمهمّةٍ أدّيتموها سويًّا لصالح أحد المموّلين، لعميلٍ خطير الأهمّية انقلبت الدّنيا ولم تقعدْ على إثر عطلٍ أصاب شبكة الهواتف الجوّالة في منطقته الرّاقية؛ فإذا بك تصادف صديقًا قديمًا ضمن فرق العمل المرسلة تباعًا في مهمّة إنقاذٍ عاجلة لإسعافه. النّاس في مجتمعاتهم «بعضهم فوق بعضٍ درجات»، وأرباب الشّكاوى في مجتمع الأعمال درجاتٌ كذلك.

استشعرتُ وجود دافعٍ خفيٍّ خلاف لقمة العيش وراء بحث مختار المفاجئ عن عملٍ جديد، حافزٍ مستترٍ يحثّه أن يصبح رجُلًا ذا حياةٍ، بعد أن كان بوهيميًّا شاردًا. فتلك المرأة الأجنبيّة السّمراء الّتي تخرّجت حديثًا من طبّ القاهرة، لن تقبل إلّا برجلٍ يملك حياةً حقيقيّة، وهي تقضي الآن فترة تدريبها العمليّ بأحد المعاهد الحكوميّة المتخصّصة، كطبيبة امتيازٍ باطنيّةٌ مثلما قيل.. تخرّجت من كلّيّتها في سبع سنواتٍ مريرةٍ تسبق الامتياز، احتدّت خلالها طباعها القاسية. كم شكت المرأة من صعوبة الإنجليزيّة المستخدمة في الجامعة، شأنها شأن مثيلاتها القادمات من مناطق الحرب، حيث لا يتوفّر قدرٌ أدنى من التّعليم الجيّد يكافئ الفرصة الخياليّة لدخول كليّة قمّة بجامعةٍ مصريّة، وبتنسيقاتٍ متدنّيةٍ للغاية.

وهـؤلاء زملاؤهـا وزميلاتهـا مـن المصريّـين عـلى الجانـب الآخـر، وقـد عـبروا عنـق الزّجاجـة الخانقـة بعـد معركـة مـوتٍ حقيقيّـةٍ وطحـنٍ للعظـام؛ لينتزعـوا اسـتحقاق دخـول تلـك الكلّيّـة المرموقـة. يسـتطيع الجامعـيّ متوسّـط المسـتوى منهـم أن يمـلأ كتابًـا مـن العبـارات الإنجليزيّـة دون توقّـف، وبأخطـاءٍ إملائيّـة لا تـكاد تُذكـر. بينـما الفتـاة تتعثّـر مـرّاتٍ عـدّة، وتراقـب زملاءهـا وزميلاتهـا مـن صفـوة الصّفـوة ـ كـما ينعتهـم الأسـاتذة في السّـنة الإعداديّـة ـ يمضـون قُدُمًـا دون صعوبـةٍ تُذكَـر بالمقارنـة؛ فيتولّـد لديهـا إحسـاسٌ بالخيبـة والنّقيصـة، لا يعوّضـه سـوى التّسـاهل والاحتـواء مـن كبـار الأسـاتذة بالجامعـة مـع الطّـلّاب الوافديـن، والحفـاوة البالغة وغـير المتوقّعـة مـن زميلاتهـا المصريّـات والّتـي يلاقونهـا بهـا كـما ذَكَـرَتْ في إحـدى المحادثـات، أولئـك الـلاتي أحببنهـا أكثـر مـن بنـات موطنهـا، وقرّبنهـا إليهـنّ في ترحـاب.

تدخـل فاطمـة أحـد فصـول الكلّيّـة المكتظّـة بيمنيّـين وسـودانيّين وشـوام؛ فتبتسـم لهـا المعيـدة المصريّـة ابتسـامة واسـعة سـائلةً إيّاهـا: «وانتـي بقـى منـين يـا جميلـة؟». لتجيبهـا: «تعـز.. اليمـن». ولّـما يبـدو عـلى وجـه محدّثتهـا ملامـح الدّهشـة، تعلّـل: «ماما مـن الصّومـال الكبـير». لا أسـتطيع أن أصـف مختـار بالقـرويّ السّـاذج لاعتقـاده أنّ الشّـابّة الغريبـة، سـتقبل بوجـود ربـاطٍ بينهـما فيـما هـو قـادمٌ مـن أيّـام؛ فقبـل كلّ شيء هـو مـن سـاعدها عـلى الالتحـاق بالجامعـة، وكان مـن الطّبيعـيّ أن تظـلّ تلـك اليـدُ

البيضاء الممتدّة بالفضل موضع تقديرٍ من الفتاة، حتّى وإن اختلفت دراستهما. ولكم أبدت فاطمة امتنانها له بالفعل، عبر رسائل قديمة زامنت أوج حبّهما الافتراضيّ، هو من أخبرها بكلّ الأوراق المطلوبة، بالصّيغة اللائقة لمراسلة الجامعة في مصر، بنبأ قبولها، حلّقت الفتاة الّتي ستصبح فيما بعد طبيبة عاملة في المهجر في سماواتٍ من البِشْر والسّرور؛ وقد أصبحت على أعتاب حلم ظنّته مستحيلًا، أخبرت حبيبها في لهجةٍ صادقة إثر انتشائها: «بحبّك يا أخّ وربّي".

حين ساءت طباعها ظلّ إلى جوارها، تقبّل صدّها الدّئم له، ورفضها لقاء أمّه عبر رسالةٍ صوتيّة: «لا.. مش بقابلك، وبأيّ صفة أقابل والدتك. ات خطيبي؟ ات زوجي؟ ات فاكر إنّي ما دمت بعيدة عن أهلي ألاقي رجل غريب؟ لمّا تتقدّم لأبوي باليمن، وقته أكون لك، لكن قبله مش مسموح".

لكنّ سذاجته الحقيقيّة برزت لي، وهو يدمع لقراءة رسائلها؛ لقد أخذ عهدًا على نفسه بالوفاء غير المشروط، ووقع عهده في ذلك على من لا تستحق! تكشّفت الحقائق لمختار، غير أنّه على صمته، قد صدم فاطمة ذات مرّة بكلمةٍ نادرة لم يعهد التّلفّظ أمامها بمثلها: وهي أنّه يعي السّبب الحقيقيّ لرفضها الزّواج منه: «أها..؟".

_"دخلتي الكلّية اللي كان نفسك تخشّيها، وبكرة

تتخرّجي إن شاء الله. مش ممكن ترتبطي بحدّ شايفاه أقلّ منك علميًّا أو أدبيًّا.. بالرّغم من إنّي إتش آر في شركة.. وشركة محترمة الحمد لله".

"أها.. جدّ وربّي؟".

_"جدّ وربّي".

"وات فاكر إنّه لأنّي من اليمن السّعيد فأنا كنت بجري ورا العنزات في الخلا بوطني، وإنّي مش مفروض تكون لي طموحات في زوج تكون له مكانة علميّة مناسبة لي؟ أنا مش أقلّ من أيّ مصريّة بتدرس في قصر العيني، وقادرة أمشي بالتّعليم، وراسي براس أيّ زميلة لي، بل وأفوقه.. وزي ما المصريّة الطّبيبة بتتزوّج طبيب أو مهندس أقل شيء؛ فأنا لي إنّي أتزوّج طبيب، وعندنا زملائي اليمنيّين معي، والأفارقة اللي بيشبهوني، ومنهم سنّهم أكبر مني بقليل. أطبّاء.. وعايشين بمصر، ومستقبلهم كبير ما شاء الله. بالمناسبة يا مختار، أنا بالفعل عندي اختيار أتزوّج حدّ يتناسب معي علميًّا زي ما بتقول، لكن ماكانش عندي ميل لهكّه، وقبلت بك بسّ لإنّي كنت أحبّك. رغم الفارق في التّعليم بيننا. وأنا بالفعل ندمانة يا أخي.. جدّ ندمانة".

وكدت أسمعه يصرخ في داخله وهو يسألها إحدى المرّات: «قولي لي ليه إنتي دخلتي طب، وأنا مادخلتش هندسة يا دكتورة!".

ملاحظةٌ صوتيّة هادئةٌ منه كانت كفيلةً بكشف ما

فكّر فيه الغريب؛ غير أنّها غيّرت من محور حديثه عن قصدٍ، وبَعَثَتْ برسالةٍ لائمةٍ بصوتها الخفيض قائلة: «لإنّك وقفت جنبي، وكنت أتوقّعك تبقى واقف جنبي لكن من دون منّ يا مختار.. أو أذى".
ليجيبها: «تمام".

***

**"تشكو الكلاب ثانيةً ودمعك يختنق.. تعصر عينيك كي تسقط قطرةٌ من جسدك المتألّم لا من قلبك الممزّق. لم يكن هنالك الكلاب لينهشوا كبدك، وإنما كنت أنت من انتزعه من بين جنبيك، عندما أردت مشاغلة «كوثر»، وكنت تعلم أنّك لا تلبي طموحاتها كفتاةٍ لعوب؛ لا زال لديك هذا الخوف الصميد أن تظهر بعكس ما يظن الآخرون، وعندما ظهرت لك البداية أعرضت عنها بدافع الأدب، وصرت من بعدها تشكو قلبها المتحجّر أنّه لم يترك لك فرصة الحب.. واجه نفسك يا غبيّ: فلم يكن هذا هو الحبّ الذي رجوته، بل لم يكن الحب هو ما رجوت.. اللعنة!".**

***

تلك بعضٌ من حكايات مختار الّتي قصّها عليّ بلسانه، ليست روايةً أنقلها عن أحدهم، وليست خيوطًا مبعثرةً جمعتها من حياته عبر أعين المراقبة الصّناعيّة. حين قرأت عن ميلاد الرّجل بالقاهرة عبر فيسبوك حسبت أنّه قاهريّ الأب والأمّ. غير أنّه لم يكن كذلك. وُلد ذلك الغريب في قريةٍ صغيرةٍ تُدعى كراديس بالشّرقيّة، هنالك قضى أغلب فترات طفولته، بين إخوته وأقرانه.. حتّى فرضت ظروف عمل الأب انتقال الأسرة إلى مسكنٍ متواضع بإحدى المناطق الشّعبيّة المجاورة للمعادي: إحدى تلك «الخُنن المحندقة» الّتي حدّثني عنها سائق المعصرة الصّعيديّ في عملي الأوّل، كان أكرم كمن أبهرته

أضـواء المدينـة حتّـى لم تعـد أضـواء المدينـة كافيـةً لإبهـاره، أحـبّ القاهـرة بصـدقٍ إلى أن ضـاق منهـا؛ فتطلّعـت عينـاه إلى مـا هـو أبعـد بكثـير، حُلـم بعيـدٍ لم يكـد يصـل إليـه ويحيـا بـه لأشـهرٍ قلائـل حتّـى انقطعـت أخبـاره، يظـنّ مختـار أنّـه قـد أصابتـه اللوثـة، غـير أن أختيـه لم تـزالا قانعتـين بـأنّ أخاهمـا الأكـبر لم يكـن عـلى قـدرٍ مـن خفّـة العقـل تنتهـي بـه إلى الجنـون في نهايـة المطـاف، كـما يعتقـد مختـار. لا بـدّ أنّ حادثًـا أسـيفًا قـد وقـع لهـذا الشّـابّ الطّمـوح، غيّبـه للأبـد عـن أهلـه أو ألجـأه لصمـتٍ طويـلٍ؛ كـي لا يعـترف لإخوتـه وأمّـه بأنّـه فشـل في غربتـه، ولم يحقّـق نجاحًـا سـهلًا ظنّـه أكيـدًا لفتـىً ألمعـيٍّ في منظومـة عمـلٍ تعـترف بالجهـد وتقـدّر الأكفـاء. أو ربّـما أنّـه قـرّر أن يقطـع كلّ مـا كان يذكّـره بأيّـام الشّـقاء، ووحشـته عـلى وجـه التّحديـد بـين أهلـه، حـين شـعر بأُلفـة امـرأةٍ تحبّـه وتحيطـه بذراعيهـا الحانيتـين في بـلاد «الخواجـات».

واسـتنتجتُ أنّ لهـذا السّـبب تحديـدًا اختلـق مختـار حسـابًا باسـم أكـرم عبـد الحـيّ لم يكـن ضمـن حسـابات أصدقائـه المخترعـين، بـل هـو الحسـاب الأوّل عـلى الإطـلاق، وبعـث منـه بـأولى رسـائله الوهميّـة حـين أخبرتـه الأمّ: «قلبـي واكلنـي عـلى أخـوك يـا مختـار.. مفيـش حاجـة وصلـت منّـه».

دخلـت الأمّ في أزمـةٍ نفسـيّةٍ طاحنـة، ولم تعـد تحتمـل أن مضـت سـنواتٌ عـلى رحيـل بكريّهـا وهـي محتسـبةٌ أجـر

الصّبر ومتكبّدةٌ لمشاقّه القاتلة. «هات لي أكرم يا مختار.. هاته يا مختار".

عمد مختار لتنفير المرأة من أكرم، حين لم تصله أيّة إخباريّةٍ وافيةٍ عنه من الخارجيّة المصريّة، تلك الّتي خاطبت السّفارة بواشنطن والّتي خاطبت بدورها القنصليّات المصريّة في جميع الولايات، فلم يُستدل على وجوده. ادّعى أنّه حمل إليها رسالةً عنيفة أوصلها الرّجل عبر هاتفه، وتكتّم عليها مختار كي لا يجرح شعور أمّه: «حسّكم عينكم حد يكلّمني من هنا ورايح أو يسألني عن حاجة في حياتي. دي حياتي، وأنا لوحدي اللي تفرق معايا مش أي حدّ منكم".

"هو ده اللي انتي خايفة عليه يا ماما!». غير أنّ الأمّ لم تقنع بهذا قط، ورمت مختار للمرّة الوحيدة في حياتهما بتهمة الكذب.

"عزيزي السّيّد إم. إيه. الرفاعي،

ربّما تسلّل أكرم عبر طريقٍ غير شرعيّ لدولة من دول أمريكا الوسطى أو الجنوبيّة من خلال تكساس المتاخمة للحدود شمال المكسيك، ربّما ضلع في نشاطٍ إجراميٍّ مرّجح إثر شهاداتٍ برؤيته في أنحاءٍ تكثر بها عصابات «الهيسبانيش» اللاتينيّة.. ربّما اختُطف.. ربّما قُتل.. وربّما تواجد عن طريق الصّدفة ليس إلّا حيث يتواجدون. لا توجد معلومةٌ مؤكّدةٌ إلى الآن. لكنّ الأكيد أنّ على أحبّائه الدّعاء للرّبّ كي يُفيق من غفلته إن كان حيًّا، أو

أن يرقد في سلام إن كان غير هذا.. سأوافيك بأخباره، إن وصل إليّ أيٌّ منهما.
مع الحب..
ميتش رولاند"
ذلك آخر نبأٍ صادقٍ بعث به «ميتش» الّذي عمل مع أكرم بإحدى محطّات الطّاقة بالولاية الجنوبيّة، قبل أن يصمت هو الآخر للأبد، وتغيب عن ناظريْ مختار رسائله.
"أنا بخير يا ماما.. الفترة اللي فاتت كانت صعبة عليّا ودنيتي ملخبطة، آسف إنّي كنت صعب معاكم ومع مختار تحديدًا.. دي صورتي يا ماما.. ماتقلقيش عليّا.. أنا طلعت واتغرّبت.. لازم أحقّق نفسي قبل ما أرجع لكم. إدعي لي".
وظهرت صورةٌ لم يسبق للأمّ بالفعل رؤيتها، قبّلت شاشة الحاسوب ودمعت.. بل احتضنته وظلّت تبكي!
ولم يكن المرسل حينها سوى مختار عبد الحيّ الرّفاعي، ذلك الّذي دار على صحبة أخيه؛ ليحمل جميع صوره النّادرة الّتي لم تعلم الأمّ بوجودها من قبل، ويتخيّر منها ما سيُخيَّل إليها أنّها جديدةٌ وملتقطةٌ له في الولايات.
لم يتمكّن الفتى مختار، وربّما لنقيصةٍ فيه من التّأقلم مع القاهريّين في إطار رؤية محيطه الجديد له أنّه «فلّاحٌ شرقاويّ»، لم يزل يصف الطّريق الدّائريّ بوصف «الزّراعيّة»، كدأب فلّاحي قريته حين يصفون الطّرق

الممتدّة لجوار ترعةٍ أو ريّاحٍ أو مجرى ريّ، وربّما أنّه فقط لم يستوعبْ جانبًا به الكثيرَ من الصّلف في مزاح أقرانه القاهريّين وهم يعلّقون: «إنت بتقول بابا زيّنا عادي؟ هي «بابا» قصّرت معاك في حاجة!».

يهجر أهل الأقاليم دائمًا قراهم ويتّجهون نحو القاهرة، حتّى أصبح جُلّ أهلها المقيمين من المغتربين الّذين زحفوا خلف لقمة العيش، لماذا مختار بالتّحديد من أعجزه البقاء بينهم إلى هذا الحدّ! إنّهم فلّاحون كذلك ولا ضير في هذا، حتّى وإن اختبأت كلاسينهم الدّافئة تحت بزّة سهرةٍ أو بنطال «ديرتي»، كشأن تقاليع أهل القرى والمدينة على حدٍّ سواء؛ لهذه الحيثيّة بالتّحديد لم يقنع الأب أنّ الفتى يلاقي صورةً من صور التّنمّر في محيطه الجديد، تنمّرٍ لم يعهد رؤيته في كراديس.

"ولو كان.. فتّح مخّك يابني للدّنيا. ماتخيبش زيّ أبوك ما خاب. انت كويّس يا مختار.. بسّ خايب. ولو ألّسوا عليك. اسكت وصلّح من نفسك. اجبرهم يحترموك بإنجازك، ولّما تعمل اللي ما يقدروش يعملوه، هيجوا لك وهيسعوا همّا لصحبتك.. ده الكلام.. مش تقول لي: احنا هنا ليه وهما هناك ليه!".

غير أنّ الفتى ظلّ على قناعةٍ أنّه لا يحتاج لأن يبرهن على عبقريّةٍ استثنائيّةٍ وذكاءٍ فذّ؛ كي يحظى بحقٍّ مكتسب بالضّرورة، وبتعاملٍ يحظى به ابن المدينة بالميلاد والنّشأة وإن كان «جِلفًا".

لم يعِ مختار مثلما أخبرني في إحدى مكالماتنا الأسبوعيّة كيفَ لمجتمع أصبح مفتوحًا للغرباء حدّ التّميّع أن يكون طاردًا لرجلٍ من نسجه ووعائه، مثلما طردته القاهرة قديمًا من قلبها وطرده قاطنوها. يتهدّج صوته ويبعد الهاتف عنه قليلًا، وأراه عبر شاشة لابي في نفس سكتته القصيرة وهو يضع راحة يده فوق صدره متأثّرًا بالذّكرى السّيّئة، وذقنه تهتزّ من أنفاسه المضطربة.
لا يحدّثني إلّا عندما يخلو المسكن من شركائه الغائبين؛ كي يفضي إليّ بشيء ممّا في نفسه: «عندك شويّة وقت فاضي أكلّمك يا هندسة؟".
وأستمع إليه غير حافلٍ به، غير أنّه أبدًا لا يتوقّف.

***

"إنّها أصوات الأحذية وهي تزحف وتلعو الأسفلت، ومن حولها تتعالى الضّحكات، وفتيةٌ على ناصية الشّارع يتعاركون كالثيران ويهزلون، بينما تنظر الفتيات في امتعاض مصطنع إلى الشّجار البهائميّ والأردية الضّيّقة الخانقة للعضلات، وذلك الخيال الضّخم يحجب بقعة الضوء أمامي، ويقترب الفتى كاشفًا عن كفٍّ عريضة: «لا حول ولا قوّة إلّا بالله!". كنت أعلم جيّدًا أنّ عقل عائلة «بطّيشة» لا يختلف كثيرًا عن أجسادهم؛ فهو سميكٌ ومتخمٌ بالهراء والتّوافه، غير أنّ لذّتي للثّرثرة بكلام متكلّف كانت دائمًا ما تدفعني لإيجاد أذنين بحجم أذني «السّعيد»؛ كي أبصو فيهما حصيلة سنوات القراءة.. وهو بالتّأكيد لن يجادلني حتّى يظهر لي أنّه متفتّحٌ كفاية، ولديه من الذّكاء ما يؤهّله لاستيعاب مصطلحاتي المعقّدة..

"يا سهرانين في القمر ليل الغريب ضلمة..
يا عيني يا ليلى.. ولا قنديل ولا نجمة"

نجيب سرور

يسارع «السّعيد» بفتح موضوعٍ أو إثارة مشكلة؛ كي لا أسترسل في تلاوة الشّعر؛ فكم يصعب على تلك الكتلة من الفراغ أن تستوعب حديثًا طويلًا عن أمرٍ لم تفقه عنه شيئًا من قبل، وخاصّةً أنّني بارعٌ عندما أتّخذ الشّعر وسيلةً للادّعاء الاكتئاب، ومن يعرفني في تلك اللّحظات تحرّكه غريزته؛ كي يبقى فمي مغلقًا، لا ينطق إلّا في حدود الرّدود التي تصدر

*منّى مقتضبةً في غضبٍ واضحٍ جرّاء مقاطعة حديثي..*
*"أنت تذكر الله كثيرًا عندما تمرّ بجوارك فتاة، وتظلّ تستغفر وأنت تتفحص ملابسها، ثمّ تمرّر لي التّعليقات: «أصل الدنيا خربت»؛ كي تخفي عنّي ولعك بقلّة الأدب، وتوجد مبرّرًا للنّظر إلى البنات في الشّارع.. أنت أبيح يا سعيد".*

***

قصدت المعهد المتخصّص، تلك هي المؤسّسة الّتي تقضي الفتاة بها فترة الامتياز، طبيبةً صغيرةً لم تزلْ، غير أنّ عامين إضافيّين قضتهما الفتاة في دراستها كانا مؤشّرًا لي بأنّها متواضعة التّحصيل والإمكانات، وأنّها لن تُصبح طبيبة ذات شأنٍ بأيّ مسلكٍ كان.

رشّحها أحدُ مواطنيها من الأطبّاء العاملين بالمشفى بجانب عددٍ من أقرانها اليمنيّين؛ كي يشكّلوا خليّة عملٍ صغيرة تحمي بعضها البعض، وتتبادل المعرفة والعلم اللازمَيْن والمؤهّلَيْن لخوض غمار العمل الخاصّ، وكذلك الخبرات الّتي تفرضها التّجربة العمليّة عليهم كأطبّاء.

حين سقط أحد فنيّينا بموقعه في منطقة شبرا، حمله زملاؤه وركضوا به لأقرب نقطةٍ لإسعافه، آلامٌ عظيمةٌ.. وصراخٌ مدوٍّ أرغم المسعفين على إدخاله للطّوارئ، جرى حوارٌ بين خليّة الأطبّاء الشّبّان وهم يتداولون حول حالته الصّحّيّة. إلى أن وجّه أحدهم بإعطاءه حقنة فولتارين؛ كي تسكّن من آلامه، وتُخفّض من حرارته وقد رأى تصبّب

العرق البارد عن جبينه، وأشار آخر لوجوب استدعاء طبيب التّخدير، ريثما يجرون له آشعةً تليفزيونيّة، ولربّما يكون لزامًا عليهم إجراء تدخّلٍ جراحيٍّ لم يُسمّه الرّجل لمعالجة الموقف، بينما علّقت إحداهنّ حين تقيّأ المريض: «هكّه أخد برد.. أو تكون جرثومة معدة!».

حتّى وصل الطّبيب الباطنيّ المسئول، وأشار بأنّ الآلام الّتي تعالجها «الحالة» هي مغصٌ كلويٌّ واضح، تلك «السّكاكين» الّتي شعر بها المريض تنشر جسده، ويده الضّاغطة أسفل ظهره وجانبيه، كانتا قرينتين لصيقتين لحصواتٍ محتملةٍ بالحالب، ثمّ وجّه بعمل فحوصاتٍ للدّم والبول.

"هيّ دي".

أشار أحد الحاضرين للطّبيبة الّتي شهدت الواقعة فعرفتها. لم أحضر لآداء واجبٍ أو بدافعٍ من الشّهامة كما قدّر مرؤوسيّ وأكبروا قدومي، تبعتُ حدسي الّذي أكّد لي أنّ هذا السّبيل سيوصلني لمعرفة فاطمة الزّهراء. تأنّقتُ واستعددتُ لهذه اللحظات، أهّلتُ نفسي لأن يكون لقاؤنا الأوّل لافتًا كموعدٍ غراميٍّ حميم.

"دكتور.. مساء الخير".

ابتسمت المرأة وهي تضرب الأرض بقدميها في تملّل، عدّلتُ من تعابير وجهي الّتي مالت لشيءٍ من الجدّيّة، وقلتُ في غطرسةٍ وقد ضاقت عيناي: «الولد عامل إيه؟».

يكبرني الشّابّ بخمسة أعوام على الأقل، غير أنّني أردت أن أبرز تفوّقي وامتيازي المهنيّ على حسابه.
رفعت فاطمة حاجبيها متسائلةً: «مين؟».
سكتُّ للحظاتٍ، وأشرت من خلفي غير عابئ: «غرفة تلاتة وعشرين، الفنّي بتاعي متشخّص بمغص كلوي، جه هنا من ساعة تقريبًا».
_"أهّا! نعم.. هو موجود بالغرفة بالفعل حاليًا".
ابتسمت في استنكارٍ، وملت إليها بجسدي: «آه.. أكيد في الغرفة.. ما انا لسّه قايل!».
_"أها.. والمطلوب؟".
أبدت المرأة التّأفّف؛ غير أنّني تجاهلت ردّة فعلها، وركّزت نظراتي صوب جسدها كاملًا من رأسها وحتّى قدميها بلا حرجٍ، ودون أن أُبدي أيّ معنى، ثمّ تأمّلت عينيها قائلًا: «طمّنيني على العامل بتاعي".
عندها همهمَتْ في تفهّم، وتقدّمتني نحو غرفته وهي تظهر التّحفّظ، وتبطئ من سيرها رغمًا عن هذا.
لم ينعزل مختار تمام الانعزال منذ انتقاله للقاهرة، بل اكتفت أحاديثه بالانتشار في نطاق دائرةٍ صغيرةٍ من الفتية، وبخاصّةٍ عندما أدرك أنّ أباه لن يوفّر له مظلّة حماية، وهو يشتبك مع هذا العالم الجديد. مجموعات الدّروس، وخاصّة مقرّبيه كانوا منصّاته المتحرّكة لعرض أفكاره، وفلسفته في الحياة. مع هذا لم تكد مرحلة الثّانويّة تنتهي، إلّا وقد انفضّت هذه القلّة القليلة من الرّفاق

من حوله، وانشغل الكلّ في حياةٍ جامعيّةٍ جديدةٍ ليس فيها من أصداء المراهقة إلّا مشاغلة الإناث.
تخبّط الرّجل في بداياته بالعمل، لكنّ الشّكاوى من أخطائه ما لبثت أن قلّت شيئًا فشيئًا.
"مجتهد». هكذا وصفه رامي، وبادر قائلًا: «الرّاجل الجديد بتاعك، بدأت إيده تاخد على الشّغل، ماهوّاش فلتة يعني.. بسّ ملتزم.. ومجتهد.. ودي أهمّ حاجة".
حين أعدت مراقبة هاتفه، رأيته يلتقط لنفسه صورًا بخوذة الأمان داخل الموقع. وهو يبتسم: «من أعلى أبراج المعادي، شايف مصر كلّها!». وكأنّه قد نال الجائزة التّشجيعيّة من الدّولة. وركض لينشر حالةً على واتساب أراد أن يشاهدها شخصٌ واحد: «الله يرحمك يا بابا".
هكذا ترك تعليقه على حالته، وقد ذكّرته الخوذة بالمهندس «عبد الحيّ الرّفاعي»، ربّما قنع بأنّ فيه الآن سمتًا كان لأبيه الرّاحل من قبل، ورغم أنّه لم يصبح مهندسًا مثله، إلّا أنّه يرتدي خوذةً كالّتي ملكها أبوه وتصرّف فيها إخوته مع الرّوبابيكيا المبيعة من البيت القديم. ومن يعلم؛ فقد تحمل الفتى آمالٌ بعيدةٌ أن يعيد التقدّم لامتحانات الثّانويّة العامّة، ومن ثمّ دخول كليّة الهندسة وقد قارب الأربعين، خلال سنتين لا يزيد، كما وضع في مفكّرته عبر الهاتف!
تلك هي القاهرة الّتي طردته من قلبها، يراها من أعلى؛

فتقـع في نفسـه المتأزّمـة، ويصالحهـا بـدوره.. أو تصالحه.
أمّـا فاطمـة الزّهـراء المعنيّـة برؤيـة مـا صـار إليـه مختـار؛ فلـم تكلّـف نفسـها عنـاء النّظـر في حالتـه. لم تفتحهـا أبـدًا حتّـى تلاشـت بعـد أربـع وعشريـن سـاعة، كانـت مدفوعـةً بقـوّة جـذبٍ لشـخصٍ آخـر أنسـاها حبيبيهـا السّـابق، شـخصٍ قـرّر بـإرادةٍ حـرّةٍ ألّا يعـود لأهلـه بسـمنّود الغربيّـة ثانيـةً منـذ آخـر لقاءاتـه بهـم، وأراد لرغبـةٍ آثمةٍ في نفسـه أن يسـلُبَ الغريـب كلّ مـا حولـه مـن أشـياء: والدتـه.. حبيبتـه.. وأكثـر أمانيـه طفوليّـةً وبسـاطة..
كان هذا الشّخص هو أنا!

***

-26-

"إنّنى كيانٌ هائل من العظم البارز، عليه لطختان من اللحم الرّقيق.. صرت عظيم الجسد كما أردت، ولكن لست عظيمًا كجبل.. أرى كوثر هناك، أظنّها لمحتنى أحدّث هؤلاء من حولى؛ فنظراتها الحادّة تترك آثارًا فى عظامى كطلقات كلاشنكوف لا يخطئ، نسيت ما علمته دائمًا وتذكّرت هيئتى واقفًا بين رفاقى أجمل منى بملابس زاهيةٍ غير جذّابةٍ فى واقع الأمر، لكنّها كانت ملائمةً لى كما شعرت حينها.. كيف لم ألحظ أنّها اصطفتنى من بينهم فى لحظةٍ عابرةٍ من الزّمن لسببٍ لا أعلمه.. كانت عيناها تتعقّبانني دون أن آخذ بالًا، أشعر بها حين ألتفت؛ فتلتقى عيوننا وتتصادم فى تعمّد واضح، وأظلّ لا أدرك منها إلّا التّجاهل، ولا أعلم منّى إلّا أنّنى أدمنت النّظر إليها.. كم كنت غبيًّا آنذاك!".

***

"هربتُ من الحُرُور بتعز..
وحسبت أنّ القاهرة ستصبح ظلالًا وارفة!".

كشفت لي فاطمة كلماتها الّتي سبق لها إظهارها لحبيبها السّابق في محادثةٍ قديمة، أذكُرُ رسالته الّتي حوت ردّة فعله حيال ما كتبت: «جميلة يا ماكيدا".

هكذا هو الاسم الإفريقيّ لملكة سبأ، وما اعتادت أمّها أن تلقّبها به حين كانتا تعيشان سويًّا باليمن السّعيد.

".إن شاء الله تكون أجمل جنّة ليّا وليكي، ولأولادنا، ونعيش دايمًا في ضلّها الوارف".

أومأتُ في غير اهتمام، وتحسّستُ ذقني المهذّبة سائلًا في برود: «ولقيتي هنا ضَلّك الوارف؟".
ابتسمت فاطمة في رقّةٍ قائلةً: «تقريبًا".
نظرت إليها وشعرت بأن نظراتي الحادّة تنفذ إلى روحها المعلّقة بالأغراض، ثمّ صفّقتُ: «حبيبي".
فرقعتُ بأصابعي في طلب النّادل: «نزّل الأكل هنا لو سمحت".
وعلمت أنّها تنتظر منّي أن أنجرف بدوري إلى لعبتها، كما جذبت مختار إليها بمشاعرها الجيّاشة، ومن ثمّ صعقته دون تردّد، قضت عليه حتّى لم يتبقّ منه سوى أطلال ذكرياتٍ راحلة، وأملٍ كاذبٍ يتوق لحبٍّ مريض.
كالقطّ والفأر، إن توقّف القطّ عن المطاردة يلوّح له الفأر بذيله كي يطارده من جديد، وحين يطارده يختبئ في جحره الحصين الّذي لا يقدر قطٌّ على النّفاذ من خلاله.
"وانت؟".
جذبَتْ فاطمة طرفًا للحديث حين توقّفتُ عن مجاراتها تمامًا.
"مالي؟".
_"لقيت ضلّك؟".
"مش محتاج». بدأتُ في تمزيق قطعةٍ من السكالوب، وغمّستها في صوصٍ حار.
"الرّاجل اللي يدوّر على أمان، يبقى عيّل مستنّي أمّه

تاخـده بالحضـن.. ماهـوّاش راجـل".
شـعرت بتـوق المـرأة للانخـراط أكثـر في مناقشـتي، سـألَتْ وهـي تضـع رجـلًا فـوق رجـل: «مـش لازم الضّـلّ يبقـى أمـان.. ممكـن أكـتر.. وليـف كيـف مـا بتقولـوا.. أنيـس؟".
شربـت عصـير العنـب مـن كأسي، وتركـت قطعـة اللحـم الّتـي ادّعيـت الانشـغال بهـا؛ كـي أشـعل سـيجارة، وأنـا أتركهـا تتـوق أكثـر لسـماع إجابـة.
صفّقـت ثانيـة، وحـضر النّـادل: «شـيل الطّبـق ده.. أنـا شـبعت".
وابتسمت له..
"ها.. إيه رأيك؟".
تمثَّلـت المـرأة لهجتـي بعكـس مـا اعتـادت فعلـه مـع مختـار، رأيتهـا محاولـةً منهـا لاسـتمالتي نحوهـا، وكأنّهـا تنهـي مـا بيننـا مـن فـوارق ظلّـت تقيمهـا كجُـدُرٍ عازلـةٍ بينهـا وبينـه.
نفخـت الدّخـان ببـطءٍ مـن بـين شـفتيّ وأجبـت: «لـو يسـتحقّ يكـون وليـف.. بـس لـو يسـتحقّ".
مالـت إليّ المـرأة كفتـاةٍ تتدلّـل في مقتبـل العمـر: «ورأيـك.. يسـتحقّ؟".
ابتسـمت بـدوري ردًّا عـلى ابتسـامتها وأجبتهـا بسـؤال: «بصراحـة؟".
همهمَـتْ وأومـأَتْ برأسـها إيجابًـا، وهـي تضـمّ شـفتيها بحركـةٍ طريفـةٍ تداعبنـي خلالهـا.
"لأ.. مايستحقّش".

قمت أنفضّ التّراب عن بزّتي، وهندمت معطفي تاركًا حساب العشاء فوق الطّاولة.

"نعم!".

لم أُجبْها.. عدّلتُ من ياقتي، وأشرتُ لها بسبّابتي ووسطاي مجتمعَيْن مستهينًا بوداعها، وبعد أن أطفأتُ السّيجارة وأطلقتُ آخر أنفاسٍ من الدّخّان، غادرتُ دون أن أنبس بكلمة.

***

*" قد أملك العلم والقدرة بداخلي ولو نظريًا، غير أنّني لن أستطيع الصبر حتّى أحيل النّظريّة واقعًا حيًّا.. كم أتوق أن أنطلق بسرعة الضوء لو أمكن، ولكنّني ما ألبث أن أعمل على ذلك حتّى أسأل نفسي لماذا وما الهدف، وتمرّ لحظاتٌ صامتةٌ أشعر فيها كأنّني ولدت من جديد، وكأنّه لم تمر بي الأيام والحوادث، وأعود لأفكّر في البديهيّات.. فاقدًا بذلك كلّ المقدّمات الأولى؛ فلا أصل إلى نتيجةٍ تذكر.. أتوقّف وأنا على شفير الموت متسارع الأنفاس، محدّقًا إلى الفراغ.. كلّ تلك الأعوام مرّت ولم أستفد منها بأمر! كم أتمنّى أن أصبح «لاشيء». عدمًا.. ليس جزءًا من شيءٍ وليس كلًّا لشيء، متحررًا من جسدي الذي أدركت اخيرًا بعد صراعٍ مريرٍ أنّه فرض عليّ ولا مفرّ منه؛ فأنا أطأ الأرض بقدمين ولا أطير، لا أستطيع التّوقف عن التنفس أبدًا.. إنّني أسيرٌ لكلّ ما يحيط بي من أشياء، حتّى الهواء نفسه، وجسدي أسيرٌ مثلي للواقع المحتّم".*

***

رسائل متتالية، تجمع الحبّ والشّغف والكراهية، وعشراتٌ من المكالمات الّتي تركتُها غير مجابة، تلك حصيلة يومين من تجاهلي لفاطمة.

أثبتت المرأة الغريبة صحّة نظرتي لها؛ فهي تطارد من يجافيها، وتجافي من يظهر لها الودّ والتّبسّط، لا تحتاج المرأة لمن يعاملها كملكةٍ حدّ أن تراه يتحوّل إلى خادمٍ،

لا شغل له سوى تلبية رغباتها ليس إلّا.. هكذا كان مختار؛ ولهذا نبذته فاطمة في نهاية المطاف. يسقط الرّجل من عين امرأته حين تدركُ يقينًا أنّه يحتاج إليها دونًا عن غيرها؛ أنّه لا يرى بديلًا عنها في الحياة. فهي تريده مستقلًّا وفي غير احتياج، غير آبهٍ جزئيًّا لنجاحاتها الّتي تتغنّى بها أمامه؛ فذاك ما يضمن لها أنّه لن يصبح اتّكاليًّا عليها فيما هو قادمٌ من أيّام، حتّى وإن دفعته الحاجة وحكم الاضطرار كلاهما إلى ذلك.

تنشُد الأنثى أن يظلّلها الذّكر برعايته دون افتتانٍ بها، وليس الرّجل اللطيف بمناسبٍ كي تضع فيه ثقتها المطلقة، مثلما قد تضعها في ذَكَرٍ جامح صلفٍ غير متّصلٍ بمشاعره، فهذا من تضمن الطّبيعةُ الأمّ استمراره بحكمٍ قانون البقاء.

يصل بلاغٌ مباغتٌ للمسئول عن متابعة قواعد الأمان في أحد مواقع الاتّصالات، وتعجّلٌ حثيثٌ على وجوب زيارة الموقع المحدّد برقم «ثمانمائة وسبعة عشر» والقريب من مدينة نصر، حيث يخرق أحد الفنّيّين قواعد الأمان المعمول بها في الموقع، ذاك ما يتطلّب مسحًا فُجائيًّا، وتوقيع جزاءٍ عنيفٍ إذا ما ثبت وقوع هذا الانتهاك. يغلق المتّصل من بعدها هاتفه؛ كيما يضطر المسئول لإجراء الزّيارة فورًا، دون معرفة المزيد من التّفاصيل. ويعرّج الرّجل بالفعل على البقعة الموصوفة بعينها، تلك الّتي كانت دون مصادفةٍ غير بعيدةٍ عنه.

يقف هنالك مختار خالعًا خوذته وأدوات أمانه؛ لم يحصل الرّجل على تنبيهٍ واجب وشديد اللهجة من قبلُ بأنّ خطأً كهذا هو خطأٌ قاتلٌ غير مقبولٍ تمامًا وفقًا للقواعد المتّبعة، والمنصوص عليها في لوائح شركة الاتّصالات. قد يؤدّي مثل هذا إلى تحقيقٍ ربّما لن يكون بالرّحمة أن يفضي إلى إنذاره فحسب، بل سيودي على الأرجح بمسيرته القصيرة في المجال، وسيُحظر بهذا اسمُه من جميع شركات المقاولات المتعاملة مع مشروعات تلك الشّركة الأمّ. كان هناك من كُلّف بتلك المسئوليّة الأدبيّة لإبلاغه فور استلامه للعمل، وقبل أن تثبت الواقعة الأسيفة، غير أنّه تخاذل عن قصدٍ وبإرادةٍ حرّة، ولم يلتزم بأمانة النّقل المطلوبة، حدث هذا؛ لأنّ الرّجل المعنيّ قد عقد شراكةً عن تراضٍ مع الشيطان المريد في أعماقه، وترك له زمام كلّ شيء، دون أن يبيعه روحه بالكلّيّة.

الأمل قاتل، والأماني تورد الهلاك.

علمتُ قبلك بهذا، وستعلم مثلي حقّ العلم يا مختار!

لا يوجد في الواقع ما يسمّى محض صدفة، كلّ شيءٍ يجري في هذا الكون يحدث وفق إرادةٍ مسبقةٍ تدبّر حدوثه، إرادةٍ يملكها خالقها الأوحد، أو يملكها شيطانها المريد!

كاد المشروع أنْ يُغلق بالكامل، ويُسَرَّح عاملوه كي يُنقلوا لمشروعاتٍ أخرى، سواءًا ءاشتركوا في خطأ مختار أم لم يفعلوا. وأنا أعلم أنّه لن يسأل أحدٌ مسئول الأمان عمّا

دفعه لمباشرة عمله في تلك البقعة دونًا عن غيرها. أُنذِر الغريب، ونقلَ من مشروعه لمشروعٍ آخر لم يسمِّه رامي. وازى ذلك أن يتمّ فصله نهائيًّا، بل زاد عليه أن صار معلّقًا دون أوراق عمله، ودون إخلاءاتٍ لغرضٍ عقابيٍّ محدّد.

قيل له: «خلّيك في بيتك.. لو جت لك فرصة مناسبة هنبلّغك. لو ماجاتش؛ فنتمنّى لك مكان أحسن".

سلّم مختار خوذته الّتي بكى وهو يحملها بين يديه، وكأنّها وليده الأوّل، وكذلك عُهْدَته من الأدوات المساعدة والمال. وخرج من الشّركة بعدها بعينين دامعتين. وحين وصل للشّقّة المقيم بها في الأخير، ظلّ في الفراش بالغرفة المشتركة متأمّلًا، يتقلّب ما بين الحزن والتّسليم في غير راحةٍ، إلى أن جنّ عليه الليل..

فتح الرّجل وميض هاتفه، وحرّكه نحو المكتب، وهو يرى الرّفاق ـ الّذين حدّثوه حين وصل فظلّ واجمًا لا يجيب ـ وهم نائمون الآن في أسرّتهم، أخرج مختار بطاقة الشّركة الخاصّة به، تلك الوحيدة الّتي لم يسلّمها ضمن عهدته. لتظلّ هويّةً تضمن له الولوج إلى أماكن بعينها بصفته فنيًّا بالمشروع.

اقتربت ساعته الأخيرة!

توقّف مختار، ورفع هاتفه مفعّلًا خاصّيّة التّصوير الليليّ، وبدأ في صناعة مقطع فيديو يصف المكان الّذي حلّ فيه خلاله، بصوتٍ خفيضٍ وعميق: «دي.. مقابر كوزيكا،

أو كوتسيكا.. مش عارف".
وأطلق ضحكة خافتة لم تُظهر من البشر قدر ما أظهرت من الحزن والاستسلام: «أنا ساكن قريّب منها، تقريبًا.. عشر دقايق مشي من المسكن اللي قاعد فيه، لحدّ هنا".
وأطلق زفرةً قصيرةً تحمل همّه وشجونه، متابعًا: «الموت تجربة غريبة، أدّعي إنّ محدش هيقدر يفهم حياته إلّا لو مرّ بحالة فقد، وفقد غالي، ليه معنى جوّاه..
بالنّسبة لي: ليا اتنين من حبايبي هنا، أكتر اتنين حبّيتهم في حياتي، والغريبة إنّي عمري ما قلت لهم: بحبّكم".
دمعت عينا مختار، وتهدّج صوته، ثمّ أوقف المقطع.. ليخطو عبر البوّابة الحديديّة، ويعود لاستكمال التصوير، حيث المدقّات التّرابيّة الضّيّقة بين القبور والشّواهد، وهو يعلّق: «غالب الأمر إنّ كلّنا بشكل غير مباشر بنقتل أحبّ أحبابنا لقلوبنا؛ خيبة الأمل وسلاسل موصولة من الفشل، بنخذلهم في طموحاتهم اللي بيبنوها علينا، بنطلع نُسخ مشوّهة من أحلامهم اللي همّا نفسهم فشلوا يحقّقوها في نفسهم، واتمنّوا يحقّقوها في أولادهم وحبايبهم.. إحنا اللي قتلنا أبونا _أنا واخواتي_ كان بيقول في آخر شهور ليه في حياته: ماحدّش فيكم بلّ ريقي.. حتّى انت يا مختار، طلعت خايب. وبص لي بزعل، زعل جامد.. حزنت ساعتها.. بس اتشجّعت أقول له لأوّل مرّة: «أنا ليه مطلوب منّي أسدّد فواتير عن حياتك يا بابا.. نجاحي لنفسي، وفشلي لو فشلت

يضرّني أنا مايضرّكش». وسكت أبويا ومازعّقليش زيّ ما تخيّلت.. حسّيت لأوّل مرة إنّه انكسر، وقلت جوّايا": سكت مختار متوقّفًا أمام قبر أبيه، وتحسّس الحروف المكوّنة لاسمه فوق شاهده باكيًا: «.يا ريتني بلعت لساني ولا اتكلّمت، ولا كنت أشوف النّظرة دي في عينيك يا بابا".

تماسك الرّجل، ثمّ تابع: «حتّى لو كانت الحقيقة واللي كنت شايفُه وقتها، بس الحقيقة دي كان ليها تفسير تاني عندك، كإنّي بتبرّأ من التزاماتي ناحيتك.. ده حكم الأبّ على ابنه، والأخ على أخوه.. ماكانش ده قصدي، إنت كنت أحسن منّي يا بابا، كنت راجل.. راجل بجدّ.. أمّي كانت ستّ مغلوبة على أمرها وماكانتش تقدر تراجعك في أيّ حاجة شايفة إنّك بتعملها غلط، كانت بتسكت قدّامك وترجع تشتكي لنا وصوتها واطي عشان ماتسمعهاش: «شفتوا أبوكم عمل إيه يا ولاد؟»..

لّما دخل لك مبلغ مُحترم ولأوّل مرة في حياتنا، مبلغ كان ممكن ينقلنا نقلة تانية خالص، أخدت نصّ المبلغ، وادّيته لاخواتك عشان تساعدهم، نفس الاخوات اللي محدّش منهم جه يزورنا، ولو مرّة بعد وفاتك.. لّما أكرم كلّمك ولامك، اتعصّبت، هو الوحيد اللي كان يقدر يتجرّأ ويسألك، زعّقت فيه وقلت له: «إنت بتكره أعمامك وعمّاتك! دول اخواتي.. دول أصلي، وأنا ماقصّرتش في حق أيّ واحد منكم يا خايب، واليوم

اللي هقصّر فيه هبقى ميّت، دنيتنا مستورة والحمد لله، وأحسن من ناس كتير، احمد ربّنا، أعمامك ظروفهم مش كويّسة وأنا بعامل ربّنا فيهم، ومش مستنّي منهم حاجة".

قلت لنا إنّ أبوك وأمّك ربّنا يرحمهم ويغفر لهم سابوكم فقرا، غير ما انت سبتنا، وإنّكم كنتم سبع اخوات».

ومضى مقتبسًا كلمات أبيه نصًّا: «»يا كلّ واحد فينا يقول يلّا نفسي ويدوس على أخوه، يا نلمّ على بعضنا عشان الدّنيا ماتدهسناش تحت رجليها. لا عمّ نصفنا في الدّنيا ولا خال». وأكّدت لأكرم وشدّدت في كلمتك إنّه لو في إيدك أضعاف الفلوس دي كنت هتدّيلهم، لعلّ وعسى وقتها نتعلّم إنّ الأخّ يقدّم أخوه على نفسه، وإنّ الرّاجل يشيل البنت، وقلت له إنّه لو عايش عليه هدمة نضيفة وبياكل أكلة نضيفة ومقفول عليه أربع جدران ساترينه، يبقى فعلًا عايش..

ثُرت في وشّه ووشّنا كلّنا: «هقطّع الجِدْر اللي رابطني باخواتي ياض يا أكرم.. يا خايب.. يا واكل أهلك.. عشان أرضيك ولّا أرضي أمّك، ولّا أرضي اخواتك البنات؟ ده ملعون أبوك.. لأمّك، لأي حدّ في الدّنيا عايزني أخون أمانة ربّنا في اخواتي".

ورُحت تصالح ماما بعدها وتطيّب خاطرها، وأخدتني على جنب توصّيني: «إخواتك يا مختار.. الأخّ لأخوه مهما حصل»، وسمعت كلامك يا بابا.. ولحدّ النّهارده

فضلت أقدّم إخواتي عليّا في كلّ حاجة، مع إنّي أكترهم حاجة، وأصغرهم سنّ.
لّما متّ يا بابا، قسّموا كلّ شيء، باعوا البيت اللي شقيت وانت بتبنيه، واتفرّقوا في الدّنيا، كلّ واحد من طريق. في وقت امتحاناتي، وتحديد مستقبلي.. كانوا جايبين سمسار، وبيحدّدوا له سعر البيت وتمن سمسرته، واتباع زي ما كلّ حاجة بتتباع: الذمّة والضّمير، والأمانة.. حتّى الذّكريات بتتباع.. ودي آخرة سعيك في الدّنيا يا بابا.. كلّ حاجة حلوة في حياتك اتباعت، ولّما طلعت نتيجتي؛ أمّي فرحت بمجموعي، مع إنّك لو كنت عايش كنت قطّمتني عليه وقلت لي: إنت أحسن من كده يا مختار، زي ما عملت معايا قبلها بسنة واحدة، تراكمي سنتين فرق معايا على دخول هندسة بنص في الميّة، ماحدّش لامني، قالوا لي: الكليّات الخاصّة والمعاهد مالية الدّنيا.. فرحت، بس وقت السؤال اكتشفوا إنّهم مش هيقدروا يساعدوني، وكلّ حدّ مشغول بحياته ومحتاج القرش اللي يعينه، ماكانش قدامي غير إنّي أصرف كلّ نصيبي سنة بعد سنة على الكليّة ومالاقيش اللي أصرفه على إيجار الشّقّة الجديدة، وطلبات البيت. ما هي ماما اتخلّت عن نصيبها، وافتكرت بكده إنّها بتدّي ولادها اللي يساعدهم، وبتعمل اللي عليها كأمّ. مع إنّه لو كانت فضلت فلوسها معاها كان ممكن تساعدني أصرف على البيت، وماتضطرنيش وقتها أتخلّى عن فرصتي الوحيدة

إنّي أبقى زيّك يا بابا.. بس أنا عمري ما كنت هطلبها، لا من ماما ولا من أيّ حدّ تاني. قالوا لي: خشّ بقى حاسبات، قلت لهم لأ، ركبت دماغي ودخلت تجارة. أكيد غلطت.. بس أنا كنت بعاقب نفسي؛ بعاقب نفسي على تصرّفاتهم.. عشان أعيش مشيّلهم ذنبي، ويمكن.. يمكن يتحسّروا عليّا لو متّ وهما جايين على حقّي.. حقّي في الاستقرار وحقّي في إنّ اخواتي الكبار وأمّي اللي بقيت تحت وصايتهم يراعوني. أدمنت إنّي أعيش المظلوميّة، زيّ ما كنت بالومك في حياتك على غلطاتي، بسّ انت متّ، والأيّام بدءت تكشف لي إنّك ماكنتش طول الوقت غلط، وإنّك لو غلطت؛ فانت بشر، المشنقة اللي كنت بعلّقها لك في حياتك جت على مقاسي أنا يا بابا بعد ما متّ، والذّنب فضل يخنقني يوم عن يوم، وبقى بيقتلني.. والنّدم اللي كنت بادّعي زمان إنّه مش في قاموسي، بقى هو الأصل، وحياتي نفسها بقت ع الهامش".

وجّه مختار هاتفه فجأة عن شماله حين أدرك حركة غريبة؛ ليظهر عامل المدافن كشبح كئيب من أمامه: «هو انت يا مختار؟ هعمل لك معًايا كوبّاية شاي".

التفت الرّجل ثانيةً، وعاد لتصوير قبر أبيه مستأنفًا: «عشت حياة جافّة.. ماكانش فيها مشاعر دافية، يمكن عشان كده أقنعت نفسي أحبّ كوثر وأنا صغير. كوثر اللي ماكانش بيربطني بيها غير إعجاب من بعيد لبعيد،

وعشت حكاياتي معاها كلّها من طرف واحد، حكايات في دماغي أنا.. أنا اللي بلورت الإعجاب ده في إطار الحبّ لأنّي كنت عايز أحبّ مش أكتر، وكنت عامل زي غنوة السّتّ اللي كنّا بنسمعها سوى: «خاصمتك بيني وبين روحي، وصالحتك وخاصمتك تاني». كلّ ده وكوثر ما تعرفش، ويمكن سبنا كراديس، ونقلنا القاهرة، وهي مش عارفة حتّى اسمي، ولا ملاحظة من الأساس غيابي. كنت أتضايق لما ألاقيها بتضحك مع صاحباتها البنات، وأنا زعلان.. وأقول جوايا: «ياه.. للدرجة دي ماحدش حاسس بيك يا مختار!".

توقّف مختار ضاحكًا في مرارة، ثمّ أكمل: «وهتحسّ بيّا إزّاي! كإنّي أنا كولد ماكانش عندي الشّجاعة إنّي أوقّفها، وأقول لها: أنا معجب بيكي يا كوثر، وكنت مستنّيها هي كبنت توقّفني، وتقولها لي! واقع مقلوب عشته في دماغي، مع العلم إنّي قلت لنفسي وقتها: وبعدين يعني.. هو انت لمّا تروح وتقول لها بحبّك، هتطلّع لك مأذون من جيبها؟! ولّا هتحدّد لك معاد مع أبوها؟! بلاش لعب عيال؛ ده انت لسه في أولى إعدادي، وأبوك بيدّيك مصروف جنيه ونص في اليوم.. عمري ما أخدت الخطوة الأولى في ارتباط، لا مع كوثر ولا مع غيرها؛ كنت بخاف من الرّفض.. بالرّغم من إنّ محدش كان حاسس إنّي عندي أزمة ثقة، بس أنا من جوايا كنت حاسس بيها ومابيّنهاش؛ فكان طبيعي إنّ أوّل بنت

أشاغلها تبقى من ع النّت، وأنا مخبّي شخصيّتي الحقيقيّة، وكان طبيعي ماخُدش ريق حلو من بنت غير هناك.. من فاطمة، فاطمة الزّهراء علي أحمد جواد.. وعشان مغفّل؛ حفظت اسمها بالكامل، وصارحتها بكلّ شيء، ودفعتني دفع أكشف لها كلّ حاجة عن نفسي، وهي لحدّ النّهارده مش فاكرة اسمي الخُماسي، أو يمكن بتقول كده وبسّ، مع إنّي قلتهولها خمسين مرّة، وبعد أكتر من تمن سنين حبّ.. أو تمن سنين لعب، أَخَدِتْ كلّ اللي هي عايزاه، ومادّيتنيش أي حاجة، مادّيتنيش موافقة أسافر لأبوها حتّى وأخطبها.. طموحها كان في حدّ أحسن منّي.. بسّ ماقالتهاش صراحةً. كنت تتخيّل يا بابا إنّ مختار ابنك يطلع مهزّأ للدرجة دي؟ أنا بعت كرامتي عشان بنت قالت لي: بحبّك.. للدّرجة دي كنت قادر أبيع نفسي عشان كلمة حلوة ناقصاني، وأنا ولد يادوبك تسعة وعشرين سنة، أخرج من الشّركة بعد ما أخلّص حساباتي، وأروّح ع البيت.. أقفل عليّا وأقعد أكلّمها بالسّاعات، ركنت كلّ حاجة ودخلت منطقة الرّاحة، ماذاكرتش تاني، ما أخدتش كورسات أطوّر بيها نفسي، وعدّت سنين.. الشّركة إدّتني صابونة بعدها لمّا مرتّبي زاد، وعيّنوا مسئول إتش آر غيري سنّه صغيّر. هيّ كانت حياتي، حياة بني آدم ماعندوش حياة.. وعشان كده كنت بحاول وبعافر، حتّى بعد ما مشيت من أوّل شركة.. أنا فاكر أوّل ما شفت صورتها.. وعلى فكرة ماعجبتنيش..

ماحبّيتهاش، بسّ كدبت على نفسي، قلت لها: إنتي سوبر موديل.. وعشان مراية الحبّ عميا، عوّدت نفسي أحبّ حتّى شكلها، وبقى وشّها هوّ مقياس الجمال بالنّسبة لي، لدرجة إنّي مابقتش أحسّ إنّ أيّ بنت في الدّنيا جميلة زيّها. قلت لها: إنتي أجمل بنت في العالم.. ياما اتّهمتني بالكدب، وأنا كنت صادق في كلّ كلمة بقولها. عرفت معنى الحبّ من بنت عمري ما قابلتها في حياتي وجهًا لوجه، ولحدّ دلوقتي رافضة تقابلني، مع إنّها عايشة في القاهرة، واتعلّمت فيها.. أنا اللي سعيت لها تدخل كليّة ماكانتش عمرها هتدخلها في أيّ مكان تاني، ولمّا وصلت للمكان اللي وصلت له، بدءت تشوفني أقلّ من الارتباط بيها. قالت لي إنّي بمنّ عليها؛ مع إنّي عمري ما منّيت، ياما سابتني، وحظرتني.. ورجعت لي من بعدها وكإنّ مفيش حاجة حصلت، عشان تحسّ بإنّها مرغوب فيها من واحد بيتفانى في حبّها مش أكتر. وأنا زيّ الكلب كنت برجع لها وأسامحها.. أنا آسف يا بابا، حتّى أنا مكسوف من نفسي وأنا بقولها.. بس هيّ دي الحقيقة.. الحقيقة من غير أيّ تجميل.. أو ذواق.. للدّرجة دي هانت عليّا نفسي".

_"بقول لك إيه؟ وقّف همسة عتاب دي، يا إمّا هشرب أنا كوبّايتك".

لم ينتبه مختار لصوت العامل القادم من بعيد، ذلك الّذي عاد ثانيةً من حيث أتى، كانت مناجاة الرّجل لأبيه

أمرًا اعتياديًّا يراه مرتادو مدينة الموتى من وقتٍ لآخر، غير أنّه أبدًا لم يكن بمثل هذه الكثافة والإسهاب، بدت محادثته كأنّها تصفية حساب عالقٍ أو شهادةٌ أخيرةٌ يدلي بها الابن؛ ليبدأ من بعدها حياةً جديدةً متطهّرًا من ماضيه وآثامه: «أنا آسف يا بابا، وآسف يا ماما إنّي ضقت بيكي في أواخر أيّامك، آسف إنّي اتمنّيت من جوّايا إنّك".

جثا مختار على ركبتيه محتضنًا الشّاهدين، ثمّ أدار جسده بينهما، ليسند رأسه للفاصل ما بين حجرة أبيه وأمّه، وصوّب عدسة كاميراه نحو وجهه وبدت دمعتان صادقتان تبلّلان خدّيه، صوّب نظراته نحوها، وكأنّه ينظر نحوي أنا: «اتمنّيت إنّك تموتي.. عشان أبدأ حياة جديدة مع بنت، عمرها ما كانت هتخدمك في حياتك!".

ووضع كفّه فوق صدره في ألم.

***

" إنّنى أقف على قمّة الكون عاريًا، مدفوعًا بأحلام صنعتها وأنا راقدٌ فى عمق الأرض السّابعة؛ حتّى حملتنى إلَى هناك؛ فتكشّف لى العالم كما هو.. صغيرًا ومتّصلاً من أقصاه إلى أقصاه.. ثمّ أبصرت المجموعة فالمجرّة فالمجرّات من حولها، وإذا بى وقد اعتقدت أنّنى ألممت بأطراف الكون المتّسع، تقع عيناى على بقعةٍ خاليةٍ فى الأفضية المتناثرة.. هناك حيث رأيت ما كان حولها من فراغ قديم فى أزل صنعه عقل البشر وما هو بالأزل.. ورأيت بمستقبلها مركزًا آخر لكونٍ تضاعف فى لحظاتٍ وتمدّد.. وما زاد علىّ من عمره إلّا لحظة، حتّى أدركت عوالم أخرى لم تبصرها الأعين ألفتها فى العالم القديم، وعلمت بوجودها كطيفٍ من أطياف الحقيقة غير ملمٍّ بأبعادها وحيثيّاتها.. هناك حيث غادرت كتلتى، وتلبّست كليّةً غير محسوسة، وصرت أنظر إلى الماضى والحاضر والمستقبل نظرةً سواء بعينٍ تخترق الكليّات والجزئيّات.. عينٍ توغل فى التّفاصيل، وتكشف العوالم وراء العوالم والحقائق خلف الحقائق.. أمّا هذا الإنسان الّذى كنته يومًا؛ فلم أميّزه عن غيره من المخلوقات فى نواحى الكون الممتدّ.. كأنّما صرنا كيانين منفصلين.. تركته كى يحيا لحظات عمره فى حتميّةٍ ما بين عدمَىْ ماضيه ومستقبله، ونظرت من كلّ الكون؛ فأدركت اللحظة الواحدة عمرًا كاملاً للكون.. عمرًا عشته بعدد اللحظات فى نفس كلّ مخلوقٍ مكلّف، وإذا بى أخترق اللحظة موغلاً فى كلّ تغيّرات الكون، عالمًا بظواهرها

*وبواطنها، لا يعترينى فى ذلك الكبر أو الشّعور بالذّات غير الذّات؛ فقد كنت ولأوّل مرّة.. محررًا!".*

***

يقترب الشّهر من نهايته، وذلك التّصريح الشّهريّ لدخول البرج الشّاهق بالمعادي ـ حيث شهد مختار القاهرة لأوّل مرّةٍ من أعلى ـ سينتهي خلال أيّام، وسيتعيّن على مسئولي المشروع إعادة إرسال الأسماء المطلوبة لإدارة الأمن؛ كي يُسمح لطاقم العمل من الفنيّين بالمرور لمتابعة الأعطال خلال الشّهر الجديد. رأيت مختار أكثر من مرّة يتردّد على ذلك الموقع، هكذا أشار موضعه على تطبيق الخرائط، بإحداثيّاتٍ تطابق نقطة الالتقاء بين خطّ الطّول ودائرة العرض، والمشيرة لمكان البرج المذكور فوق أرض القاهرة، ولجوار كورنيش النّيل.. هكذا حامت شبهاتي حول الرّجل أنّه يريد رؤية الموقع للمرّة الأخيرة، قبل أن يُحظر دخوله للأبد..

بدت تغييراتٌ واضحةٌ في سلوكيّاته الظّاهرة، حتمًا ليس فيما رأيت ما يشير لاتّزانٍ واستقرارٍ نفسيّ؛ فلم يستغرق مختار حسب ما رصدت في نومٍ عميقٍ منذ أُقيل، ظلّت الإشعارات تتوافد إلى بريديّ الإلكتروني كلّ بضع دقائق، يفتح الرّجل خلالها هاتفه وينظر عابسًا لأيّ من التّطبيقات، هكذا رأيت وجهه في مرّاتٍ عدّةٍ بسبيل المصادفة أو الفضول، وبعد عدّة حالاتٍ قام بنشرها، ولم تلقِ فاطمة لها بالًا، مسح كلّ ما وقع تحت

نظره من ذكرياتها السّيّئة، بل محاها من وجوده للمرّة الأولى، وكأنّها لم تكن!
حذف الرّجل محادثاتهما، ومضى يحظرها من كلّ وسيلةٍ للتّواصل اعتادا الحديث خلالها واحدةً تلو الأخرى، وانتهي الأمر بحظر رقمها بالكلّيّة من هاتفه، ثمّ حذفه.. لن يستطيع مختار حتّى وإن أراد العودة لمحادثتها هاتفيًّا، إلّا إذا فقد أثارة كرامته، وقرّر إنهاء الحظر من واتساب، إنستجرام أو ماسنجر!
تأوّه مختار، ولم يُخفِ آهته بعد أن حظرها، أصابته نوبة هلعٍ جديدة؛ لأنّه لن يستطيع الوصول لحبيبته السّابقة ثانيةً، غير أنّه هذه المرّة لم يعُدْ عمّا فعل، ظلّ يردّد: «الله يرحمك يا بابا.. الله يرحمك يا ماما.. سامحوني.. سامحوني يا حبايبي".
قالها بصوتٍ واضحٍ، وبدا على وجهه المعاناة، وجبينه يتعرّق بغزارة، وجسده ينتفض في حمّى التّأثّر، غير أنّه أبدًا لم يعُد عمّا دفع لنيله الثّمن الباهظ، ثمنًا دفعه لقاء الفراق.. والتّحرّر!
لم يُسعفه أيٌّ من الحاضرين، ترك الهاتف يسقط من يده، وهو يجاهد لالتقاط شهيقٍ لم يكُن الأخير.. سمعتُ حشرجةً تصدر عن حلقه، وكدت أسمع أزيزًا بصدره، وقد أيقنتُ أنّ جهازه الساقط من يده شديد القربِ من قلبه ذاته، كانت عين الحقيقة هي ما أدركتُ خلالها تباطؤ دقّات قلبه وليست آذاني الإلكترونيّة المترصّدة،

كأنّما صرت متوحّدًا مع الرّجل في جسده، وكأنّ قلبه المُنهك يريد التّوقّف عن العمل، غير أنّه يصارعه، يرغمه على إرسال نبضاته، وضخّ الدّم بدوره عبر الشّرايين، وقلبه يأبى الاستمرار دون فاطمة!

***

*"نعم.. قبلت المجئ إلى الحياة بإرادةٍ حرّة.. لا تسألوني كيف؛ لأنّني لا أعلم.. لقد شعرت بطيف تلك الحقيقة قادمًا من عالم آخر، وقبل أن أصبح جنينًا قادتني الفطرة والغرور، وثقتي بما لا أملك إلى الموافقة على المجئ معتقدًا بأنّني سأعجز البشر بعبقريّةٍ فذةٍ ومجدٍ لا مثيل له.. إنّ ذلك الكائن القابع هنا أو هناك يضحك بطريقةٍ هيستيريّة؛ لأنّه أوقعني في الشّرَك المقدّر لي الوقوع فيه.. لم أعلم بوجود ذلك الكائن إلّا بعد عمرٍ طويلٍ على الأرض، ظننت فيه أنّ بإمكاني أن أصدره الفطرة والغرور والثّقة بأعمالٍ معجزة، غير أنّني لم أفعل، وصار ذلك الشيء يتولّد من قيعان اليأس، وينمو في ظلمة قلبي ساخرًا من العالم الموازي الذي تخيّلته.. الجنة التي أصبح بديلها الجحيم الأبديّ!".*

***

لسنا سوى حيواناتٍ ناطقةٍ على درجةٍ عاليةٍ من التّعقّد والتّركيب، تلعب الغريزة في حيواتنا المؤقّتة دورًا لا ندركه حق الإدارك، الغرائز تسبق الضّمائر، تسبق المُثُل والمبادئ والأنا العُليا. غريزة الصّيّاد هي ما دفعتني لتقصّي خبايا مختار عبد الحيّ، ومعرفة دقائقه، غريزة العنف هي ما جعلتني أتعطّش لرؤيته ساقطًا أمامي دون أن أريق من دمه قطرةً واحدة، أمّا غريزة الانجذاب للذّكر المسيطر فهي ما دفعت فاطمة للاستجابة لمشاغلات رجلٍ مثلي، وهي ما دعتها بغرابةٍ للتّمسّك بي، رغم ما أبديتُ لها

مـن صلـفٍ وكبريـاء.
"محمّـد.. أنـا حسّـيتك مـش كويّـس واحنـا سـوا. لـو بتمـرّ بوقـت صعـب قـل لي. حقّـك عليّـا وواجبـي إنّي أتحمّلـك في أصعـب أوقاتـك".
حـين لم يجـدي غضبهـا نفعًـا، عـادت لاسـتقطابي إليهـا، لم أرجـع عـن تصلّبـي، غـير أنّنـي لم أُرد أن أنفّرهـا منّـي تمـام النّفـور؛ فتفقـد بذلـك الأمـل مـن مشـاغلتي وتنجـو مـن مكيـدتي، فقـدان الأمـل لتلـك المـرأة فرصـةٌ جديـدةٌ في الحيـاة، فرصـةٌ ستسـمح لهـا أن تنسـج خيوطهـا حـول ضحيّةٍ جديـدة، واحتـمالٌ قائـمٌ لارتبـاطٍ أفضـل يؤمّـن لهـا ظروفًـا ماديّـةً أكثـر ملاءمـة. سـتظلّ الروايـة مسـتمرّةً بينـي وبـين فاطمـة الزّهـراء لفصـولٍ أخـرى؛ لـن أطـوي صفحتهـا الآن مثلـما طويـت صفحـة هيثـم بالأمـس، ومثلـما سـأطوي صفحـة مختـار المليئـة بالعذابـات عـمّا قريـب. سـأجذب خيطهـا إليّ كُلّـما ابتعـدَتْ بإغـراءٍ جديـدٍ يثـير لُعابهـا، وسـأُبقي عـلى الأمـل حيًّـا في نفسـها المشـبّعة بحـبّ المـادّة؛ فالأمـل كـما أعلمـه قاتـل، والأمـاني.. تـورد الهـلاك.
ارتديـت ملابـسي، وأنـا أسـتمع لخطواتـه تـضرب الأرض في وهـن، لم أحتـج إلى أن أراقبـه بعـد ذلـك، فلـم يتبـقَّ سـوى يومـين حتّـى نهايـة الشّـهر ونهايـة فرصتـه لرؤيـة القاهـرة من أعـلى ووداعهـا ببقعـةٍ أحبّهـا حـقّ الحـبّ، ومختـار لم يـزل يتحامـل عـلى نفسـه للنّهـوض للمـرّة الأخـيرة. صرت أعلـم إلى أيـن سـيتحرّك بجسـده المنهـك، وقلبـه المحمّـل بجـراح

حبٍّ سيقتله. أغلقت شاشة لابي الشّخصيّ، ونظرت في ساعتي المشيرة للحادية عشر مساءًا. ارتديت قفّازي بليلة شتاءٍ باردة، وكومةٌ حملتها من الأوراق دسستها تحت معطفي الثّقيل؛ لألاقي بها مختار في الموعد والمكان المعلومين.

وطأتْ قدما مختار شوارع القاهرة في سهرها الدّائم، وذاب بين جموع المترو قبل أن تُغلَق آخر خطوطه بساعةٍ إلّا الرّبع، كقطرةٍ من النّدى تتماهي في غابةٍ من الأوراق. لكلّ رجُلٍ هنا حكايةٌ تجهلها، احترس لما يختبئ خلف تلك العيون المحدّقة نحوك في خواء. أو النّاظرة إلى العدم، أو هؤلاء الّذين يبدو عليهم الإغراق في التّفكير والتّأمّل. ستجد الكثيرين من مختار عبد الحيّ قد ضلّلتهم الحياة، وستجد القليلين منّي يتلمّسون خطاهم في الظّلام بلا خوف، ويشعلون جثامين ضحاياهم لتضئ طرقهم المؤدّية إلى المجد، والجحيم!

لم أظهر في حيّز الرّجل ولم أقطع عليه مساره، سبقته نحو مقصده، ومررت بين رجال الأمن دون إيقافي، هندام الرّجل في كثيرٍ من الأحيان يصلح هويّةً له؛ لذلك لم يضطرّني الرّجال لكشف دوافعي الّتي أتيت بشأنها، ولما قد أمرّ عبر كتلتهم الصّلبة خارقًا إيّاها لأنفذ لأعلى البرج الشّاهق؛ لعلّي أكون أحد قاطني ذلك البناء المهيب أو أكون أحد زائريه رفيعي المستوى ليس إلّا: «سيب الباشا يخشّ يا راضي.. افتح الطّريق يابني".

لست أبدًا كمُختار الّذي يصير الآن موضع تساؤلٍ حيث يحلّ بمظهره البائس، والابتسامة الباهتة الّتي لم يزل يحتفظ بها في وهنٍ من لا يملك سوى إظهار لطفه القديم.

يقترب الرّجل من المنطقة، أسمع قدميه تشقّان برَك الماء الرّاكد إثر سيلٍ سابقٍ من الأمطار. يفرغ مُختار الهواء البارد من رئتيه؛ كيما يزفره في غير راحةٍ أمامه.. خَفتَ صوت نفير السّيّارات من حول الغريب؛ ليتقدّم إلى مقرّه الأخير بأعلى أبراج منطقة المعادي، تلك الّتي صالح فيها القاهرة وصالحته.

"جالنا إنّ الكباين هنا عليها حرارة عالية. إذا سمحت.. هبصّ بسرعة على التّكييف، وبعدها اتحرّك".

يسمح له رجال الأمن بالدّخول، وقد أشهر لهم بطاقته ذات الهويّة المعلومة لديهم، وراجعوا اسمه في سجلّاتهم: «اسمك في التّصريح.. اتفضّل".

ينطلق المصعد في رحلته نحو السّماء، ويطرد مختار الهواء البارد من رئتيه. إلى أن يتوقّف المصعد في الأخير، ويركض الغريبُ في توقٍ فوق درجات السّلم.

يصعد أربعة طوابق كاملة حتّى يصل لأعلى البناء، هنا حيث توجد غرفة الاتّصالات وأقطابٌ من الحديد تحمل أطباقًا هوائيّة. هنا حيث اعتاد الرّجل العمل لأشهرٍ قلائل قبل إقالته المقنّعة.

سيلقي نظرةً أخيرةً يودّع فيها مكانًا أحبّه، ورأى خلاله

القاهـرة بأسرهـا.
وجـد مختـار ضالّتـه في ذلـك العمـل رغـم كلّ شيء، رغـم رحيـل فاطمـة إلى الأبـد، ورغـم الذّنـب الّـذي حملـه لرحيـل أمّـه، ورغـم العقـدة الباقيـة منـذ المراهقـة أن مـات أبـوه، وهـو مـن كان يحسـب أنّـه بنفسـه ـ ورغـم كونـه أصغـر أعضـاء عائلتـه ـ سـيصير أوّل مـن يغيّبهـم المـوت عنهـم، ليتركهـم يحملـون ذنبـه، وذنـب حملِـه إلى الحيـاة وهـو بعـالم الدّيمومـة، حـدث مـا لم يكـن مختـار يتمنّـاه؛ فقـد عـاش.. ومـات أبـواه: واحـدٌ وهـو في مقتبـل العُمـر، ثـمّ الآخـر وهـو في أوسـطه!
أعلـم مـا سـلبته يـداي مـن هـذا الرّجـل، وبـإرادةٍ حـرّة.. كانـت هـذه هـي حسرة الأمـل المـوأود بعـد انقطـاعٍ طويـل.
اقترب صوت خطواته أكثر فأكثر..
اضطربت أنفاسه..
أطلق زفراتٍ وشهقاتٍ متنافرة إثر عدوه..
شـعرت بقلبـه يـكاد يقفـز خارقًـا طيّـات صـدره جـرّاء إجهـاده؛ كـي يغـادر إلى الأبـد!
توقّـف الرّجـل لالتقـاط أنفاسـه، وحـين رفـع رأسـه، رأى شـبحًا أسـود يرتـدي قلنسـوةً يقـف مـن أمامـه..
التفتّ إليه، وأسقطت قناعي الأخير..
وحـين اقـترب في توجّـس، وضحـت لـه ملامحي في إضـاءاتٍ خافتـةٍ لكشّـافاتٍ بعيدة..
"إنت!".

ضاقت عيناي وأنا أنظر إليه دون أن أجيب..
شعر الرّجل بالخوف، وعلمت ذلك يقينًا. تراجع وقلبه يرتجف في موضعه، ويكاد يسقط في قدميه..
"إيه جابك هنا؟".
لم أُجِبْه، علا صوت تشويشٍ حادٍّ كصفيرٍ مُصمٍّ ينعق في أُذُنينا؛ ليمنع إجابتي، ذلك أثرٌ مباشرٌ لتواجد هاتفي وهاتفه في نفس الحيّز: «إيه ده؟!".
خرج صوته من هاتفي؛ فناولته إيّاه، أمسك الرّجُل به في قلقٍ بالغ؛ فإذا به يلمح شاشةً سوداء لا تظهر شيئًا. غير أنّه باستنتاجٍ بسيطٍ أخرج هاتفه، ونظر فيه؛ ليرى وجهه يطلّ عبرَ شاشتي.
ارتعدت فرائص الرّجل، وسقط الهاتف من يده المرتجفة، ناظرًا إليّ في غير استعاب.

***

*"علمت أنّها لم تعد سوى مسألة وقت كي أتلاشى.. بعد أن شعرت بتلك اليد الخفيّة تسحبني للأسفل.. ورجفةٌ تملّكتني أثناء السّقوط من القمّة.. تسارعت كتلتي حتّى شقّت ما قارب اللّون في ومضة ضوء.. إنّها المرّة الأولى الّتي أشعر فيها بخطر الفناء وفقدان كلّ شيء.. كم تتسارع الأحداث من حولي ويتداخل الماضي والحاضر.. لم يكن ذلك عبثًا.. ولم يكن ذلك الفزع إلّا عين المصير القادم.. تقترب الأرض ويستمرّ السّقوط الحرّ!".*

***

وضع مختار راحته فوق صدره في ألمٍ متسائلًا: «إمتى؟! وازّاي؟!".

نظرت إليه غير عابئٍ، غير أنّني أجبته: «من أوّل ما بعتّ عيّل صغيّر ياخد الموبايل من أمانات الموقف".

لم تُجدِ محاولات الرّجل لأخذ الحيطة مثلما أدرَك. تلك صدمةٌ أخرى تعادل صدمته في وفاة أمّه؛ فحياته وحياتها كانتا مشاعًا لرجلٍ غريبٍ حسبه شهمًا، ولمدّة أشهرٍ كاملة، أشهرٍ مرّت خلالها أحداثٌ خطيرةٌ وخطوبٌ جِسام.

"بسّ ليه؟». قالها في ضعفٍ ولوم، بعينين تضيقان وجبينٍ يتعرّق.

"شُفتك إرِم، ألّفت عليّا قصّة خايبة، وكلّمتني من حسابك ومن حساب عامله لخطيبتك اللي مش موجودة

مـن الأسـاس، فيـه حاجـة ماريّحتنيـش فيـك، وفي كلامـك.. وفي الحدّوتـة كلّهـا. بـس أنـا الـلي عدّيتهـا أوّل مـرّة، وعدّيت لـك قعدتـك قصـادي في المـترو، وسـاعتك الـلي متصـوّر بيها وبانـت لي مـن شـنطتك يومهـا وانـت عامـل فيهـا جحـا. وبـردو فوّتّهـا لـك. مـا انـت خايـب.. زيّ مـا ابـوك كان بيقـول عـلى أخـوك الكبـير.. خايـب".

ضغـط مختـار راحتـه فـوق صـدره بقـوّةٍ أكـبر، في شـعورٍ بالتّـورّط، وهـو يعتـصر قميصـه بأصابعـه وأظفـاره: «ماكانـش قصـدي.. والله مـا كان قصـدي".

بكـى الرّجـل.. بـدا لا يملـك أيّ قـدرةٍ عـلى المقاومـة أو الثّـأر لكرامتـه، مَثَلُـه في ذلـك كالعجـزة والكسـيحين.

"بـسّ توصـل إنّـك تحـاول تهـاك حسـابي.. فأنـا قـادر أردّ عليـك الضّربـة.. ضربتـين".

_"أنا ما أذيتكش.. كنت عايز صاحب".

انحنـى ظهـره وتقـوّس، وبـدت سـاقاه غـير قادرتـين عـلى حملـه، فتحـتُ معطفـي قائـلًا في بـرود: «ماتقـدرش تأذينـي.. أنـا غـيرك".

نظـر إليّ في توجّـسٍ، وأنـا أخـرج الكومـة مـن معطفـي، وهـو غـير أكيـدٍ ممّـا أحمـل بـين يـديّ، حتّـى بـدت أوراقـه المسروقـة، المكتوبـة بخـطّ يـده في حـوزتي، وهـو يُدقّـق فيهـنّ النّظـر مـن موضعـه..

"دي حيـاة السّـتّ زينـب الـلي راحـت في مفتـاح حديـد مصـدّي".

سقط مختار، وأنّ وأنا ألقي إليه بكومة أوراقه!
رأى كلماته عن قريبٍ؛ فصُعِق: «إزّاي؟!».
وضع الرّجل راحة يده فوق صدره، وعصر قميصه عصرًا من الألم، وعيناه تدمعان في حُرقة..
"ال..حرامي!".
تهدّجت نبرته؛ لأهزّ رأسي نافيًا..
"ماما افتكرتك".
_"شيطان!".
ناح مختار دون صوتٍ، وفتح فمه وهو يطرد الهواء كأنّه صراخٌ مكتوم..
يعيش الغريب الفزع الأكبر..
أخرجت صورتي وأنا أحتضن فاطمة في صحراء زايد، وألقيت بها أمامه من تحتي.
"ودي.. حياتك".
نظر مختار إلى الورقة السّاقطة بين قدميّ نظرة أخيرة، وهو جاثٍ فوق ركبتيه..
ذلك التّاريخ المرضيّ لعائلته، هو ما أفقده أباه.. وأفقده أمّه، وهو ما سيلحقه بهما عن قريب.
هبطتُ بجسدي مقرفصًا، ثمّ جاثيًا فوق إحدى ركبتيّ، واحتضنت الغريب بين ذراعيّ في إشفاقٍ مريضٍ؛ لأهمس بكلماته القاسية في أذنه بطيئًا ومؤلمًا كالموت ذاته:
"هناك معربدون وجرابيع أنسابهم متّصلةٌ بآخرين أمثالهم وأنسالهم باقيةٌ لأجيالٍ قادمة، بينما والدك الصّالح؛

فسينتهي «سلساله» بك.. وبك أنت، أمّا أولئك الإخوة فلن يحملوا للحياة إلّا إناثًا، أو ذكران لا يحملون إلّا إناثًا.. حتّى ينقطع ذكر الرّفاعيّة عن العالم!".
وحين فرغت من كلماتي نظرت إليه نظراتٍ ملؤها البرود والخواء..
كان قلبه المُصاب.. قد توقّف إلى الأبد!

***

حملتُ أوراق مختار، وسرتُ في ثقلٍ نحو الحافّة الشّاهقة يتبعني شيطاني المريد، ذلك الّذي سيبيعني النّجاح والثّروة لقاء قرباني الثّمين. ألقيت بالأوراق فوق الجرف كي يتناثرن في الهواء. وأطلقت نظرة كارهةً طالت أحياء القاهرة وشوارعها، وجميع قاطنيها من العرب والمصريّين والأفارقة. إنّني قادمٌ لأنال منكم جميعًا.. في التّوقيت والمكان المناسبين؛ فأنتم وأنا من اشتركنا في قتل هذا الهالك المسكين منذ لحظاتٍ قلائل. لستُ وحدي القاتل، ضحكت!
بل أحسب أنّني ـ ولغرابة الأقدار وحدي ـ ذو يدٍ بيضاء على الرّجل نفسه؛ فقد تمنّى من داخله النّهاية الّتي لم يحملها إليه سواي، وحدي من أمّنت له الخلاص من عذاباته الدّائمة، عذابات الرّفاق والإخوة.. والغرباء.
أقول أنّنا بطريقةٍ أو بأخرى: قضينا مجتمعين على آخر أمنياته في الحياة: بين من تلاعبت بمشاعره الصّادقة نحوها، من تكسّبوا من وراء مأساته، ومن أخرجوه من

شقّة أمّه ومأواه ليحلّوا محلّه، وفي الأخير من قتله لرغبةٍ آثمةٍ لشيطانه المريد!

ليس ثمّة دافع جنائيّ لقتل الرّجل الّذي توفّي لتوّه بنوبةٍ قلبيّةٍ مباغتة، أو حتّى محض شبهةٍ قد تحوم حول أيٍّ من معارفه. لن يعلم أحدٌ الحقيقة الّتي علمت بجذورها وأفرعها، وأبعادها الكاملة. سيظلّ مجهولًا ذلك السّبب الحقيقيّ لوفاته، حتّى أنّه هكذا ستُحدّد أسباب الوفاة في سِجلّات الشّرطة إثر اكتشاف جثمانه من قبل فردِ الأمن المسئول، واستدعائه للدّاخليّة فجر اليوم ذاته..

ليُدوّن كاتب المحضر في ساعته وتاريخه:

"بعد الاطّلاع على تقرير الطّبيب الشّرعيّ المرفق بمحضر الشّرطة، تحدّد أنّه في يوم الرابع عشر من يناير، لسنة ٢٠٢٣ وفي حدود السّاعة الرّابعة صباحًا توفّي المرحوم/ مختار عبد الحيّ الرّفاعي؛ أثناء تواجُده بالسّطح أعلى برج فداء المعادي، ولدافعٍ مجهول. إثر انخفاضٍ حادٍ في الدّورة الدّموية لسببٍ طبيعيٍّ أفضى إلى الوفاة.

بلاغ رقم ٢٤٣ لسنة ٢٠٢٣.. الشبهة الجنائيّة: لا توجد.

يُحفَظ".

تمّت

## "نصّ أوراق مختار عبد الحيّ"

### مقدّمة

مددت جسدى وجمعت ساقىّ وأفردت ذراعىّ كأنما صُلّبتُ إلى الأرض، بينما تعلّقت عيناى بالسقف الأبيض الفارغ.. كانت تلك هى الساعة من كلّ يوم الّتى تخرج فيها كوثر؛ لتجفّف ملابس أسرتها فى الشّمس، وعيناى تراقبانها من خلف باب الشّرفة، لا أعلم لماذا.. لكنّنى اليوم أحببت صقيع الأرض وقسوة الحوائط أكثر من اختلاس النّظرات إلى ذات الابتسامة الساحرة والوجه المتلألئ بالحياة.

انهمك الجميع فى أشغالهم بالمنزل.. لا زلت أسمع أصواتهم من وراء هذا الباب المغلق من الداخل وهم ينمون ويثرثرون كما أحببت دائما أن أفعل.. لا أعلم لماذا فى تلك اللحظة احتقرت هذا الضرب من الأفعال!

هززت رأسى قليلاً؛ لأخرج منه فكرة أنّنى قديس، وتذكرت طرقات إخوتى على الباب والموسيقى الّتى ترتفع بعد ذلك، وصوتى وهو يصرّح: «أنا أسمع الأغانى".

آه يا كرّاستى القديمة كم امتلئتِ بالسّباب والبذاءة.. من كان ليعلم أنك وجهى القبيح الّذى أخفيته عن النّاس خلف قناع الأدب والفضائل!

ركّزت بصرى على تلك البقعة من الفراغ، والتى لا تختلف عن باقى الحائط، واستجمعت صورة معلّمى المدرسة وهم يقبّلون طالبهم المثاليّ مختار عبدالحى الرفاعى، وهذا الرجل الأسمر البدين وهو يقول لى: «سلّم لى على بابا يا مختار".

شعرت حينها أنّ عليّ أنْ أمسك بمقعد المدير وألصق وجهه في الحائط، لكنّني ابتسمت وأومأت برأسي.

كان ذلك الفتى مدّعي الثّقافة يقول لي: «حافظ على عدائيتك لمن حولك، ولكن إيّاك أن تظهر ذلك، حتّى ولو صرت قويًّا كفاية». لكنّني كنت أعلم بالفعل أنّني ضعيفٌ ولا أقدر على إظهار الكراهية، وأيضًا قويّ الذاكرة؛ فلا أنسى لماذا أكره، وغير قابلٍ للتّأقلم ممّا يدفعني للموت كمدًا وببطءٍ شديد.

سمعت الطّرقة المعتادة على الباب وذلك الصوت الذي يتبعها: «الأكل يا مختار".

"حاضر». إنّه ذلك الاستسلام للرّوتين اليوميّ، والوقت الذي أُرغَم فيه على البقاء في غرفةٍ واحدةٍ مع أسرتي لتناول الطعام.. أقوم متثاقلًا وكارهًا للحياة؛ كي أفتح باب الغرفة، وأبدء باستنشاق رائحة الطعام غير حافلٍ به، ثمّ أجلس بجوار والدتي كما اعتدت..

"بسم الله الرحمن الرحيم"

ويحلّ الصمت كما يجب للصّمت أن يكون؛ فلا يصل إلينا إلّا أصوات الشارع وأزيز المروحة.

قرأت ما كتبت في الكرّاسة منذ سنواتٍ طوال: «إنّهم يقيّدون حرّيّتك في كلّ يوم عندما ترتدي وتأكل ما يشترون بأموالهم، بل عندما تتحدّث بلفتهم وتنطق بألفاظهم.. إنّ كلّ ما تملكه في هذه الحياة هو ما ورثته عن والديك، وما رأيته مع إخوتك.. حتّى ملامح وجهك التي ستصاحبك إلى قبرك هي أثرهم وطبعهم فيك.. حياةٌ بغيضة!".

ها أنا ذا أعيش على تلك اللّقيمات الّتي لا أكثر منها، وأقوم عن الطّعام قبل أن يقوموا؛ حتّى لا أشعر بمزيد من العبء، وأعود الى الغرفة بعد ترجّي والدتي كي أكمل الطّعام.. هناك حيث أفتح الباب وأتركه للعابرين ينظرون إليّ وأنا أكمل رسم المنمنمات الّتي سلبت من عمري الكثير عن طيب خاطر.. ذلك هو الشّهر الثّاني وما زلت عاكفًا على نفس اللّوحة بل نفس التفصيلة الصغيرة من رداء ذلك البحار المغربيّ..

"دعك من هذا يا بنيّ، وتمتّع بالحياة كما يفعل الجميع». ماذا أفعل؛ عندما أسمع تلك العبارة تتردّد على مسامعي عشرات المرّات، إنّه والدي على أيّة حال، لكنّه لا يعلم ماذا أريد وبما أشعر، وأنا لن أسمح لنفسي بكشف أفكاري وعدائيّتي له.. اللعنة! لا مفرّ من الابتسامة المصطنعة لبعض الوقت.. ربّما أيّامٍ أو أسابيع؛ حتّى تهدأ الأجواء وأعود لحياتي البائسة الأثيرة.. أتمنّى..

"ما هو السّبيل للتحرّر من كلّ قيد؛ لا أعلم؛ فحتّى نسمات الهواء التي أستنشقها أكاد أشعر فيها بامتزاج الأنفاس الدّافئة لهؤلاء.. و»هؤلاء» سيظلّون للأبد عقدتي الباقية. كم تمنّيت أن أصبح الإنسان الأوحد في هذا الكون، أسمّي الأشياء كما أريد، وليس كما يفرضون عليّ.. أجني ما أرغب بيدي العاريتين، وأنا أنظر إليهما وأدرك أنّهما لا تشبهان يدي والدي وإخوتي الكبار.. أهمس بما أحببت أن أهمس به دائمًا:»جنا جو كي جنا أوم".

نعم؛ فأنا أفعل ما أحبّ، وأقول ما أحبّ بلغتي الخاصة التي لا

يحتاج أحدٌ إلى فهمها؛ لأنّه ببساطة لا أحد غيرى فى هذا الكون.. اللعنة!".

إنّها أصوات الأحذية وهى تزحف وتلعو الأسفلت، ومن حولها تتعالى الضّحكات، وفتيةٌ على ناصية الشّارع يتعاركون كالثيران ويهزلون، بينما تنظر الفتيات فى امتعاض مصطنع إلى الشّجار البهائمىّ والأردية الضّيّقة الخانقة للعضلات، وذلك الخيال الضّخم يحجب بقعة الضوء أمامى، ويقترب الفتى كاشفًا عن كفٍّ عريضة: «لا حول ولا قوّة إلّا بالله!". كنت أعلم جيّدًا أنّ عقل عائلة «بطّيشة» لا يختلف كثيرًا عن أجسادهم؛ فهو سميكٌ ومتخمٌ بالهراء والتّوافه، غير أنّ لذّتى للتّرثرة بكلام متكلّف كانت دائمًا ما تدفعنى لإيجاد أذنين بحجم أذنى «السّعيد»؛ كى أبصو فيهما حصيلة سنوات القراءة.. وهو بالتّأكيد لن يجادلنى حتّى يظهر لى أنّه متفتّحٌ كفاية، ولديه من الذّكاء ما يؤهّله لاستيعاب مصطلحاتى المعقّدة..

"يا سهرانين فى القمر ليل الغريب ضلمة..
يا عينى يا ليلى.. ولا قنديل ولا نجمة"

نجيب سرور

يسارع «السّعيد» بفتح موضوعٍ أو إثارة مشكلة؛ كى لا أسترسل فى تلاوة الشّعر؛ فكم يصعب على تلك الكتلة من الفراغ أن تستوعب حديثًا طويلًا عن أمرٍ لم تفقه عنه شيئًا من قبل، وخاصّةً أنّنى بارعٌ عندما أتّخذ الشّعر وسيلةً للادّعاء الاكتئاب، ومن يعرفنى فى تلك اللّحظات تحرّكه غريزته؛ كى

يبقى فمى مغلقًا، لا ينطق إلّا فى حدود الرّدود التى تصدر منّى مقتضبةً فى غضب واضح جرّاء مقاطعة حديثى..

"أنت تذكر الله كثيرًا عندما تمرّ بجوارك فتاة، وتظلّ تستغفر وأنت تتفحص ملابسها، ثمّ تمرّر لى التّعليقات: «أصل الدنيا خربت»؛ كى تخفى عنّى ولعك بقلّة الأدب، وتوجد مبرّرًا للنّظر إلى البنات فى الشّارع.. أنت أبيع يا سعيد".

لا يعلم هذا الغبىّ كم يبدو وجهه مكشوفًا لى، أو ربّما يعلم، لكنّه يصرّ على لعب دوره، وهو موقنٌ بأنّه ممثّل فاشل، ويكون ردّه دائمًا متوقّعًا بابتسامة اعتراف وكلمات منكرة:

«أنت دماغك شمال يا مختار. والله لقد أسأت فهمى".

لا أدّعى تشابهًا بين شخصيّتى وهذا الكائن العملاق، إلّا أنّنى أحبّ الفتيات مثله أو أكثر، ربّما طريقتى فى ذلك مختلفة، لكنّ الأكيد هو أنّنى بارعٌ فى إخفاء هذا الجانب من تكوينى؛ فقد خلقت ممثّلًا!

"لقد سمعت من قبل أنّ من النّاس من يحبّ أن يحمد بما لم يفعل.. لم أتعجب من هذا القول؛ لأنّنى أعلم أنّ الجميع ينتظر الثّناء على أشياء لم يفعلوها، أو لأشياء لا تستأهل ذلك؛ فعندما تضيق بى الحياة أحدّث بعض الأصدقاء من خارج دائرة أسرتى وأشكو لهم مسالب شخصيّتى لا الحياة؛ كى ألقى الردّ الذى أريده فى النّهاية: «إنت أعزّ أصدقائى يا مختار، وربّما أنّك لا تعلم بأنّك قريبٌ لقلبى كأخى. لا تظلم نفسك؛ فأنا لم أرَ صديقًا مثلك فى حياتى".

لقد تعلّمت جيّدًا كيف يستطيع الشّيطان أن يكسب المودّة

بإظهار ضعفه، وحفظت عن ظهر قلب الخطوات الأثيرة لذلك. ربما يسمّيه البعض «علم النّفس العكسيّ»، لكنّني لا أهتمّ حقًّا بتلك المسمّيات، لأنّ شخصًا كهذا لا يهمّه المسمّى العلميّ لما أفعل، بل يهمّه أن يبرع في دور الصّديق الوفيّ كما أبرع في دوري، دون أن ينال أجرًا لذلك إلّا الشّعور بقيمته في الحياة.." لو لم يقلها شكسبير

قبلي لقلت الأرض مسرح
والنّاس فوقه الأرض محض ممثّلين
فتح السّتار على البداية
ضمّ السّتار على النّهاية
لم يبقَ إلّا الصّمت من بعد الرّواية
ما أشبه المسرح خلوًا بالضّريح"!

نجيب سرور

ربّما لا يرتبط بعض الأشخاص بفكرة المصلحة، بقدر ما يرتبطون بفكرة الأدوار التي ارتضوها لأنفسهم بعد صراعهم الدنيويّ في مرحلة المراهقة!".

و كذلك فعندما أقرأ ما كتبت في كرّاستي، أكاد أرى وجه «عبد الحميد الخيّام» يطلّ من بين السّطور بابتسامة بشوش، وكلمات مطمئنة؛ فلا أحفل في ذلك إلّا بما شعرت به من نشوة النّجاح في إتقان الدّور.

حدّثتُ نفسي كثيرًا عن هذا، واستنتجت أنّني ربّما لست وحدي من أحبّ «كوثر»، لكنّني بالتّأكيد أكثر محبّيها ولعًا وبؤسًا.. أمّا كوثر، فهي «كوثر»، لا تقلّ ولا تزيد عن هذا:

فربّما ظلم الإنسان محبوبته إذا ما دعاها قمرًا أو غزالًا؛ لأن هذين الاثنين أو غيرهما لا يزيدان فى عينىّ العاشق بهاءًا عن ذلك المحيّا الآسر، أو تألّقًا عن تلك العينين الرهائمتين، أو نضرةً عن الطّفولة الفضّة، أو حيويّةً عن الشّباب المندفع. إنّها «كوثر» التى وقعت عيناى عليها فى أحد أيّام الطّفولة المعذّبة. كم أرغمتنى بشرتها البيضاء، ووجهها المتورّد بالحمرة، وعيناها الصافيتان أن أعود طفلًا كبقيّة هؤلاء.. أتمنّى ما لا أملك، وألتقط النّجوم بأصابعى من النّافذة.. أحلم بخصلات شعرها الذهبىّ نائمًا ويقظًا.. أسير على مقربة منها؛ كى أتنسّم عطرها.. أرى الطّفل النّحيل عارى الجسد يستعرض شبحه فى المرآة، ويتمنّى لو كان أكثر قوةً؛ فيجذب انتباه كوثر، أو يجعلها فقط تنظر إليه مرّةً واحدة، ثم تشيح بالبصر بعيدًا..

مرّت السنوات، ورأيت تغيّر ملامحها جليًّا، ووصفته فى كرّاستى تفصيلًا، وإن كنت قد أبقيت على حبّى الدفين فى أحشائى أربعة أعوام، لم أعد أذكر بعدهنّ الحبّ إلّا طيفًا شاردًا، وذكرىً طارئةً.. وعلمت بعدها أنّ كلّ شىء يذهب طىّ النّسيان، ولا تبقى إلّا أشباح الحقائق والماضى ذو الشّجون!

***

# عالم آخر

كانت الحياة حينذاك أشبه بالسّحر لأسباب غامضة.. يسير الطّفل بعد نوم عميق؛ ليرى بيته لأوّل مرّة في يقظة حائرة.. ينظر إلى الوجوه فيألفها، ويرتاح لوجودها دون أن يعلم الأسماء، ويهمس لنفسه بسرّه الأبديّ:

"البداية!

كأنّ الأحداث التي مرّت لم تكن سوى أشباح غير محدّدة الأشكال.. تهتزّ عوالمها الزّمانيّة والمكانيّة، غير أنّ الصبيّ صار غلامًا ففتًى فشابًا، يتذكّر ملامح تلك الأيام الخوالي كدفقات عابرة، يكاد يراها رؤيا عينه عندما يسمع أحاديث إخوته الكبار عن البحر، وكيف كان يلطم المياه بكفّيه الصّغيرتين، ثمّ يهرول مبتعدًا.. هاربًا من الأمواج المتلاطمة؛ كي لا تبتلع كتلته الضّئيلة، ويختفي إلى الأبد من فوق الرّمال..

"صباح الخير يا مختار.. أخوك أكرم خرج مع أصحابه، وسناء وبثينة في «الواسعة». أتحبّ أن تفطر؟".

من هؤلاء؛ لا أذكر إلّا بعض تلك الحروف المتقطّعة لأشخاص علمت بوجودهم من حولي في وقتٍ سابق، دون أن أعلم حيثيّاتهم أو صورهم، ربّما هم إخوتي كما تتحدّث والدتي، التي أدركت صورتها ولكن لم أعرف اسمها؛ فلم ينادها أحدٌ باسمها، كلّ ما سمعته هو لفظ «ماما»؛ لذلك فقد خبرت

أنّها «ماما»، واستنتجت بأنّ هناك شخصًا آخر يدعونه «بابا»، وأنّ هذين الاثنين هما الأكثر أهمّيّة وسطوةً بيننا، وعلى ما قد يُشعر البعض بالأمان؛ فإنّ تلك السّلطة الحاكمة كانت أوّل ما كرهت في الحياة، وأوّل ما أرغمت على تقبّله مبكّرًا، وأوّل ما أوقعني في التّناقضات!

نعم.. قبلت المجئ إلى الحياة بإرادةٍ حرّة.. لا تسألوني كيف؛ لأنّني لا أعلم.. لقد شعرت بطيف تلك الحقّيقة قادمًا من عالم آخر، وقبل أن أصبح جنينًا قادتني الفطرة والغرور، وثقتي بما لا أملك إلى الموافقة على المجئ معتقدًا بأنّني سأعجز البشر بعبقريّةٍ فذةٍ ومجدٍ لا مثيل له.. إنّ ذلك الكائن القابع هنا أو هناك يضحك بطريقةٍ هيستيريّة؛ لأنّه أوقعني في الشّرَك المقدّر لي الوقوع فيه.. لم أعلم بوجود ذلك الكائن إلّا بعد عمرٍ طويلٍ على الأرض، ظننت فيه أنّ بإمكاني أن أصدوه الفطرة والغرور والثّقة بأعمالٍ معجزة، غير أنّني لم أفعل، وصار ذلك الشيء يتولّد من قيعان اليأس، وينمو في ظلمة قلبي ساخرًا من العالم الموازي الذي تخيّلته.. الجنة التي أصبح بديلها الجحيم الأبديّ!

إنّه العقل الذي حوّل أبسط الأشياء إلى سحرٍ حيٍّ يجمع كلمات الأغاني الغربية، والألحان المتداخلة، ويمزجها بأصواتٍ من الماضي لأشخاصٍ جهلتهم ، وصورٍ نسيتها، وأمكنةٍ مألوفةٍ من زمانٍ سحيقٍ لم أعد أذكرها..

إنّه العالم القديم الذي لم يطّلع عليه أحد، كامنٌ في أعماق الأغوار داخلي، لا يمكنني كشف أمرٍ منه إلّا ما عرض عليّ

من صفحاته المسطّرة بلغةٍ عجيبة: فلا أدرك إلّا لفظين أو صورتين، أو شعورًا بالانجراف إلى تيارٍ باردٍ يغمرني بحنينٍ وصقيع، ورغبةٍ في الهروب من العالم!

وذلك اليوم الذي لعبت فيه مع هؤلاء البلهاء: فقيّدوني بأيديهم، ووضعوا عصابةً فوق عينيّ، وقادوني إلى مكانٍ آخر في البلدة ثمّ هرولوا مبتعدين. أزلت العصابة ونظرت حولي.. كنت وحيدًا.. وفي ذلك المكان الآخر شعرت بالخوف، وانتقلت عيناي من الحوائط المتشقّقة إلى البهائم والأغنام، ثمّ مازجني شعورٌ بعدم الاعتياديّة والرّغبة في الرّجوع: «إنّهم يعلمون ما لم أعلم وهم في مثل عمري أو يقلّون!». جريت في الأنحاء أنادي أسماءهم، وأسبّهم واحدًا واحدًا؛ فإذا بضحكاتهم تتعالى من بعيد، وأصداء أصواتهم تصلني: «لست على قدر اللعب!".

كيف غابت تلك الخواطر عنّي تلك المدّة الطويلة؛ ولمَ لمْ أعد أرى مشاهد الماضي؛ بل لمَ لمْ أعد أفكّر فيه؛ ربّما لأنّه أصبح حملًا هائلًا يثقل كاهلي؛ فصرت أتخفّف عنه بعدم التّفكير فيه، وربّما لأنّ النّدم ليس من شيمي؛ فما أنا عليه دائمًا هو نتاج السّيّئ الذي يدفعني للأمام والجيّد الذي يبقيني مندفعًا؛ فلا حاجة إذن للالتفات إلى الماضي. هكذا علّمتُ نفسي قديمًا، وظللت متمسّكًا بذلك بفطرةٍ وكبرياء. جرفني الحاضر الّذي لم أملكه؛ فتسلّيت عنه بالحلم والتّمنّي، وكان إغراقي في أحلام اليقظة مقدّمةً لما أوشك أن يصبح النّهاية الحتميّة..

"أمّا اليوم، وقد علمت أنّ كوثر صعبة المنال؛ فقد صنعت أخرى تليق لى، تبتسم عندما أرغب كى يبتسم العالم.. كوثر تشاركنى مسيرتى وأحاديثى، تعلّو وتصمت، تؤنسنى وتخاصمنى، تجاورنى فى فراشى الفسيح حين ليل، أضمّها بين ذراعىّ كالطّود الذى يحضن زهرة، حيّةً وليست حيّة، أراها ولا يراها أحد".

حتّى مرّت ثلاثة أيام، وخفت أن أصاب بهلوساتٍ بصريّة؛ فتوقّفت قبل أن أتجرّع السمّ بعد موت شبحها..

***

# قبل الصّدام

كم كان ذلك الطفل الذى يسير بخطوات مرتبكة فى الشّرفة والصّالة أحمق عندما ظنّ أنّ بإمكانه أن يصوغ ملامحه كيفما يشاء؛ فيصبح هائل الجسد كجبل، عظيم البطش كالقوّة ذاتها، حرّ النّفس كنسرٍ محلّقٍ ممتلىء البطن، عديم الرّغبة كما يجب لراهبٍ أو قدّيس!

بل ظنّ أنّ كلّ ما يأتى به من فعلٍ أو حركةٍ عابرة، إنّما هو خطٌّ فى رسمه المنتظم، ومكوّنٌ لكيانه الكامل غير المنقوص. أرى الآن ذلك الكائن القابع فى الظّلمة يشير إلى رأس الصّغير ويستهزئ به.. كيف لم يأخذ بالًا لذلك التّصوّر الخاطئ، بالرّغم من كل تلك العلامات والدّلالات؛ فهو الآن يسرع فى أرجاء بيته ويصدم أنفه فى الباب مرّاتٍ عدّة!

وهو أيضًا الذى احتضن الحائط بدرّاجته «أمّ ثلاث عجلات» وسقط مجروحًا فى رأسه!

ربما لم يحسب الصّغير حسابًا لكلّ شىءٍ فى حياته كما اعتقد.. ربما..

"أنا ما هنت فى وطنى ولا صفّرت أكتافى..
وقفت بوجه ظلّامى يتيمًا عاريًا حافى".

توفيق زياد

أكتم ضحكة متحسّرة فى أعماقى.. هذا أنا مختار عبد الحىّ الرفاعى، أسير بين هذا وذاك؛ فلا يحفل بى إلّا من عرف

ظاهرى عن حوّ.. نشأت فلم أجد وطنًا أو أهدافًا أو حتّى عدوًّا يلقى لى بالًا.. كما لم ألوَ من الهوان إلّا ما وضعت على رأسى من دافع التّغيير، وعار العجز أو التّقاعس!

كم حسبتُ الجميع خصومًا لى، ولم أضع لنفسى قدرها من الخصومة.. كان مختار هو عدوّى الأوّل، ومازال هو ذلك العدوّ، وسيبقى حتّى موتى قائمًا بالعداء.. إنّه الكائن القابع فى ظلمة قلبى يضحك مجددًا.. يا لغبائى!

ماذا نسيت من أفكارك عندما تنمّر عليك هذا الفتى وأرغمك على النحيب؟

أنّ عليك تملّك شعورك وتحمّل الضّربات؟ أم أنّ لا فارق بين النّظرية والتطبيق كما اعتقدت دائمًا؟ لم يكن هناك زعيمٌ للأبالسة يعتقد بغير ذلك، ولم يكن هناك ملاكٌ حارسٌ يجزم بأنّ ما غاب عنك فى التطبيق إنّما كان لعدم رسوخ النّظريّة.. كلّ ما كان هناك هو فتىً يظنّ ولا يجزم، يحمله ضعف إرادته إلى التّسليم باحتماليّة خطئه كلّما وصل إلى مفترق طرق؛ فيتراجع عمّا ظنّ بصحّته تلقائيًّا، وها هو ذا الطّريق الذى رفض أن يسلكه يقف فى نهايته رجلٌ متهالكٌ بعد أن عاش كما يجب أن يعيش، وعرف المجد كما لم يعرفه أحد، تاركًا خلفه من يحمل مثاليّته إلى العالم؛ كى يخلد اسمه أبد الدهر!

وها هو الواقع الذى سيّر فيه بعبث خطواته وإرادته الحرّة، لا مكان للسّعادة فيه إلّا موضع نبتةٍ فى قلب الطّود العظيم. كم أراد أن تصبح كوثر فى موضع تلك النّبتة، ولكن اجتمعت

كلّ ملذّاته فأكلت وشربت من النّبتة، وتركتها ذابلةً ومتجذّرةً في قلبه!

لم يكن «شكسبير» أعظم من كتب يومًا ، وإنّما إنسان في بقعة من الأرض فاضت نفسه بالمعاني والأحداث؛ فسجّلها في قلبه وصمت.. كي تغيب عن البشرية أعظم قصةٍ لم ترَ.. قصة ظلّت سجينة في صدرٍ كتوم؛ حتى تلاشت مع أنفاس الموت الأخير.. فلماذا لست أنت؛ ربّما لن تعرف ذلك يومًا! بل لماذا لست أعظم من ولد لرجلٍ وامرأة؛ ربّما لأنّك لم تعتقد بأنّ ذلك ممكن.. ربّما أنّك اعتقدت بذلك، ولكن ظننت الطّريق صعبًا، وهذا الظّن جعلك ضعيفًا ومستسلمًا لحركة الأحداث والأشخاص من حولك؛ فصرت واحدًا من الجميع ولم تصبح «الواحد» بينهم.. ربّاه! كم ذلك عسيرٌ عليك!

إنك تموت كمدًا.. كما يجب أن تموت!

ما الحلّ إن أردت أن تقود سيّارة قديمة الطّراز بسرعة تتجاوز سرعة الصّوت؟

هل تغض الطّرف عن ذلك وتسير بقدرات سيارتك؛ أم تشرع في تحسينها وأنت لا تملك العلم والقدرة على ذلك؟

قد أملك العلم والقدرة بداخلي ولو نظريًا، غير أنّني لن أستطيع الصبر حتّى أحيل النّظريّة واقعًا حيًّا.. كم أتوه أن أنطلق بسرعة الضوء لو أمكن، ولكنّني ما ألبث أن أعمل على ذلك حتّى أسأل نفسي لماذا وما الهدف، وتمرّ لحظاتٌ صامتةٌ أشعر فيها كأنّني ولدت من جديد، وكأنّه لم تمر بي الأيام والحوادث، وأعود لأفكّر في البديهيّات.. فاقدًا بذلك كلّ

المقدّمات الأولى؛ فلا أصل إلى نتيجةٍ تذكر.. أتوقّف وأنا على شفير الموت متسارع الأنفاس، محدّقًا إلى الفراغ.. كلّ تلك الأعوام مرّت ولم أستفد منها بأمر! كم أتمنّى أن أصبح «لاشيء». عدمًا.. ليس جزءًا من شيءٍ وليس كلًّا لشيء، متحررًا من جسدي الذي أدركت اخيرًا بعد صراعٍ مريرٍ أنّه فرض عليّ ولا مفرّ منه؛ فأنا أطأ الأرض بقدمين ولا أطير، لا أستطيع التّوقف عن التنفس أبدًا.. إنّني أسيرٌ لكلّ ما يحيط بي من أشياء، حتّى الهواء نفسه، وجسدي أسيرٌ مثلي للواقع المحتّم..

ولكنّني أعلم بأنّ هذا الجسد هو فقط وعاء للنّفس. ليست كلّ القوّة فيه كما يعتقد الأغبياء، وإنّما القوة المحرّكة هي شجاعة النّفس، والنفس فقط هي التي تأمر، هي التي تستجيب للحرب، وهي التي تعلن الانهزام.. بل هي التي تنهزم طواعية.. أيها الأغبياء! إنّني أرى الواحد منكم يتلقّى لكمتين فيتراجع، ويبكي بحرارة ربّما إذا تحولت إلى ضربة واحدة لسحقت العدوّ أيًّا من كان؛ فهو ليس كاملًا.. إنّه ضعيف مثلكم جميعًا.. إنّني أرى هذا المنهزم يقف منتصبًا على قدمين؛ ليعود ذليلًا إلى بيته بعد أن اعترف للضعيف الآخر بقوّة لا يملكها ولا يملكها غيره.. فمن انهزم: الجسد أم النّفس؟

***

# الصّدام

إنّنى كيانٌ هائل من العظم البارز، عليه لطختان من اللحم الرّقيق.. صرت عظيم الجسد كما أردت، ولكن لست عظيمًا كجبل.. أرى كوثر هناك، أظنّها لمحتنى أحدّث هؤلاء من حولى؛ فنظراتها الحادّة تترك آثارًا فى عظامى كطلقات كلاشنكوف لا يخطئ، نسيت ما علمته دائمًا وتذكّرت هيئتى واقفًا بين رفاقٍ أجمل منى بملابس زاهيةٍ غير جذّابةٍ فى واقع الأمر، لكنّها كانت ملائمةً لى كما شعرت حينها.. كيف لم ألحظ أنّها اصطفتنى من بينهم فى لحظةٍ عابرةٍ من الزّمن لسببٍ لا أعلمه.. كانت عيناها تتعقّباننى دون أن آخذ بالًا، أشعر بها حين ألتفت؛ فتلتقى عيوننا وتتصادم فى تعمّدٍ واضح، وأظلّ لا أدرك منها إلّا التّجاهل، ولا أعلم منّى إلّا أنّنى أدمنت النّظر إليها.. كم كنت غبيًا آنذاك!

لماذا دائمًا يسيطر النّسيان على لحظات الصّدام.. يتوارى العقل، وتسيطر العاطفة اللحظيّة والغريزة.. أرى الجائزة معلّقةً فوق جرفٍ منحدر؛ فأسرع إليها كما يجب لكلبٍ يلهث خلف العظام، ولا أرى غيرها كأنّما علّقت فى الفراغ بحبلٍ وهمى.. ألتقطها بكُلّيّتى، وأهبط فى وادٍ سحيقٍ من الهلاك!

وأرى هذا المدّعى يرفعُ صوته كى يخيفنى؛ فأتراجع وأجمع جسدى بين ذراعىّ، ولا أبصر أمامى إلّا الألم أو النّجاة.. حينها تبدو النّجاة جائزة كبرى يجب اقتناصها.

إنّنى لا أشعر بالأمان إلّا هنا، داخل هذه الكرّاسة اللعينة.. أواجه ضعفى بقوّةٍ مدّعاة، وأعلم أنّ الكلمات لن تردّ علىّ الضّربة بالضّربة، أو الإهانة بالإهانة.. كم يشعرك الورق الهشّ بقوّة عظامك! وكيف تطلّ فتاةٌ مثل كوثر باسمةً عبر السّطور؛ لتعلن حبّها الباقى لك، وولائها غير المقيّد!

كم أصبحت عظيمًا من الحبر والأوراق؛ وكم اتّبعك من الأشخاص المؤمنين بك؛ فأرواحهم ليست سوى حبرٍ بمدواة.

لقد أصبحت «مختار» العظيم، بل الأعظم؛ فاهنأ بما حقّقت، واشكر رسغك الذى حرّك يمناك وأناملك الممسكة بالقلم، وصاحب المكتبة الذى باعك المجد بجنيهٍ واحد!

بل اشكر عقلك الذى عبر عما عجزت عن فعله بحياتك البائسة..

وإن التّرصد طال أفلاك السما

.. فلنجمك البرّاق ألفا مرصدِ !

هراء..

إن كنت عظيمًا كما تدّعى؛ فلم تكتب كى تمجّد نفسك بما لم تفعل بعد؟

كنت تعلم تمام العلم أنّك تفخر بذلك الشّخص فى نهاية الطريق الذى لم تسلكه؛ لأنّك لن تدرك لحظة المجد كى تستحقّ الفخر، لقد أردت تلمّس النّور وأنت فى أعماق الغور المظلم؛ فمنّيت نفسك بالأمانى التى توجعك لا تبشرك.. دعك من هذا.. لقد علمتُ طريقى منذ بدأت الطريق.. ذلك الشّطر من اللّيل حين جمعت أشلائى فى الغرفة المغلقة، واعتصرت قلبى بين ضلوعى كى يخرج من عينى دموعًا

كاذبةً عن شقائي في الحياة.. وعندما حاولت أن أبكي ثانيةً، وجدت عينيّ جافتين، وعلمت أنّ ذلك الرّفيق الذي استعذبته يومًا قد فارقني، وترك مكانه حزنًا عميقًا لا يملك أن يبوح بأكثر همومه وأقساها.. أنا!

وصرت أتحسّس آثار هذا الدّمع اللّعين؛ فما ترك من ندب في القلب إلّا نبشته بأيدٍ عاريةٍ وأظافر نهّاشة؛ فتركته قطعة بالية غير ما كانت.. قلب مسخ كما يجب لمسخ أن يكون؛ فإذا انتهيت منه إذا بي أتعلّل بالعقل عن سوء باطني؛ فساء العقل ولم يصلح الباطن!

"يا كلاب..
كبدي خذوه
يا ناهشي الأكباد هاكم فانهشوه
و ليرحم الله الضّحايا
يرحم الله الضّحايا".

نجيب سرور

تشكو الكلاب ثانيةً ودمعك يختنق.. تعصر عينيك كي تسقط قطرةٌ من جسدك المتألّم لا من قلبك المزّق. لم يكن هنالك الكلاب لينهشوا كبدك، وإنما كنت أنت من انتزعه من بين جنبيك، عندما أردت مشاغلة «كوثر»، وكنت تعلم أنّك لا تلبي طموحاتها كفتاةٍ لعوب؛ لا زال لديك هذا الخوف الحميد أن تظهر بعكس ما يظن الآخرون، وعندما ظهرت لك البداية أعرضت عنها بدافع الأدب، وصرت من بعدها تشكو قلبها المتحجّر أنّه لم يترك لك فرصة الحب.. واجه نفسك يا غبيّ:

فلم يكن هذا هو الحبّ الذى رجوته، بل لم يكن الحب هو ما رجوت.. اللعنة!

ظننت أنّك أعددت نفسك للصّدام مع العالم وحين جاء الأجل، شعرت بأنّ كل ما حولك صار خواء، وأنّ ما جاء وقته هو نفسك المحملة بالأمانى والعجز وضعف الإرادة، كلّ ما كان حولك من بشر وأماكن وأحداث كانت حوائط صمّاء لا تملك القدرة كى تؤثّر بك، وإنّما أنت من أعطى القابليّة لنفسه كى تفتعل التّأثّر وتنفى التّأثير عن ذاتها، كان عليك أن تصادم نفسك قبل أن يأتى هذا اليوم، وتربكك أشكال الحوائط من حولك، وتعى بأنّك تركت فجوة من الزمن خلفك أجّلت فيها أعظم ما كان عليك فعله: الصّدام!

***

# الحوائط الصّمّاء

بعد اول يوم تذكّرته في طفولتي صرت أنظر للوجوه كأنّما هي عوالم بذاتها. كلّ إنسان له قوانينه وتجربته، وربّما أسراره. كان عالم الأشخاص شديد الغموض والتّعقيد؛ ممّا أثار فضولي ناحية كلّ من رأيت، ظللت أسأل المقرّبين إليّ عن ذلك العالم حتّى ملّوا السّؤال وتبرّموا. وبعد أن قضيت من العمر ما قضيت، وخبرت من البشر ما خبرت، خلصت إلى أنّ البشر بكلّ ما يملكون من أفكار وآراء وكيان يحكم شخصيّاتهم يشبهون الصّور الإلكترونيّة. تبدو معقّدة وعلى درجة من التّركيب للوهلة الأولى، فإذا تفحّصتها عن قرب؛ لوجدت كلّ مربّع يحمل لونًا واحدًا هو صفة بشرية أو حدث أو قرار، ثمّ يجتمع اللون ونقيضه في حيّز واحد على غرابته فإنّه يعطي صورة متجانسة تمامًا تألفها العين على ما بها من تناقض خفيّ لا تعلمه لعدم إلمامها بالتّفاصيل وولعها بالكليات.

"من مثلك الأعلى يا مختار!".

صمتّ قليلًا، ثمّ اظهرت بادرة للإجابة، وغبت بعدها في وجوم؛ لم أشعر بأنّ بإمكاني تقبّل ردّ فعل الآخرين عندما أخبرهم أنّه: «لا يوجد» ليس لشيء إلّا لعلمي القديم بسوء خاطرتهم، وكيف سيظنّون السّوء بأبي وإخوتي الكبار؛ لأنّهم ليسوا قدوة لي.. آه.. كم أنتم أغبياء!

لم يكن هناك ما ينتقص من قدر شخص لمجرّد أنّه ليس قدوة لشخص آخر؛ لأنّنى ببساطة لا أسعى الآن لأصبح قدوة. ربّما سعيت لذلك قديمًا عندما قادتنى الفطرة للدّخول الى الحياة بإرادة حرّة، زعمًا بأنّنى سأصبح كاملًا غير منقوص؛ فكانت القدوة لى هى الفكرة المجرّدة التى يحملها الفرد حتى تحمله. الفكرة التى تتفتّق عن ذهن وقريحة، وما تلبث أن تصبح وعاءًا للعقل الذى حملها؛ فتحتويه، ويصبحان كلًّا متماسكا لا تنفصل اجزاؤه المادّيّة إلّا بالموت الحتمىّ.. عندها يصبح الشّخص ترجمة للفكرة فى عالم المادّة.

ذلك عندما سعيت قديمًا لأصبح الفكرة ذاتها، والآن صرت «مختار عبد الحى الرّفاعى» غير ذى القيمة..

حملنى أبى على كتفيه وصار يجول بى أرجاء الشّقّة. كم تبدو تلك اللّحظة بعيدة تمامًا كأنّما هى منذ ما قبل البشريّة. مرّت السّنوات القصيرة طويلة علىّ، وظلّ أبى كما كان: يمزح معى وإخوتى كما يمازح الأطفال، وعلى ما بدا فيه من اختلاف فى المعاملة كان ليوحى بأنّه شخص آخر. إلّا أنّنى علمت بأنّ جوانب من شخصيّته لم تبد جليّةً لطفلٍ فى الخامسة من عمره، وأنّ ما تبدّل هو رؤيته لصفحةٍ بيضاء أراد أن يمحو منها عجزه فى الحياة وإخفاقاته، ويرسم فيها الابن الذى طالما أراده، رآها تمتلئ بترّهاتٍ وعبثٍ عقيم. إنّه نفس الرّجل بعد أن ألقت الحياة على كاهله أعباءها وأمانيها.. وخذلانها!

كنت أعلم بأنّ ذلك الغضب الكامن داخلى سيدمّر كلينا حتمًا. كان والدى دائم الظّن بمثاليّته أو هكذا كان يجهر أمامنا،

وهو حقًّا على ما أعلم كان لينتظره شخصٌ آخر فى نهاية النّفق، لولا أن اختلفت خياراته فى الحياة، وتبدّلت بدافع العاطفة، وكان فيما مضى يكثر من أحاديثه معى لأنّه كان يعلم بأنّ إخوتى ضلّوا الطّريق الذى أراد، وكان هناك ما يدفعه دائمًا للتّمسّك بالأمل ناحيتى. شيءٌ صرّح به مرارًا على أنّه تميّزى وعبقريّتى غير أنّنى لم أصدّقه، ولم أعِه، وظلّ غامضًا لم أعلمه طوال سنى حياتى..

"هل هى الأولويّات الخاطئة؛ ما الذى يشغله؛ ليترك ابنه يحدّثه؛ فلا يجيبه.. آهٍ.. كم تبدو الصّفعات قويّةً من المقرّبين، تترك ندوبًا لا تمحوها السّنوات! كم يملؤنى ذلك بالغضب! بالألم الملتهب! بالدّماء الّتى تغلى! أريد أن أفجّر قلبى بداخلى، أن أموت دون أن أحدث صوتًا؛ كى يحزن هؤلاء علىّ كما لم يحزنوا.. أعلم أنّ حسراتهم علىّ ستغذينى فى عالم آخر أحترق فيه بنيران الجحيم، وأنا أراهم يدمعون، وذلك الرّجل الباكى هناك سيتذكّر ودمعه يختنق فى عينيه، كيف كان بإمكانه أن يتجنّب انفجار ولده، عندما أراد أن يجد من يحدّثه؛ فأعرض عنه، وتركه كى يفترس نفسه وحيدًا فى غرفته، ولا أحد ليمنعه عن ذلك".

لم يكن بإمكان الفتى أن يعترف لوالده المثالىّ بقصوره فى الاهتمام به، ولم يكن والده ليرضى على ما قدّم من تضحيات لأبنائه أن يتبرّم أحدهم من فترة صمت أرادها لنفسه مهما طالت؛ فقد صبر كما لم يصبروا.

هكذا منعت نفسى عن التّفكير بالزّواج؛ كى لا أعيد إلى

العالم دورته البائسة. إنّها الحياة التى تصفعنا دائمًا بمشكلاتها، تدفعنا إلى صفع الطّرف الأضعف فى المعادلة دون إدراك أو وعى، وينضج هؤلاء فلا تنضج إلّا لحومهم، وتتعفن نفوسهم من تحت أجسادهم؛ ثمّ يتزوّجون ليحملوا للعالم المزيد من المآسى والآلام. ومن سخرية القدر أن يظنّ الأجداد أنّ بإمكانهم تربية أحفادهم بأفضل ممّا ربّوا أبناءهم. وفى الحالين، فإنّ تلك الثّمار النّيئة تنال ما قُدّر لها من الصّفعات؛ كى تخرج إلى العالم كما قُدّر لها أن تخرج. إنّها تلك الحياة المريرة لإنسان عذّب نفسه بأمانٍ يغذّيها العجز وضعف الإرادة. أكثر مرارةً من أن تحكيَها رومانسيّة جبران، أو أن تتتابع الأحداث فيها من الماضى إلى المستقبل؛ فشأن الإنسان المدفوع بانفعاله أن يحتضن أشلاء مآسيه التى شكّلت ملامحه. أعمىً يبكى الشّلو تلو الآخر، وهو يتحسّس مرارة ما تركت الأيّام بين يديه؛ فلا يأبه أن يعيد شتات نفسه من الأرض؛ لأنّ ذلك يمنعه من بكاءٍ هو أكثر تعلّقًا به فى تلك اللحظات من لذّات الكون كما يحسب حينها، ويبقى يجمع الأشلاء من أطراف حياته الممزّقة؛ فبعد أن يبكى الكبر يتذكّر عذابات الطفل الصغير فى غرفته المغلقة، عندما اختبأ تحت فراشه باكيًا ظلم أبيه وأنيسه الوحيد، حين زلزل بنيانه النّاشئ بين عائلته؛ لمظلوميّة أحد أقربائه الكاذبين.. لم يستمع إليه بدعوى واجب ضيافتهم ولو تعدّوا حدود الأدب. كم تحمل على رأسك من مهانة الأقارب، وتجنّى المجتمع الظالم، وجور الحكم والأهل! كم عظم عليك أن تكسر قيودك،

وتترك الجميع يلقون بقذاراتهم في أوجه بعضهم البعض بدعوى «العشم» والأهلية! قبلت وضعًا خاطئًا، وفرضت على نفسك الفوز بقوانين مثالية وضعتها لنفسك ثمّ لمْ تلتزم بها؛ فرحت ترضي النّاس حينًا وتسكت ضميرك الحين الآخر. إنّها نفسك الشّقية تعذّبك، ولن تتوقّف حتّى ترديك! تذكّرت يومًا مقولةً سمعتها من أحد معارفي، يصف المرأة مخلوقًا شيطانيًّا، ويسوق أدلّته محمولةً بما يراه من مآثر أرسطو، واعتقادات غيره من الفلاسفة. لم أكن لأجزم يومًا، ولن أصبح جازمًا لأمرٍ ملاكه العاطفة وليس العقل؛ لأنّني أرى الإنسان يولد جسدًا ناشئًا، بداخله نفسٌ كاملةٌ خاليةٌ من العيب، ومدفوعةٌ بفضيلةٍ حملتها من عالم آخر. قيمةٍ في النّفس مستقرّةٍ في أعماقها السّحيقة، تلك الفضيلة التي أرست كليّاتنا على خيار الحياة؛ كي نبصر ونسمع ونتفاعل مع محيطاتٍ ماديّةٍ بجسدٍ ماديٍّ ومدركاتٍ حرّة الحركة داخل أطرها وقوانينها المقيّدة. تلك الأشياء التي طغت بكثافتها على رؤية الحقائق المجرّدة. هنا حيث لا يصبح الرّجوع إلى الوجود القديم ممكنًا، نفقد تدريجيًّا إيماننا بحقائق الاشياء، وتتنازعنا العوائد والطّباع الدّخيلة المستحدثة، لا فرق في ذلك بين ذكر أو أنثى؛ فالكل ينقص درجاتٍ من الكمال، ويكتسب قدرًا من مهارة العيش وفق قوانين غير منصفة، وعدائيّة تجعل القوّة حاكمةً لمسيرة الأشياء، ووحدها القوّة لديها المبرّر كي تتعدى حدود المفترض والواجب؛ فيكون الحقّ تابعًا ذليلًا لقوّةٍ مسيطرة.. يفقد قدسيته.. تلوكه ألسنةٌ سليطةٌ غير عادلة..

تسوقه يدٌ باطشة؛ كي تريح ما تبقّى من فضيلةٍ في عمقٍ سحيقٍ من النّفس؛ فلا تشمئز من واقعها المخزي المعادي لعالمها القديم. فقط هذا العالم الّذي يحمل الفضيلة والقدرة المطلقة متلازمين غير متناقضين.. لا يسوق أحدهما الآخر، ولا يتبع أحدهما الآخر.. كأنّما القدرة وإرادة الخير صفةٌ واحدةٌ لا تختلف إلّا من منظارنا نحن البشر.

لم أملك إلّا أن أأسى لحالينا.. تلك العاملة هناك، والتي حسبتها قد فقدت «التّكليف»، وصارت أقرب للكائنات الّتي لا تحرّكها سوى الغريزة.. ما تبقّى من أمومة، وانجذاب جسديٍّ للزّوج، وبعض الأصوات الّتي تطلقها غير عامدة؛ فتخرج كمواء القطط حين تجوع، أو تثاؤبات الكسلان، أو كلماتٍ غير متّسقةٍ تدعو فيها بالخير، وهي لا تدرك من معاني الخير إلّا سلامة أبنائها واستمرار نسلهم إلى نهاية البشريّة. ليتني أملك من القناعة مثل ما تملك؛ فهي تملك أكثر من القناعة؛ ربّما لأنّها قاصرة النّظر ومحدودة الطّموح، ربّما لا تعني لها القناعة شيئًا؛ فقد حظيت بأكثرَ ممّا أرادت بالفعل أو اعتقدت حتّى بأنّها تستحقّ. بالتأكيد كانت في يوم من الأيام كغيرها من البشر تطمح لأكثر ممّا وصلت إليه، لكنّ الظّروف المحيطة، واختيارها الحرّ بأن تفتعل نفسها التّأثّر بما حولها بدافعٍ من التّعايش وفق قوانين وشروط المجتمع، أحطّا من قدرها كإنسانٍ؛ فاكتفت بتعليق آمالها على حياةٍ فاترةٍ تنتهي كما تبدأ، لا تتعلّق فيها أنظارها بأبعد من قدميها، تموت على فراشها بعد أن تصل من العمر إلى ما

ينسيها حقائق بل حتى ظواهر الأشياء.. أمثال هؤلاء البشر يموتون قبل أن تغادر أنفسهم أجسادهم، يفرقون في التّيه، ويدفعهم ضعفهم وما تبقّى من أطلال مشاعر قديمة وصورٍ في ذاكرةٍ متأرجحةٍ بين الوجود والعدم إلى حبٍّ زائف، لا يملك خيارًا غير الإفصاح بكلماتٍ غامضةٍ من أحاديثَ ذات شجون.. كما يبدأ الطفل يعود، ويُردّ بعضنا إلى أرذل العمر؛ لكي لا يعلم من بعد علم شيئًا، وتعود ذاكرة الأحداث القريبة لتتشبّه بذاكرة الطّفل قبل وعيه الكامل بالمادّة، وقبل أوّل مشهدٍ يتذكّره بشكلٍ واضح، كعالمه السّحريّ القديم.. إلّا أنّه يصبح كئيبًا وغير مكترث، يستشعر خطوات الموت أكثر اقترابًا من ذي قبل.. لا يعلمه تمام العلم، ولكنّه يدرك بما تبقّى لديه من إدراكٍ أنّها النهاية! كذلك هي أمّي.

ربّما امتلكت ولا زلت أمتلك من حبّ السّيطرة والقيادة أكثر مما يجب.. لم يكن ينتقص من ذلك الحبّ البغيض إلّا العجز عن إخراجه إلى واقع الحياة؛ كي يهيمن على المحيط، وينتشر كانتشار النيران. قطعت شوطًا طويلًا وأنا أقنع نفسي بأنّ السّعي إلى المجد عليه أن يأتي دون استشعار لذّته، وأنّ المجد الذي أصنعه لن يقوى على أسرى بداخله، على فتنتي، على إيقاعي في عبادته وتقديسه.. لن أبتسم لإطراء أو أرضخ لانحناءة لي تفرض عليّ قسرًا.. كم أنا جبان!

لم أواجه نفسي بذلك الحبّ المتّقد الذي فاق حبّي لـ«كوثر»، وانتميت إليه بأكثر من انتمائي لوطني ومبادئي، لكنّ ذلك لم يمنعني من خيانة استحقاقات هذا الانتماء والحبّ.. فهي

ليست المرّة الأولى الّتى أُخيّب فيها ظنّ الملاك الحارس بى، ولن تصبح الأخيرة..

سُئلتُ عن سبب التّمسّك بالحياة: فأجبت: الخوف من الموت.. ثمّ عمّ الصّمت، وإذا بضحكة من مصدرٍ قريب «ماذا بك يا مختار؛ ما هذا الكلام؟». كانوا يريدون إجابةً علمتها مسبقًا: «الإيمان بالله» ابتسمتُ وأردفت: «إذا منع «الإيمان» المدّعَى المصريّين من الانتحار؛ ألم يكن من الأوجب أن ينعكس فى معاملاتهم؟! وإلّا فلماذا لا نتذكّر الله إلّا على قمّة بناية، أو فوه كوبرى علوىّ؟! لعل الارتفاع هو السبب».

ثمّ ضحكت كشيطان صغير.

تذكّرت كيف نظر إلىّ أولئك الأشخاص باستهجانٍ لم يعنِ لى شيئًا إلّا أنّهم غوغاء، لا يعون ما يقال، ويعادون ما يجهلون، ربّما هو الشّعور الآثم بالارتياح للحياة النّمطيّة، والثّبات على أرضٍ صلبة، حتّى ولو كانت محمولة على أفكار خاطئة. كم يزلزلهم كلّ ما هو مختلف، أو غير اعتيادىّ، يرتابون.. يشككون.. أو يختصرون الطّرق ويهاجمون.. وربّما لم يلحظ أىّ منهم أنّه بعد امتعاضهم كانوا يتبادلون النّظرات إلى بعضهم، وهم يحملون نفس الانفعال، كأنّما أرادوا تأكيد الفكرة وتبديد الشك فى نفوسهم المذبذبة.. ما قاله لن يغيّر من حقيقة الأمر شيئًا: فما نعلمه نحن هو الصواب، وتسرى الهمهمات بينهم ثمّ التّعليقات. لم يكن بإمكان الأستاذ الّذى لم يسعفه المنطق أن يردّ على كلمة ممّا قلتُ؛ فصار مشتّتًا يجمع من الألفاظ الخاوية ما يناقض فكرته، وإذا بذلك

الجمع الهائج يميد، ويتقاذف التعليقات ويهاجمون زميلهم «الشيوعيّ» ذا العقل الفاسد، ويثنون على صاحب الخمسين عامًا ورجاحة عقله.. إنّني أراه يزداد زهوًا بانتصاره السّاحق على مجادله المراهق.. وبعد دقيقتين يعلن انتهاء المناقشة: «بعد الحصة نتكلم".

لماذا إذن الابتسام وقد انحنى «عبد الحميد الخيّام» لي في آخر لقاء بيننا؛ كان عقله دائم البحث والتحليل يتلقّى ما أوصل من معانٍ عامدًا، ويتساءل عمّا سأطرح بعد ذلك، وإذا بي أضع يدي على قصور بفكرتي، أو موضع يحتاج الى فحص وتمحيص، وأعلم أنّه جرح خامد إذا انفجر في لحظة؛ فسأُهزَم في معركتي لإخضاع عقله لي، وعندها ستضيع نشوتي بالتّقدّم والظّهور على أسئلته بل الانتصار عليه في النهاية. أنا الوحيد الّذي يعلم كم أمكنتني حاسّتي النّادرة أن أستشعر ماهيّة الألفاظ الّتي يمكن أن تنكأ هذا الجرح الخامد؛ فأعمد إلى ألفاظ بديلة تحمل إيحاءات لا تلمّح ولو من بعيد إلى ذلك الخلل؛ فتأتي النّهاية الحتميّة حين يبتسم لي: «نعم.. عندك حق".

عندها لا أسأل نفسي كم أسأت للحقيقة عندما كان من الأجدر أن أصمت وأراجع فكرتي؛ كي لا أبعد عن جوهر الحق تلك المسافة البعيدة.. المسافة الّتي تشكّل كبريائي وتظاهري بالكمال، ورفضي أن أبدو إنسانًا مثل محاوري. إنّها الفطرة تحكمك، ونهاية الطّريق الّتي أغنتك عن السّير في الطّريق نفسه.. الكسب السّهل.. الثّقافة دون قراءة.. والإقناع دون

اقتناع.. والزّعامة دون مقتضيات الزّعامة.. ولتسقط الفكرة.. ولتصبح كائنًا مشوّهًا يسكن الذّات، يصفها اللسان حسب قدرته على الوصف؛ فيتلقّاها الجاهل عنها والفاقد للمنطوق حينها كما يريد المتحدّث منه أن يتلقّاها؛ فتبدو كائنًا شبه كامل عظيمًا مطلقًا غيرَ منقوصٍ أو مختلّ، ولتحيا الكذبة إلى حين، ولتسقط الحقيقة فى قاعٍ سحيقٍ فى النّفس تُنسَى خلاله الحقيقة، ولا تبدو إلا أجزاءً منها حينما يومض شعاع من التّذكّر أو التّبصّر؛ فيقتحم فى النّفس مسيرة سنوات فى لحظة لا يتعدى عمرها إغماضة عين، ويكشف جزءًا من ذلك الجسد المشوّه اللعين..

ربّما إذا اعتبرت جميع الأشخاص حوائط صمّاء لا تقوى على التّأثير؛ لكان «عبد الحميد الخيّام» دونًا عن إخوتى الكبار حائط مبكى، أهرع إليه لأعيد لنفسى ذكريات أيّام سابقة، أعصف بأفكارى فى عنف عنده، وأخرج تناقضاتى الباطنة فى صورة انفعالات زائفة، وطبعًا ما تيسّر من دموعٍ.. ولحسن للشّقاء، ربّما كان فيما أظهر من ادّعاء جانبٌ من الحقيقة، لا يتعدّى كونه وجهة نظرٍ لذلك الشّخص فى المستقبل، بعد أن بكى عمره وأطلال أسرته المندثرة، وأراد لنفسه النّهاية المثاليّة اللّائقة ببائسٍ حلم أن يصبح عظيمًا؛ ولذلك ف«عبد الحميد» هو صديقى الّذى لم يعاتبنى يومًا، ولم يدّعِ الحكمة؛ كى يشعر بنرجسيّةٍ لم يملك منها الكثير، وفى النّهاية فقيمة الأشخاص لدينا ليست فيما أثروا به عقولنا، وليست فى أقوالهم أو فى بعض نصحهم، وإنّما هى فيما نستشعر من

عواطف وأحاسيس مختلطة ردًّا على موقفٍ منهم أو كلمةٍ قالوها قد يكون لها أبعاد أخرى، ودوافع غير صادقة..

إنّه ذلك الكائن القابع في ظلمة القلب يضحك هازئًا ويبكي متحسّرًا.. كان على علم ربّما بما ستؤول إليه الأوضاع بعد زمنٍ طويلٍ من التّقلّبات والأزمات، والتّأرجح بين اليأس والأمل.. يحدّثني وقد قادني الفراغ إلى مسامرته ليلًا، وقد خلت غرفتي، وغرق الجميع في نوم عميق.. وفيما بدت نظرةً صافيةً إلى ضبابيّة الماضي وتعقّد الحسابات.. أفضى إليّ بأنّه كان يؤمن إيمانًا كبيرًا بوجود الشيطان.. ما يعادل اعتقاده الصادق بوجود الله.. كان يرتجف أحيانًا حين يتبادر إلى ذهنه أنّه طرفٌ في صراعٍ بين الخير والشرّ، يحكمه قطبٌ أعظم يحيط بكلّيّات وجزئيّات الكون المترامي دائم الاتساع.. الإله العظيم الّذي ترك النّفس لتحمل الشّرّ وتتفاعل مع الشّيطان، حتّى تصبح شيطانيّة المنزع والاتجاه؛ كي تجري حكمته المطلقة في النّهاية بشرطيّة الثّواب والعقاب، وارتباطها بحرّيّة الإرادة.. يذكّرني وقد ارتجف لذلك الخاطر القديم، كيف صوّر عقله الشّيطان وهو يقترب في تلك اللّحظة ويحيط به.. إنّه يسمعه يحدّثه ويستشعر وجوده بمدركاتٍ خفيّةٍ تشبه السمع والبصر.. يملكه بالخوف ويجعله يفكر.. «أين الإله؟». يهرول خارج غرفته وكأنّ الشيطان يتلبّسه، ويقوده إلى جحيم من الأفكار.. فقط عندما يبصر أحد إخوته جالسًا غير بعيدٍ منه يطمئنّ.. ويعود عقله إلى الاتّزان.. ربّما ليس الشيطان بتلك القوّة المتخيّلة والملصقة به زورًا، وإلّا لما عصمني منه

أخى الأكبر حتّى دون أن يدرى!

ولكن..

لماذا لهذا العقل أكثر قابلية للتّأثّر بوجود الشّرّ عن وجود الخير؟

فكّرت مليًّا، وصرت أتأرجح فى بحثى أقصى اليمين وأقصى اليسار، متذبذبًا فى ذاك بين الشّك واليقين، ومعتقدًا بالفكرة حينًا ونقيضها الحين الآخر، ومردّ ذلك هو تبدّل أحوالى وتناقض شخصيتى.. حياتى الّتى حملها النّشاط المتّقد لحظة والخمول لحظات اخرى.. تمايلى كبندول بين نقطتىّ السّفه والقداسة مرورًا بكلّ ما بينهما من نقاط بتسارع وعدم اتّزان.. كنت أدع العاطفة تسيّر إرادتى الحرّة باتجاه الموت.. ولتبن ما ترغب من أحلام فى عالم موازٍ لا يحكمه العرف والحوائط الصّمّاء.. هكذا ضللت الطّريق بل ونسيت بدايته.. إنّنى أقف وحيدًا لا أعلم الهدف، ولا أدرك من الصّواب سوى أنّه اتّجاه.. فأىّ اتّجاه أسلك؟!

رشفنا الخمر كم ودّت

منال الخمر أيدينا

وذقنا العشق فى كأس

وكم أتعبنا ساقينا

وذاب الحبّ فى قُبَل

فأمسينا محبينا

وكم هامت جوارحنا

وهمنا فى أمانينا

صرت أعيد على نفسي بقيّة باقية من أشعار قديمة عن كوثر.. أتذكّر أنّها أوّل فتاة تجرّأت على رسمها في تلك الكرّاسة البالية، ورغم أنّي كنت أختلس النّظرات إليها في غفلة من الجميع، إلّا أنّني تذكرت ملامح وجهها بدقّة أدهشتني، وربّما أنّ ذلك في النّهاية هو ما تبقّى منها.. صورتان وبعض القصائد في رثائي لذلك الحبّ المندثر.. كنت أرى زملائي وهم يلقون إليها بتلك النّظرات المتغزّلة.. كم حزنت لذلك.. إنّها سعيدة رغم كلّ شيء.. رغم احتقارهم لها، ورغم إساءاتهم البالغة في حقّها.. إنّهم يشعرونها بذلك الجموع الّذي تحتاجه في الرّجل، وذلك الضّعف الذي تتلذّذ به.. تختفي من خلفي الأصوات والأشكال؛ فلا تتبقّى إلّا تلك المجموعة المندفعة بغريزتها وأنا.. أتساءل داخلي كم من الوقت ستصمد في مواجهة النّيران.. إلى متى ستصبر قبل أن يجرفها التّيار إلى الاستمتاع بتلك اللحظات، حينما يداعبها الجميع بعيون زائغة وحرارة لافحة وجمر متّقد في الصّدور.. لم يكن لي في ذاك حظّ المنافسة، وما كنت لأرغب في ذلك كي لا أفقد صورتي في عينيها وفي مرآتي العابسة.. أعلم أنّها مسألة وقت ليس إلّا، وتشعر بالسّأم من ذلك التّأدّب اللعين.. وما هي إلّا سنواتٌ قلائل، وأصبح شيخًا يتذكّر أيّام الصّبا، ويندم أنّه أراد لنفسه الاختلاف؛ حتّى دفعته الفلسفة العقيمة إلى العيش وحيدًا دون أن يشاغل امرأة أو تشاغله، دون أن يحمل إلى العالم مأساة جديدة.. وابنًا جديدًا.. سينقطع نسل والده إلى الأبد، ولن يظهر له حفيدٌ سابعٌ يرث عنه

شحمة أذنه أو أرنبة أنفه أو نبرة صوته.. هناك معربدون وجرابيع أنسابهم متّصلةٌ بآخرين أمثالهم وأنسالهم باقيةٌ لأجيالٍ قادمة، بينما والدك الصّالح: فسينتهي «سلساله» بك.. وبك أنت، أمّا أولئك الإخوة فلن يحملوا للحياة إلّا إناثًا، أو ذكران لا يحملون إلّا إناثًا.. حتّى ينقطع ذكر الرّفاعيّة عن العالم! اللعنة!

***

# على قمّة الكون

"إنّني أقف على قمّة الكون عاريًا، مدفوعًا بأحلام صنعتها وأنا راقدٌ في عمق الأرض السّابعة؛ حتّى حملتني إلى هناك؛ فتكشّف لي العالم كما هو.. صغيرًا ومتّصلًا من أقصاه إلى أقصاه.. ثمّ أبصرت المجموعة فالمجرّة فالمجرّات من حولها، وإذا بي وقد اعتقدت أنّني ألممت بأطراف الكون المتّسع، تقع عيناي على بقعةٍ خاليةٍ في الأفضية المتناثرة.. هناك حيث رأيت ما كان حولها من فراغٍ قديم في أزل صنعه عقل البشر وما هو بالأزل.. ورأيت بمستقبلها مركزًا آخر لكونٍ تضاعف في لحظاتٍ وتمدّد.. وما زاد عليّ من عمره إلّا لحظة، حتّى أدركت عوالم أخرى لم تبصرها الأعين ألفتها في العالم القديم، وعلمت بوجودها كطيفٍ من أطياف الحقيقة غير ملمٍّ بأبعادها وحيثيّاتها.. هناك حيث غادرت كتلتي، وتلبّست كليّةً غير محسوسة، وصرت أنظر إلى الماضي والحاضر والمستقبل نظرةً سواء بعينٍ تخترق الكليّات والجزئيّات.. عينٍ توغل في التّفاصيل، وتكشف العوالم وراء العوالم والحقائق خلف الحقائق.. أمّا هذا الإنسان الّذي كنته يومًا؛ فلم أميّزه عن غيره من المخلوقات في نواحي الكون الممتدّ.. كأنّما صرنا كيانين منفصلين.. تركته كي يحيا لحظات عمره في حتميّةٍ ما بين عدمَيْ ماضيه ومستقبله، ونظرت من كلّ الكون؛ فأدركت اللحظة الواحدة عمرًا كاملًا للكون.. عمرًا

عشته بعدد اللحظات فى نفس كلّ مخلوقٍ مكلّف، وإذا بى أختره اللحظة موغلًا فى كلّ تغيّرات الكون، عالمًا بظواهرها وبواطنها، لا يعترينى فى ذلك الكبر أو الشّعور بالذّات غير الذّات؛ فقد كنت ولأوّل مرّة.. محررًا!".

***

# السّقوط الحرّ

"علمت أنّها لم تعد سوى مسألة وقتٍ كي أتلاشى.. بعد أن شعرت بتلك اليد الخفيّة تسحبني لأسفل.. ورجفةٌ تملّكتني أثناء السّقوط من القمّة.. تسارعت كتلتي حتّى شقّت ما قارب الكون في ومضة ضوء.. إنّها المرّة الأولى الّتي أشعر فيها بخطر الفناء وفقدان كلّ شيء.. كم تتسارع الأحداث من حولي ويتداخل الماضي والحاضر.. لم يكن ذلك عبثًا.. ولم يكن ذلك الفزع إلّا عين المصير القادم.. تقترب الأرض ويستمرّ السّقوط الحرّ!".

***

دار تنوين للنشر والترجمة والتوزيع

TANWEN FOR PUBLISHING

دا رتنوين للنشـر والتوزيع؛ واحدة من دو رالنشـر العربيـة الحديثة،
بُنيـت على سياسـة جديدة، تلك السياسـة التي تعتمد على صُنع الكاتب الشـاب
من البدايـة، وتَبنِّي عمله باعتباره مشـروع نعمل عليه سـويًّا
حتى ظهوره بشـكلٍ يليـق بالثقافة العربيـة، وليس الاعتماد على مجرد النشـر
، رسـالتنا التنوين؛
أي: إضافـة ما نـراه يؤهل العمل للنشـر والظهو ربصـورة احترافية.
إن كنـت قارئًا فتأكد أن رأيـك فيما قرأ- إن كان سلبًا أ و إيجابًـا يدفعنا دومًا للأمام
وإن كنـت كاتبًا فنحن في شغف لرؤية إبداعاتك

أُنضم لعائلة تنوين


Tanwen publishers

tanwen-publishers

+2 0100 9209 635

facebook her

tanwenforpublishing@gmail.com